نشأة الكتابة الفنية

في الأدب العربي

تأليف
الدكتور حسين نصار

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعـة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع	١٤٧٧٩/ ٢٠٠١
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 341 -051 -x

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد ـ الظاهر ـ القاهرة

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧

إلى أمى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله المعطى الوهاب، يَسّر لى العمل فى هذا الكتاب، حين كان رسالة أريد أن أقدمها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة، لأنال درجة الماجستير، ووهبنى أطيب الثمر بعد أن نوقشت فى اليوم السادس والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٤٩م، ووهبها اليوم الحياة فى عالم النور كتابا سويا .

وهى بصورتها الحالية لا تختلف عن صورتها الماضية، وهى رسالة إلا قليلا جدا. فقد حرصت على الصورة القديمة، وعلى النتائج الماضية، فلم أدخل عليها غير تغييرات طفيفة لا تكاد تذكر .

وإنى إذ أقدمها إلى المكتبة العربية، أرجو أن تكون لبنة فى صرح البعث العربى الجديد، والنهضة المصرية الحديثة، وأن تمد دارسى الأدب العربى ببعض النقط التى تصلح مراكز للبحث فى المستقبل .

وقد أشرف على "تكوين" هذه الرسالة، ورعاها فى صغرها، حتى صارت إلى ما صارت عليه، أستاذى "مصطفى السقا" الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، فله أوجه أجمل الشكر وأخلصه.

تمهيد

ظل النقاد والأدباء العرب منذ أقدم العصور حتى اليوم يوجهون جُلَّ عنايتهم، إن لم يكن كلها، إلى الشعر وحده، مما جعل النثر غريبا على الكثير منا، لا يستطيع أن يتصوره التصور الصحيح، أو المقارب للصحة، وكان من جراء ذلك ضياع كثير من النثر الذى لعله كان يفيدنا ويفيدهم، لا فى تصور الحركة النثرية وحدها، بل الحركة الشعرية أيضا، حتى إننا لا نجد لدينا من كثير من كبار الكتاب الذين كانت لهم المجلدات من الرسائل غير الرسالة أو الرسالتين أو أكثر من ذلك قليلا، مثل سالم وعبد الحميد وابن العميد وغيرهم.

كان هذا الصنيع منهم، مما شجعنى على اختيار هذا الموضوع والتمسك به، ومحاولة التغلب على العقبات التى تعترض الطريق أمام الباحث فى أمور تركها القدماء، ولم يرتدها إلا قليل من المحدثين .

ولما وقع العزم على اختيار النثر مادة للبحث، كرهت أن أتعرض لموضوع طويل عريض، لا يحتاج من الباحث إلا لمجرد العرض، دون تعمق، أو نفاذ إلى بواطن الأمور. ولذلك أردت أن أضع نصب عينى مشكلة من مشاكل ذلك النثر العربى الكثيرة، فأحاول إلقاء بعض الأضواء عليها، ليقترب الباحثون من حلها، إن لم أوفق فى الوصول إلى ذلك الحل بنفسى. ومن الطبيعى أنه ظهر لى أن أولى المشكلات فى تاريخ النثر هى نشأة النثر الفنى جملة. ولكن أردت أن أجعل المسألة أكثر تحددا أمامى فقصرت بحثى على "نشأة الكتابة الفنية" . وساعد هذا التحدد على تضييق ميدان البحث، مما يعاون على سعته، والدقة فيه، والإمعان .

وليس العنوان بغريب على الباحثين، ولكنى أحب أن ألقى عليه بعض

الأضواء، لتظهر الوجهة التى أنظر إليه منها. أما نشأة الكتابة، فقد عنيت بها ظهور الآثار النثرية المدونة، وتدرجها حتى استكمال خصائها فى الصدر الأول من تاريخها. فوصلت بها إلى عبد الحميد الكاتب، معتبرا العصر الإسلامى والأموى عصر نشأة الكتابة الفنية. ولا يدخل فى رسالتى هذه أنواع من النثر العربى، وجدت فى هذا العصر، وقبله، مثل الخطب والأمثال والحوار وما إليها، لأنها ليست من الآثار الكتابية. ويجب ألا يغيب عن الذهن أنى أتكلم عن عصر نشأة الكتابة، ولذلك لا تعنينى فروع الكتابة الفنية التى ظهرت بعد هذا العصر، مثل كتابة الكتب الأدبية والمقامات والمقالات الصحفية وما ماثلها، كقولنا ظهور الإنسان على وجه الأرض، فإن ذلك لا يعنى أن يتناول ظهور جميع الأجناس البشرية، وإنما ظهور الخليقة بصفة عامة، كذلك لا تعنينى الكتابة الفنية التى نشأت فى الولايات الإسلامية المختلفة بعد هذا العصر، عند نضج الآداب الإقليمية، وتخصصها بمزاياها وظواهرها. وإنما يعنينى ما نشأ من الكتابة الفنية فى هذا العصر الذى تعالجه رسالتى، سواء أكانت هذه الكتابة فى الجزيرة العربية، أم فى العراق، أم فى فارس، أم فى مصر، أم فى الشام، أم فى المغرب. ولم أخصص لكل إقليم من هذه الأقاليم دراسته الخاصة، لأن الأقاليم – مع إيماننا بنظرية البيئة – لم تكن قد تميزت بعد فى أدبها العربى، أو بالأحرى لم تكن وجوه الاختلاف بينها قد ظهرت بشكل واضح، فكُتابها نازحون إليها مع ولاتها عن عاصمة الخلافة، والأحداث مشتركة بين جميع الإمارات والعاصمة، أو متجاوبة الآثار فى غالب الأحيان .

وأما اللفظ الثانى، وهو "الفن" ، فأصعبها فى التحديد . فقد اختلف النقاد والأدباء والفلاسفة منذ قديم الزمن إلى اليوم، فى تحديد هذا اللفظ، وما استراحوا إلى تعريف بعينه . ولكنى لن ألقى بالا إلى كل هذا الخلاف، وأقصد توّة إلى ما أردته

منه. فأما ما أردته أنا بعبارة "الكتابة الفنية" فهى الكتابة التى لا تصدر على السليقة، لا يقصد فيها صاحبها إلا مجرد الإفهام، وإنما أردت الكتابة التى تروّى صاحبها فى تجويد المعنى، وتأنى فى اختيار اللفظ قبل إبرازها، لتخرج محبرة مجودة، لأنه لا يقصد منها الإفهام وحده، وإنما يقصد أيضا إثارة اللذة عند القارئ، والإحساس بالجمال. ولذلك نعتُّ كتابات العرب الجاهليين، وكتابات الرسول والصحابة، بأنها غير فنية، على الرغم من فصاحتها وجمالها. فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده، وإنما أقصد الجمال الذى استحدثه صانع فنان، يعرف ما يعمل، ويريده ويبحث عنه. وإذن فأنا أقصد من هذه الرسالة نشأة الكتابة التى كان يريد كتابها إحداث اللذة الفنية فى القارئ، بما يسبغون عليها من خصائص، ثمرة لترويهم وتحبيرهم، ولم أقصد الكتابة البسيطة الصريحة، التى تبغى مجرد نقل ما تحوى من أفكار، ولو بلغت هذه الكتابة درجة الجمال والأناقة. وأحب أن أقول إن الأناقة فى الكتابة لا تلتزم الصنعة، وإنما قد يخرج القول المرتجل التلقائى جميلا أنيقا دون ترو أو تعمل، مثله فى ذلك مثل الحسناء، يغنيها جمالها عن الحلى والزينة. أما الكتابة الفنية التى أقصدها فهى مثل الحسناء التى تشعر بهذا الحسن، وتحب أن تلفت إليها الأنظار، فتبرز أجمل مواطنه، وتعالج نقائصه .

وقد تكلم قبلى بعض الأدباء عن الكتابة أو النثر الفنى، وما يحوى من فروع، ولكنى تناولت فى هذه الرسالة كتابة الرسائل وكتابة التاريخ. أما كتابة الرسائل فلا يعارض أحد فى أنها من الكتابة الفنية، ولكن قد يعترض بعض الناس على كتابة التاريخ . وإلى المعارضين أشير بالرجوع إلى كتاب "علم التاريخ" ترجمة الدكتور العبادى بك، وإلى المقال الأول، فى العدد الأول، من مجلة تاريخ العالم، التى

تصدرها مكتبة النهضة المصرية فى هذه الأيام[1] . فهنـاك نقـاش طويـل عـن الكتابـة التاريخية، ومكانها بين العلم والفن، وقد افـترق فيهـا المفكـرون مـن النـاس شـيعتين، ذهبت الأولى منهما إلى أن التاريخ علم، ويمثلهـا قـول الدكتـور " بيـورى J. B. Bury " : "التاريخ علم لا أكثر ولا أقل". ويستند هذا الفريق إلى تعريـف العلـم بأنه "المعرفة المنظمة، المبوبة، المقننة"، فيدخلون التاريخ فيها. وذهب الفريق الثانى إلى أن التاريخ فن. فالعلم بالغا ما بلغ، لا يعطينا من التاريخ إلا العظام المعروقة اليابسـة، ولا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام، وبعث الحياة فيها. فإذا مـا أحياها الخيال، فهى بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب النحرير، حتـى تـبرز فـى الثـوب اللائق بها، وتُعرض بحيث تصبح قوة فعالة فى عالمنا هـذا. أمـا مـا يتصـف بـه رجـل العلم من حياد جاف، فلا محل له، ولا يمكن أن يطاق فـى مقـام المـؤرخ الـذى يعنـى بشئون النفوس الحساسة، ويبلغ الأمر بالأسـتاذ "ترفليـان" إلى أن يقـول: "مـن كـان فاقد الانفعال والحماسة، فقلما يؤمن بانفعالات غيره، ثم هو لا يمكنه أن يدرك هـذه الانفعالات أبدا" . وربما كان التعريف القائل بـأن "التـاريخ هـو التدويـن القصصـى لـمجرى شئون العالم كله أو بعضه "خير ما ينير لنا الطريـق إلى تصـور التـاريخ فهـو تعريف صحيـح، ويشـير صراحـة إلى أن التـاريخ مـن الفـن القصصـى، أحـد فـروع الكتابة الفنية. أضف إلى ذلك أن التاريخ فى نشأنه لم يكن علما خالصا فـى أيـة أمـة من الأمم، وإنما كان قصصا تحوطها المبالغة والخرافات، فهو أقرب إلى الأدب منه إلى أى شىء آخر .

وقد حاولت أن ألم إلمامة موجـزة شـاملة بنشـأة هـذا النـوع مـن الكتابـة عنـد

---

(١) أى عام ١٩٤٩ ، حين قدمت هذه الرسالة للمناقشة .

العرب. ولكنى مع ذلك لم أرنى محتاجا إلى تتبع جميع التآليف التى ظهرت فيه، إذ هناك بعض المؤلفات التى وُجدت ولكن لم نعثر إلا على أسمائها، مثل كتاب "المثالب" لزياد بن أبيه، وكتاب "نسب الأنصار" لعبد الله بن محمد بن عمارة الأنصارى، وهناك - فى غالب الظن - كتب وجدت وضاعت ولم تصل إلينا أسماؤها. ورأيت أنه يكفينى التعرض للنصوص الموجودة، وبحثها، ومحاولة تعرف خصائصها، لبيان حركة التطور عامة. أما الكتابات الضائعة فلا حيلة لنا فيها، ولا نحب الوقوف للتأسف عليها .

وأحببت فى رسالتى هذه أن أوثر الحياد المُطلق، وأن أصل إلى الحقيقة العارية، والحقيقة وحدها . ولذلك أخليت ذهنى - قبل الشروع فى البحث - من جميع معارفى السابقة عن الكتابة العربية، وحاولت جهدى ألا أنحيز لفكرة سابقة، أو رأى لكاتب آخر. ثم واجهت النصوص الكتابية مباشرة دون التجاء إلى الذين كتبوا عنها شارحين أو محللين أو ناقدين، كى أجعل هذه النصوص نفسها هى التى توحى إلى بما أكتبه، ولا أجعل أحدا واسطة بينى وبينها، أو بالأحرى ستارا بينى وبينها، قد يحجب فيما يحجب الحقائق الناصعة، أو يلونها بما يحب من أطياف. ولكنى كنت بعد أن أستوحيها كل ما يمكننى استيحاؤه منها، أرجع إلى أكبر قدر ممكن من هؤلاء الشراح والمحللين والنقاد والمؤرخين، لأستعين بهم على إيضاح بعض النقط، أو معرفة ما لعله غاب عنى. وهكذا أظننى على حق حين أقول إن هذه الرسالة ثمرة جهدى الخاص، وأنها حاولت جهدها ألا تتأثر بأحد من الأدباء، وأن تصور الكتابة العربية الفنية فى نشأتها صورة صادقة كل الصدق، واضحة تمام الوضوح .

ورأيت أن الصورة تبرز وتتضح إذا ما قسمت الرسالة حسب الموضوعات لا حسب الأزمان. ولذلك خصصت أبوابا مستقلة للرسائل السياسية والدينية

والإخوانية، وراعيت التقسيم الزمنى فى داخل هذه الأبواب، حتى يجتمع المنهجان، وتتسلسل الموضوعات دون أن تفصل بينها الفواصل الغربية عنها. وإن اتصلت بها بعض الاتصال. ولن يضر ذلك التقسيم بالتطور التاريخى للكتابة الفنية عامة. فإننا عندما نراعى هذا التطور التاريخى لكل فرع على حدة، يتيسر لنا معرفة نشأة كل فرع من فروع الكتابة الفنية معرفة دقيقة تتبع الظواهر المختلفة التى تشيع فى كل فترة من عصر النشأة تتبعا دقيقا شاملا، ويتيسر لنا معرفة أسبابها وثمراتها معرفة واضحة ماثلة. فإذا اجتمعت لدينا هذه الظواهر الخاصة، أمكن معرفة ما ساد منها جميع فروع الكتابة الفنية وبحثها، فنستنبط التطور التاريخى للكتابة الفنية عامة، ونتصور الخواص التى تعاقبت عليها تصورا بارزا صحيحا. أضف إلى ذلك أنى اعتبرت العصور الثلاثة الجاهلى والإسلامى والأموى حقبة واحدة، هى حقبة النشأة، ولذلك لا يجمل تقسيمها إلى أقسام صغيرة يعنى فيها بجميع أنواع الكتابة فتزدحم بالخصائص، ويضيع علينا تسلسل التطور فى كل فرع منها .

هذه هى المشكلة التى رأيت أن أتخذها موضوعا لرسالتى، وهذا هو المنهج الذى أتبعه فى بحثها، راجيا أن أصل، بتوفيق من الله، إلى تقديم الصورة الصادقة الواضحة لنشأة الكتابة الفنية عند العرب .

الجزء الأول

كتابة الرسائل

الباب الأول

الرسائل السياسية

الفصل الأول

العصر الجاهلى

وصف بلاد العرب الطبيعى :

عندما نلقى نظرة شاملة على مُصَوَّر بلاد العرب نرى شبه جزيرة يتسع جنوبا ويضيق شمالا، ويغلب عليه اللون الأصفر الذى يحكى رمال الصحراء، وقد نرى اللون الأحمر الداكن الذى يمثل التلال والجبال، على أننا لا نكاد نرى أثرا للون الأخضر الذى اعتاد الجغرافيون أن يمثلوا به الأراضى الخصبة. فبلاد العرب فى جملتها إذن صحراء واسعة تتخللها جبال متفرقة كثيرة، أو سلاسل جبال متصلة أحيانا من الشمال إلى الجنوب. وأقصى ارتفاع فى سطح شبه الجزيرة فى ناحية اليمن، ثم تأخذ فى الانخفاض شمالا وشرقا حتى تصل إلى سواحل الخليج الفارسى وسواد العراق وبادية الشام، فلا تظهر غير كثبان من الرمل، أو مجموعة من الصخور الصلبة فى عمان على الخليج. وليس فى بلاد العرب أنهار دائمة الجريان، وإنما تمتلئ أوديتها بالمياه فى مواسم المطر، ثم لا تلبث أن تجف بعد ذلك .

هذه نظرة الطائر لشبه الجزيرة عامة، دون نظر إلى أقسامها السياسية أو الطبيعية المختلفة، تغرينا أن نقول إنها بلاد صحراوية رملية يسكنها بدو رحل

لايعرفون للاستقرار معنى. ولكننا إذا ما تأملنا قليلا، وجدنا ما يخالف ذلك. فبلاد العرب بها أراض غاية في الخصب تزرع منذ آلاف السنين، وفيها المدن والقرى الآهلة بالسكان.

ويمتد الخصب عامة على سواحل شبه الجزيرة. وكانوا يزرعون بنجد[1] واليمامة مقادير وفيرة من القمح تسد حاجة العرب، بل كانتا لا تقلان في القرنين السادس والسابع الميلاديين عن أرض أوربا المزروعة اليوم، وربما بذاها خصبا في كثير من البقاع[1]. وكانت المراعي الغنية تنتشر على الساحل الغربي، وفي أواسط بلاد العرب في أرض نجد المشهورة بمراعيها التي تربى فيها الخيول الكريمة، ومن أشهر المناطق الخصبة في بلاد العرب الأحماء[2]، مثل حمى ضرية، وحمى الربذة، وحمى فيد، وحمى النهر، تلك المناطق التي بلغ من خصبها ما دفع بعض القبائل القوية إلى التحكم فيها وقصرها على أنفسهم، ومنع غيرهم منها، ومن ثمت سميت الأحماء. ويشبه هذه الأحماء في خصبها أراضي الدهناء[3]، والمناطق التي تسمى الدارات، وهي كثيرة منتشرة في أنحاء الجزيرة، وقد ذكر منها البكري وياقوت عددا كبيرا. وكان الحجاز نفسه تتخمه الأودية الخصبة والآكام التي تسكنها القبائل وتقيم حولها القرى والضياع. وكان ينبت بسفوحه بعض الحبوب والثمار حيث توجد العيون والآبار. ولعل ذكر الطائف يغنينا عن كل كلام، فهي بستان مكة المشهور بفواكهه المنوعة الجيدة، ومصيف أثريائها. وكان ينتشر في المدينة وحولها الأراضي الخصبة

---

(١) هل : ثقافة العرب – ص٢ .

(٢) انظر البكرى: معجم ما استعجم ، مادة ضرية ، وياقوتا : معجم البلدان، مادة حمى، لمعرفة مقدار خصب هذه المواضع .

(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب – ص١٧ .

التى استغلها اليهود أحسن استغلال حتى أدخلوا فيها وفى مستعمراتهم الزراعية فى شمال بلاد العرب: خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى، أدخلوا فيها أنواعا جديدة من الأشجار وطرقا حديثة للحراثة والزراعة بالآلات[١].

هذه بلاد العرب ليست صحراء مجدبة شاملة كما كنا نحسب دائما، وإنما هى صحراء تنتشر فيها المناطق الخصبة الزراعية والمراعى، حيثما توجد الآبار والأمطار، أو حيثما يتيسر الحصول على الماء .

الاستقرار :

وكما يخطئ من يظن أن بلاد العرب صحراء جرداء، لا نبات فيها ولا ماء، يخطىء الذين يظنون أن أهلها بدو رحل، لا يقرون فى مكان، ولا يتصلون بالأرض التى يسكنونها اتصالا وثيقا كأهل البلاد الزراعية، وإنما يتربصون مواسم الغيث فيخرجون بكل ما لهم من نساء وإبل يتطلبون المرعى[٢].

ونحن لا نستطيع أن نساير هؤلاء الذين يطلقون القول إطلاقا، وخاصة بعد أن رأينا بلاد العرب ليست محرومة الماء والخصب، بل توجد فيها أراض واسعة تشمل واحات ومستعمرات زراعية ومراعى غنية تتربى عليها ماشيتهم التى هى أعظم ثروتهم. فهل كانت الحياة فى تلك المناطق الخصبة حياة رحلة وانتقال أو حياة مكث واستقرار ؟

ما أظن أنى فى حاجة إلى كلام عن حياة إمارتى الحيرة وغسان، وأن أقول إن

---

(١) يذكرنا هذا بمعاملة الرسول الخاصة ليهود وادى القرى وخيبر وما جاورها فى غزواته لهم بسبب مهارتهم فى الزراعة .

(٢) أحمد أمين – فجر الإسلام – ص٤ .

الحياة فيهما لم تكن حياة بدوية، عمادها التنقل وطلب الكلأ، فما يستطيع أن يقول بهذا أحد، وما أظنني بحاجة إلى الكلام على قُرى الحجاز وشمال بلاد العرب، تلك القرى والمدن التي غلبت عليها الزراعة، بل أدخلت فيها الآلات الزراعية الحديثة – في ذلك الوقت – من الأقطار الأخرى، وما أظنني بحاجة إلى الكلام على مكة، تلك المدينة التي انتقلت إليها ثروات اليمنيين والرومان والهنود والتي انهمرت عليها الأموال، فما كانت الحياة فيها حياة رحلة وانتقال، إلا إذا اعتبرنا الرحلات التجارية رحلات بالمعنى الذي يقصده الباحثون حين يطلقون هذا اللفظ على العرب إطلاقا .

ولكن ما شأن الحياة في غير هذه المناطق الزراعية والتجارية ؟

كانت المناطق الأخرى تسكنها القبائل الرعوية التي تطلب الغيث والكلأ، ولكنها لم تكن تطلبهما أنى كانا: في شمال شبه الجزيرة، أو جنوبه، أو شرقه، أو غربه، وإنما كان لكل قبيلة موطن خاص، أو مجال خاص لا تتعداه هي، ولا تتعدى عليه القبائل الأخرى إلا إذا نشبت الحروب، كما يحدث بين الدول حين تعتدى إحداها على الأخرى. والقبيلة في موطنها هذا حرة الحركة والتنقل، تتبع مساقط المطر، ومنابت الكلأ في المرابع والمصايف، فهو موطن دائري، أو موطن أكبر تدور فيه رحلات موسمية، كأن تقضي القبيلة صيفها في موضع، وربيعها في موضع. ولكن هذه المواضع لا تتعدى حدود إقليمها الأكبر، ويظهر هذا في أشعارهم، وفي قول العلماء أنفسهم إن قبيلة كذا كانت تسكن كذا، وقبيلة كذا كانت تسكن كذا[1]. وقد سجل الشاعر الجاهلي الأخنس بن شهاب التغلبي مواضع القبائل في قصيدة، يقول فيها[2]:

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام – ص٨ .

(٢) المفضليات ٢ : ٣ – والأعلام المذكورة في القصيدة أسماء قبائل ومواضع .

لكــل أنــاس مــن معــد عمــارة　　عــروض إليهـا يلجئــون وجــانب
لكيز لهــا البحـران والسـيف كلـه　　وإن يأتها بــأس مـن الهنـد كـارب
تطـاير عـن أعجـاز حـوش كأنهــا　　جهــام أراق مــاءه فهــو آئـــب
وبكـر لها ظهـر العـراق وإن تشـأ　　يحـل دونهـا مـن اليمامـة حــاجب
وصـارت تميـم بـين قـــف ورملـة　　لهـا مـن حبـال مُنتــأى ومذاهــب
وكلـب لهـا خبـــت فرملـــة عـــالج　　إلى الحـرة الرجـلاء حيـث تحـارب

... القصيدة

إذن هذه حياة قد نصيب إذا سميناها شبه مستقرة، ونخطئ إذا وصفناهـا بعـدم الاستقرار .

أما الهجـرات الكـبرى وإغـارة القبـائل بعضهـا علـى بعـض فهـذا أمـر مشـاهد ملموس حتى فى البلاد المتحضرة اليوم. فإنه عندما تشتد السـنون بالقبيلـة أو يشـتد عليها الضغط السياسى أو الاقتصـادى مـن قبـائل أو دول أخـرى، تضطـر إلى تـرك موطنها الأصلى، آسفة غير قالية. ولا يناقض ذلك الاستقرار، وإنما يجعلنا ننظـر إليـه مخففا. ولا أدل على ذلك من اضطرار القبائل اليمنية المتحضرة المترفـة لـترك ديارهـا والهجرة إلى الصحراء شمالا بعد انهيار سد مأرب، وسقوط الدول اليمنيـة المزدهـرة، ومن اضطرار القبائل العراقية إلى ترك موطنها الخصيب الغنـى والهجـرة إلى صحـراء العرب، فإلى اليمن عندما اشتد عليهم ضغط القبائل الآتية من الشمال .

ولعل الشعر العربى كان من العوامل الدافعة إلى رمى العرب بعـدم الاسـتقرار. فهذه القصائد العربية تبدأ بالأطلال، والديار المهجورة، وذكـر الأيـام السـالفة بهـا، وفراقها طلبا للمرعى والكلأ، وما إلى ذلك، مما جعلنا ننظـر إلى العـرب كـأنهم قـوم

رُحَّل لا يقر لهم قرار. ولكن الشعراء ما أرادوا ذلك، وإنما أرادوا رحلاتهم القصيرة الصغيرة في موطنهم الكبير، وانتقالهم بين المصايف والمرابع .

ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا آخر إن العرب عرفوا الاستقرار فى المدن والقرى الزراعية والتجارية، وعرفوا شبه الاستقرار فى المراعى المتناثرة، وعرفوا عدم الاستقرار فى صحاريهم الماحلة .

العزلة :

وخدعت بلاد العرب الدارسين خدعة أخرى، بقولهم إنها صحراء. إذ الصحارى أراض فقيرة، لا يتيسر للمتحضرين العيش فيها، ولا تطمع الدول القوية فى استعمارها، لفقرها وتمنعها على الجيوش الجراراة. وفرعوا على ذلك أن سكانها معزولون عُزلة تامة عن أمم الأرض، فهم منطوون على أنفسهم فى جزيرتهم، لا يكاد يحس بهم أحد، ولا يكادون يعرفون من شئون الدنيا الصاخبة بالحياة حولهم شيئا .

ولكن الحقيقة أن العرب كانوا بعيدين عن العزلة والسكون، إذ اتصلوا بالحضارات التى قامت حولهم منذ قديم الزمن، على اختلاف أنواعها ومصادرها .

وكانت الطرق الرئيسية التى تسربت الثقافات من خلالها إلى بلاد العرب، هى:

(١) الاستعمار : فقد أنشأت الأمم المحيطة بالعرب مستعمرات عسكرية على التخوم بين الجزيرة العربية وبينهم لحراسة الأرضى الزراعية أو المناجم المعدنية. وعلى ذلك قامت الصلة بين العرب والمصريين منذ قديم الزمن فى أيام الفراعنة الأولين. إذ سار الفراعنة فى أيام الأسرات الأولى باحثين عن النحاس فى شبه جزيرة سينا، وتوغلوا فى السير حتى وصلوا إلى شمال الحجاز وجنوبى سورية،

واستعمروا تلك الجهات، وأقاموا المخافر التى كان من بينها مستعمرة فى موضع المدينة اليوم. وعرفت الأمم تلك السيطرة ا لمصرية على بلاد العرب، حتى كان الأشوريون – البابليون يطلقون لفظ "مصر أو مصر" على القطر المصرى وشمال بلاد العرب وجنوبى سورية أيضا . واستعمل هذا الطريق فى التجارة أيضا، كما استعمل طريق البحر الأحمر. ويظهر تأثير المصريين فى مشروعات الرى فى الجنوب، وفى التماثيل والآلهة واللغة فى الشمال .

وحاول العراقيون أيضا استعمال المناطق المجاورة لهم، فتتابعت حملاتهم منذ عهد سرجون الأشورى عام ٧١٥ "ق م" وربما من قبل وتمكنوا فعلا من إخضاع بعض القبائل فى الجاهلية البعيدة والقريبة. ولم يكن اتصال العراقيين بالعرب حربيا على الدوام، بل كان سلميا أيضا عن طريق التجارة والرحلات والهجرات الفردية والجماعية أحيانا، من الطرفين على السواء. فتسربت الثقافة العراقية إلى العرب، ويظهر ذلك فى مشروعات الرى والحضارة اليمينة فى الجنوب وفى الديانات واللغات فى الشمال. وكانت هذه الصلة غاية فى الوضوح والشدة قبيل الإسلام .

ومن أبرز الأمثلة على هذا الاستعمار إمارتا الحيرة وغسان، اللتان لا نحتاج إلى الكلام عنهما، وعن الدور الذى أدتاه فى حمل الثقافات الهلينية والفارسية إلى العرب، إذ كل من له اتصال بالأدب العربى يعرف ذلك .

(٢) ومن الروابط بين العرب وغيرهم، التجارة: وقد كانت بلاد العرب من أهم المراكز التجارية فى العالم القديم، إذ تجمعت فيها تجارة اليمن وحضر موت والبحرين والهند والصين والحبشة ومصر والشام. وكانت توزع هذه الواردات على العالم القديم أجمع، وخاصة مصر والرومان وفارس .

وعرفت بلاد العرب عدة طرق تجارية، أهمها الطريق المار باليمن والحجاز إلى الشام. وكان هذا الطريق فى أول أمره بيد اليمنيين وحدهم، ثم اليمنيين والأنباط، ثم الحجازيين وحدهم بعد تدهور الفريقين الأولين. وكان الحجازيون يخرجون فى قوافل كبيرة قد تبلغ خمس مئة وألف بعير. فتشبه الجيش، كما يقول سترابو. فيتقدمها الرواد لتعرف ما فى الطريق، والهداة يهدون السبيل، والحراس يخفرونها.(١) وكان لهم رحلتان: صيفية إلى الشام، وشتوية إلى اليمن . (٢)

وكان لمكة مركز خاص فى التجارة، إذ كانت على مفترق عدة طرق تجارية تسير إلى أنحاء شبه الجزيرة المختلفة، ومنها إلى أقطار العالم القديم. وكان بنو عبد مناف من قريش يتوجهون إلى البلاد المختلفة للتجارة، فكان هاشم يتوجه إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس. وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد فى ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم بسوء.(٣) وكان كل أخ منهم يأخذ من ملك البلد الذى يقصده أمانا لهم، فكان هذا أشبه بالروابط والعلاقات بين أمراء مكة وغيرهم من الملوك (٤) .

وتحضر المكيون حتى قال عنهم أوليرى(٥) : "من الصعب أن تتخيل شيئا أبعد عن صورة الحياة العربية المأثورة من هذه المدينة التجارية الغنية التى فقد رجالها كل ميل للحرب ورضوا باستخدام جنود مأجورين (يقصد الأحابيش)، وجعلوا مدينتهم

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام – ص١٦ .

(٢) القرآن : السورة ، ١٩٦ .

(٣) القالى : النوادر ، ص١٩٩ .

(٤) الدكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ١ : ٦٤ .

(٥) أوليرى: بلاد العرب قبل الإسلام ، ١٨٤ .

موطنا مستتب الأمن ومركزا للبيوت التجارية فى آسيا الغربية". ونحن نصدق كل ما ذهب إليه أوليرى إلا أن لفظ الأحابيش خدعه، فظنهم جنودا مأجورين من بلاد الحبشة. والحقيقة أنهم عرب خلص من بنى الهون من خزيمة وبنى الحارث من كنانة، وبنى المصطلق من خزاعة، حالفوا قريشا وكانوا من الُغلاة فى دينهم. وأطلق عليهم هذا الاسم من تجمعهم وتحالفهم (التحبش : التجمع) أو من عقدهم هذا الحلف على جبل حبشى بجوار مكة، أو فى سوق تهامة القديم المسمى حباشة[1]، وفى ختام كلامنا عن التجارة نذكر قول أوليرى[2]: "وقد نقول – ونحن آمنون تماما – إن كل مواطن مكى فى القرن السابع الميلادى قام برحلة على الأقل إلى بصرى أو الحيرة" .

(٣) ومن الأمور التى كانت تربط العرب بالعالم الخارجى، البعوث الدينية فقد هاجر اليهود إلى بلاد العرب منذ قديم الزمان كلما اشتد عليهم ضغط الأعداء أو قست عليهم المجاعات، وانتشرت اليهودية فى شمال الحجاز وفى نجران من اليمن. وكان اليهود واسطة انتقال الثقافة الهلينية لبلاد العرب، كما عرفوا العرب بالزراعة والتجارة وصناعة السيوف والدروع والآلات والصياغة وغير ذلك .

وأخذت المسيحية تتسرب إلى بلاد العرب منذ القرن الرابع الميلادى، وكان أباطرة الرومان يشجعون هذا الانتشار لأن فيه بسطا لنفوذهم السائر وراء المسيحية وعلى الرغم من عدم ملاءمة التساهل واللين المسيحيين للخلق العربى، وغموض المبادئ المسيحية على عقله، فإن المسيحية انتشرت فى الحيرة وغسان ووادى القرى ونجران، التى كانت مذابحها السبب فى استعمار الحبشة للبلاد اليمينة، وهكذا

---

(١) انظر تاج العروس . مادة "حبش" ، وابن الأثير . الكامل ١ : ٤٣٨ ، ٤٤٢-٢ : ١٢ ، ١٥٤ ، والأزرقى: أخبار مكة ١ : ٦٦ .

(٢) بلاد العرب قبل الإسلام – ١٨٨ .

يمكننا القول بأن المسيحية نشرت الثقافة الهلينية والحبشية فى البلاد .

أظننا الآن نستطيع أن ننكر العزلة المدعاة إنكارا شديدا دون أن نخاف لوم أحد، فهذه بلاد العرب حركة دائبة من داخل إليها وخارج منها، داخل آت بثقافات مختلفة، وخارج يرجع بثقافات مختلفة، حتى قيل[1]: "لم يصل إلى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب، وذلك لأن من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة وأخبار أهل الكتاب، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم وبنى إسرائيل واليونان، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنهم أتت أخبار السند وفارس، ومن سكن اليمن علم بأخبار الأمم جميعا، لأنها كانت فى ظل الملوك السيارة" . ولكن يجب أن نذكر أن معارفهم لم تكن دقيقة صحيحة، وإنما نالها بعض الاضطراب والتشويه فى أثناء قطعها القفار والأقطار إليهم .

الكتابة الخطية:

فى هذه الأحوال، والثقافات تصطرع فى بلاد العرب، عاش العربى تتنازعه هذه القوى المختلفة. فمن قوى فارسية تغزوه من الشرق، إلى قوى بيزنطية تنفذ إليه من الشمال الغربى، إلى أخرى حبشية تحث خطاها إليه من الجنوب؛ ومن يهودية، إلى مجوسية، إلى وثنية، كلها تحيط به، وتُوغل فى بلاده، وفى عقله، وفى قلبه، تاركة آثارا، قد تعمق أو لا تعمق، ولكنها آثار على كل حال .

وكان من هذه الآثار الكتابة أو الخط العربى. وقد ادعى كل من أنصار هذه القوى المختلفة أنه صاحب الفضل فى ظهور هذا الحادث الجديد. فالأب لويس

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام – ٢٣ .

شيخو المسيحي يدعيه للمسيحية[1]، والأستاذ إسرائيل ولفنسون اليهودى ينسبه لليهودية،[2] وعلماء آخرون غيرهما يدعونه للحيرة[3] أو لليمن[4]. ولكن هذه الأقوال جميعها تجانف الحق، وتحيد عن الطريق السوى. فالكتابة العربية لا ريب وليدة الكتابة النبطية، التى كانت تعيش فى شمال الحجاز وجنوبى الشام، فى القرون الأولى من الميلاد، تلك الكتابة المتفرعة من الخط الآرامى فى القرن الأول قبل الميلاد على وجه التقريب. وقد أخذت هذه الكتابة تتطور تطورا سريعا، وتأخذ مسحتها النبطية فى الزوال، وتصطبغ بالصبغة العربية، فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين. وفى القرنين الخامس والسادس من الميلاد امحت الكتابة النبطية، وزالت تماما، ولكنها بعثت فى صورة أخرى هى الكتابة العربية .

أما أقوال الكتاب العرب الأقدمين من أمثال الصولى وابن النديم وابن خلدون فلا تستحق العناية أو الجدل إذ لا تستند إلى دعامة قوية، أو دليل واضح.

لهذا نقول: إن الخط العربى لم يؤخذ من الحيرة أو اليمن أو غيرهما، وإنما ولد ونشأ فى بلاد العرب الشمالية "الحجاز"، لأن الكتابة من الأشياء الضرورية للتجارة، وأهل الحجاز - كما رأينا - قوام حياتهم التجارة، وهى مورد رزقهم الأول: وقد رأينا بوضوح تحقق الصلة التجارية بين عرب الحجاز والنبط منذ ظهور هذه الدولة على حدود الشام حتى زوالها، بل يظن بعض الباحثين أن النبط بسطوا

---

(١) لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ٢ : ١٥٢ .

(٢) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٢٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ٤٧٣ .

(٣) ابن النديم: الفهرست ٦ ، والصولى : أدب الكتاب ٣٠ ، والنويرى : نهاية الأرب ٣٠٧ .

(٤) الفيروز آبادى : القاموس المحيط ، مادة "جرم" .

سلطانهم حقبة من الزمان على الحجاز، ويستدلون على ذلك بآثارهم في الكتابة واللغة والدين .[1]

وكانت التجارة العامل الأول الذى أظهر الكتابة في بلاد العرب، ولذلك نجدها منتشرة حيث توجد التجارة، فهى تسير في رحال الإبل، ولعل ذلك سبب رؤيتنا الكتابة العربية ظاهرة كل الظهور في المناطق التجارية، إذ لم يكن التجار العرب مستطيعين الاستغناء عنها في معاملاتهم الداخلية أو الخارجية، فالتاجر كان يجمع من أفراد المدينة الواحدة ما يكوّن به قافلة تجارية واحدة، ترتحل إلى البلدان المختلفة للتجارة[2]. فهو إذن يحتاج لأن يعرف حصة كل من هؤلاء في القافلة وفي أرباحها، وما كان ذلك ليتيسر له إلا بالكتابة. وكذلك كان هؤلاء التجار محتاجين للكتابة في العهود وكتب الأمان بينهم وبين القبائل التى تمر تجارتهم بها سواء كانت هذه العهود تجارية فحسب، أو تجارية وسياسية معا، فقد عرف العرب الأمرين جميعا، ولا يقتصر الأمر على هذه المعاملات والعهود الداخلية، بل هناك العهود الخارجية التى تعقد بينهم وبين الرومان أو الفرس أو اليمنين أو الحبشيين أو غيرهم لجلب التجارة، والسماح بالاتجار في تلك البلاد المختلفة. يظهر لنا ذلك في هذا الخبر الذى يرويه القالى في نوادره تحت عنوان: "مطلب خروج بنى عبد مناف إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس لأخذ العهود من ملوكها، وتأمين السبل لتجار

---

(١) من شاء استقصاء هذا البحث فليرجع إلى كتاب "أصل الخط العربى" للدكتور خليل يحيى نامى الأستاذ المساعد بكلية الآداب .

(٢) انظر موقعة بدر في الجزء الثانى ص٢٥٧ من سيرة ابن هشام، يقول ضمضم بن عمرو لقريش وهو يستنفرها لحرب النبى:"اللطيمة اللطيمة! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه .." وانظر إسلام أبى العاص بن وائل في سيرة ابن هشام ٢ : ٣١٢ . والطبرى ٣ : ٢٣٠٥ .

قريش"[1] .

الكتابة وشئون السياسة :

لم يحتج العرب للكتابة فى التجارة وحدها، بل فى السياسة أيضا، فقد ذكر الباحثون أن مكة عرفت نوعا من الحكومة الجمهورية فى أيامها الجاهلية[2] وكان هذه الجمهورية دار تتداول فيها الرأى فى مشاكلها التجارية والسياسية والاجتماعية، وتعقد فيها المعاهدات السياسية، لدفع العدوان أو تأمين السبل أو تبادل المساعدات العسكرية، وما إلى ذلك مما يكون بين دول اليوم .

(١) ص١٩٩ . قال: كانت قريش تجارا، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم، ويبيعونها على من حولهم من العرب. فكانوا كذلك حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام. فنزل بقيصر .. قال له: أيها الملك، إن قومى تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لى كتابا تؤمن تجارتهم فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه. تباع عندكم فهو أرخص لكم . فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر بحى من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافا – والإيلاف أن يأمنوا عندهم فى أرضهم بغير حلف، إنما هو أمان الطريق – وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع فيكفونهم حملانها، ويؤدون إليهم رؤوس أموالهم وربحهم، فأصبح ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شىء أتوا به بركة .. وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر إليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كفعل هاشم .. وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافا كفعل هاشم والمطلب .. وخرج نوفل بن عبد مناف .. فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش، وإيلافا ممن مر به من العرب .. واتسعت قريش فى التجارة فى الجاهلية، وكثرت أموالها فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة فى الجاهلية والإسلام" .

(٢) انظر الفصل الذى عقده أوليرى عن مكة فى كتاب "بلاد العرب قبل الإسلام" .

وليس هذا بقول منكر، فإن ذكر تلك المعاهدات والمخالفات شائع فى الأدب العربى[1]، وخاصة أيام العرب ووقائعها، وإنا لنذكر دون شك حلف الفضول، وحلف قريش ضد بنى هاشم بعد ظهور النبى، وكتابتهم الصحيفة المشهورة، وتعليقها فى جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم[2] .

وكان لكل نوع من هذه المعاهدات اسم خاص به: فالمهارق نوع من الكتب يخص كتب الذين أو كتب العهود والمواثيق والأمان[3]، والإيلاف: عهد الأمان بغير حلف، إنما هو أمان الطريق[4] .

بل لعل العرب عرفوا أنواعا أخرى من الكتابة غير هذه العهود التجارية والسياسية. فقد نقل بعض الرواة أن العرب كتبوا المعلقات على القباطى بماء الذهب، وعلقوها على جدران الكعبة .

وعندما نبحث عن المواطن التى انتشرت فيها الكتابة، لا نطيل البحث فى المناطق المسيحية واليهودية، فمن الطبيعى أن تنتشر فيها الكتابة، وذلك أمر ظاهر لا يحتاج إلى إثبات، حتى لقد سمى العرب الأميين[5]، وسمى النصارى واليهود أهل الكتاب[6]. وقصة طرفة والمتلمس مع عمرو بن هند وما كتب لهما فى الصحيفتين

---

(١) قال الحارث بن حلزة فى معلقته .

واذكروا حلف ذى المجاز وما قدْ	دم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدى وهل ينـ	ـقض ما فى المهارق الأهواء

(٢) سيرة ابن هشام ١ : ٣٧٦ .

(٣) الجاحظ: الحيوان ١ : ٧٠ .

(٤) القالى: النوادر ١٩٩ .

(٥) سورة آل عمران / الآية ٢٠ ، ٧٥ - والجمعة / الآية ٢ .

(٦) سورة العنكبوت / الآية ٤٦ - والأحزاب ، الآية ٢٦ ، والحديد / الآية ٢٩ ، والحشر ، الآية ٢ .

إلى عامله بالبحرين قصة مشهور في تاريخ هذين الشاعرين. ولكن الكتابة العربية كانت شائعة أيضا في مكة الوثنية، وذلك بسبب التجارة، حتى ليقال إن مكة كانت تفوق المدينة في عدد الكتاب، فقد جاء الإسلام وفي مكة سبعة عشر كاتباً[١]، وفي المدينة أحد عشر[٢]، مع أن المدينة موطن اليهود، وكان يظن أن أهلها أكثر معرفة بالكتابة لا تصالهم بهم، وهم أهل الكتاب. ولكننا لا نظن هذا التحديد إلا كتحديد الصرفيين القدماء أن كذا من الموازين الصرفية لم يأت فيه إلا كذا كلمة فهم مغرمون بالإحصاءات التي قد يرفضها الواقع الذي تشهد به المعاجم، وإن لم يتنبهوا لذلك. فإني أظن أن مكة خاصة كان بها أكثر من ذلك العدد من الكتاب، وإن لم أستطع أن آتي في ذلك برأي قاطع أو إحصاء دقيق لقلة المصادر. ولم يقتصر أمر ظهور الكتابة على هذه المواطن المتحضرة، بل تسربت إلى البادية نفسها[٣]. فعرفها أكثم بن صيفي حكيم تميم وخطيبها[٤]، وابن أخيه حنظلة بن الربيع[٥] كاتب النبي صلى الله عليه وسلم، والمرقش الأكبر[٦]، ولبيد بن ربيعة[٧]. ولعل كثرة تشبيه الشعراء الأطلال الدارسة بالكتابة يدل على انتشارها ومعرفتهم بها. يقول الأخنس ابن شهاب التغلبي، وهو شاعر جاهلي :

لابنة حطان بن عوف منازل ... كما رقش العنوان في الرق كاتب

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان ٤٧١ .

(٢) نفس المرجع ٤٧٣ .

(٣) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ٤ .

(٤) الميداني: مجمع الأمثال ٢ : ٨٧ .

(٥) الجهشياري : الوزراء والكتاب ١٢ .

(٦) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٣٠ .

(٧) أبو الفرج : الأغاني ١٤ : ٩٣ .

ويذكر معاوية بن مالك تجويد الخط فيقول:[1]

فــإن لهـــا منـــازل خاويـــات | على نملى وقفــت بهــا الركابــا
مـن الأجــراع أســفل مــن نميــل | كمــا رجعــت بــالقلم الكتابــا
كتـــاب محـــبر هـــاج بصـــير | ينمقـــه وحـــاذر أن يعابـــا

وينسب الحــارث بـن حـلزة، الـذى كـان يعيـش فـى منطقـة النفـوذ الفارسـى، الصحف للفرس فيقول[2] :

لمن الديار عفون بالحبس | آياتها كمهارق الفرس

وكانوا يكتبون على الحجارة البيض والعظام، وفى عُسب النخـل، وفـى الجلـد والأديم، يقول المرقش الأكبر[3] :

الدار قفر والرسوم كما | رقش فى ظهر الأديم قلم

ويقول لبيد[4]:

عفــت الديــار محلهــا فمقامهــا | بمنــى تــأبد غولهــا فرجامهــا
فمدافــع الريــان عــرى رسمهــا | خلقا كما ضمـن الوحـى سلامها
وجلا السيول عن الطلـول كأنها | زبــر تجـــد متونهـــا أقلامهـــا

---

(١) المفضليات ١ : ١٥٧ .

(٢) المفضليات ١ : ١٣٠ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٣٧ .

(٤) معلقة لبيد. الوحى : الكتابة . السلام : الحجارة البيض والعظام، والزبر: الكتب .

ولم يكثر ذكر الكتابة في الشعر الجاهلي وحده، بل جاء في القرآن أيضا، فالقرآن يحث على تدوين الديون والمعاملات التجارية وغيرها، مما يدل على أن الكتابة كانت شائعة عندهم، يقول تعالى(1): ﴿يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله، فليكتب وليملل الذى عليه الحق﴾ . وكذلك يذكر القرآن أدوات الكتابة، مثل القلم واللوح والقرطاس والصحف، فيقول جل شأنه(2): ﴿ن * والقلم وما يسطرون﴾ ويقول:(3) ﴿والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور﴾. ولعلنا نشعر بتعظيم القرآن لهذه الأدوات في قسمه بها. ومما يدل على شيوع الكتابة أيضا دوران لفظ الكتابة في القرآن في المواضع المختلفة، والمعاني المتنوعة التي تتفرع عن لفظ الكتابة بمعنى التدوين والتثبيت، مثل قوله تعالى(4): ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي..﴾ وغير ذلك من الآيات التي توحي بانتشار الكتابة منذ زمن غير قليل .

هذه الكتابة التي عرفها العرب في جاهليتهم. ولكن ما يزال يهجس بنفسي خاطر وهو يعاودني كلما حاولت دفعه ويلح علي، ذلك أن بعض العرب الحجازيين عرف غير الكتابة العربية أنواعا أخرى من الكتابات، أعني أنهم ربما عرفوا الحميرية، أو النبطية، أو الفارسية، أو اليونانية، أو الحبشية. أما الحميرية فيرجح أنهم أخذوها باتصالهم باليمن، فإنهم يقولون: إن المرقش الأكبر كان يعرفها(5). وأما

---

(1) البقرة / الآية ٢٨٢ .

(2) القلم / الآية ١ .

(3) الطور / الآية ١ ، ٢ ، ٣ .

(4) البقرة / الآية ٢١٦ .

(5) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ٢٠ .

النبطية فلابد أنهم عرفوها، لأنهم اشتقوا كتابتهم منها[1] .

وأما الفارسية فقد عرفت فى الحيرة خاصة، ويقال إن "عدى بن زيد كان من تراجمة أبرويز..(و) أن أباه..كان..شاعرا خطيبا وقارئا كتاب العرب والفرس"[2]. وأما الحبشية فيظن أنها كانت معروفة في اليمن. ولكنى أظن أن الحجازيين عرفوا هذه الكتابات عن طريق الاتجار مع أهلها، ولولا ذلك ما استطاعوا عقد العهود والمحالفات التى كانت بينهم، والتى ألمعنا إليها آنفا. بل لقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم كاتبه زيد بن ثابت بتعلم الكتابة العبرية والسريانية،[3] وقد فعل، كما يقال إنه تعلم الفارسية والحبشية[4] . ونستطيع أن نرى فى هذا الحدث إيماءة أو إشارة باحتمال وقوع أمثاله فى الجاهلية، القريبة من الإسلام على الأقل. ولعل هؤلاء المتألهين والمتحنفين من أمثال ورقة بن نوفل وأمية بن أبى الصلت عرفوا هذه الكتابات، ما دام يقال عنهم إنهم قرأوا فى كتب النصارى واليهود[5]، وإن كان هذا لا يصل إلى درجة اليقين، لأنهم ربما قرأوا هذه الكتب فى اللغة العربية، على الرغم من عدم سماعنا بمثل هذه الترجمات .

الكتابة الفنية :

اضطررنا أن نقطع كل هذه الرحلة السابقة فى بيداء الصحراء الجاهلية منقبين باحثين، بسبب قلة النقوش العربية للغة التى نعرفها، وعدم وصول نصوص عربية

---

(١) خليل يحيى نامي: أصل الخط العربى ١٠٤ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢ : ٢٦٥ .

(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب ١ : ١٩٤ ، وعبد الحى الكتانى: التراتيب ١ : ١٢٠، ٢٠٣، ٢٠٤ .

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٦ .

(٥) سيرة ابن هشام ١ : ١٦٥ ، ٢٠٣ ، ٢٣٨ .

مكتوبة إلينا، كى نستطيع أن نجيب عن السؤال التالى: هل عرف العرب الكتابة الفنية؟ وهل كانت هذه الأحوال التى درسناها تستلزم وجود هذا النوع من الكتابة؟ أم تستلزم عدم وجودها ؟

أما القول ببداوة العرب وفطرية حياتهم وتنقلهم وعدم تحضرهم فقد أثبتنا بطلانه، وأثبتنا أن العرب عرفوا حياة مستقرة متحضرة، حياة فيها من الاستقرار والتحضر مالا ينافي وجود كتابة فنية. وأعنى بذلك أن حال العرب فى العصر الجاهلى القريب من ظهور الإسلام لم تستلزم عدم وجود الكتابة الفنية. ولكن هل يعنى هذا أنها تستلزم وجودها؟ ذلك ما أشك فيه. فالعرب عرفوا الاستقرار والتحضر، ولكنهم لم يصلوا فى ذلك الاستقرار إلى الدرجة التى تستلزم ظهور الفنون التى تنشأ فى الحضارات العريقة. إذن فعرب الشمال لم يبعد عهدهم بالحضارة أو لم يطل أمد الحضارة عليهم حتى يتمكنوا من إيجاد فنون تعتمد على تراث غنى من الحضارة، فلا نجد عندهم الرسم ولا النحت ولا ما شابهها من الفنون إلا بدرجة بدائية نستطيع أن نغض النظر عنها. وكذلك كان حال الكتابة الفنية، إذ تباينت فيها الآراء، واشتجرت العقول، فمن مؤيد لوجودها، ومن ناف لظهورها، ولكن الجميع – على الرغم من هذا الاختلاف الكبير – يتفقون على عدم وصول أية كتابة فنية جاهلية حقيقية إلينا، وعلى الشك فى الرسائل القليلة التى تبلغ العشر أو فوقها بقليل، ووصلت إلينا فى الكتب المختلفة[1]. فنحن إذن أمام آراء نظرية لا تسندها مواد أو وثائق تذهب بنا إلى تأييد أحد الفريقين ورفض الآخر. لكن نظرنا فى أحوال العرب فى جاهليتهم أدى بنا إلى القول بأن ظروف حياتهم لم تكن

---

(١) جمع هذه الرسائل الأستاذ أحمد زكى صفوت فى صدر الجزء الأول من "جمهرة رسائل العرب" .

تستلزم عدم وجودها، فالحالة بين بين. ولا نستطيع أن نقول بوجود الكتابة الفنية اعتمادا على وجود القرآن، كما قال بعض الدارسين، لأننا من جهة أخرى إذا نظرنا إلى رسائل الرسول صلى ا لله عليه وسلم نجدها من البساطة والسهولة بحيث تجعلنا لا نحكم بوجود أطوار من الكتابة قبلها. فكيف إذن ننظر إلى القرآن ولا ننظر إلى كتابات النبى صلى ا لله عليه وسلم والخلفاء الراشدين .

وهكذا تظل الحالة مائعة، لا نحكم بوجود كتابة فنية، لأننا لم تصل إلينا أية وثائق منها، كما لا نحكم بأن حياة العرب كانت تستلزم عدم وجودها، ولكننا أشد ميلا إلى رفض وجود هذا النوع من الكتابة فى ذلك العصر، وخاصة بعد دراستنا لكتابات النبى البسيطة. وسواء ملنا مع هؤلاء أو هؤلاء فإننا لن نستفيد من هذا الميل شيئا، فلن نعرف خصائص هذه الكتابة الفنية: أو شيئا عنها، ما دام لم يصل إلينا شىء منها .

الفصل الثانى

صدر الإسلام

انبثق نور الإسلام على يد محمد النبى الأمى الذى لا يستطيع القراءة ولا الكتابة، وكان القرآن معجزته الكبرى، يتنزل عليه آيات فى أغلب الأحيان، واحتاج النبى إلى حفظه من الضياع، ومن الطبيعى أن الطريق إلى حفظه هو التدوين. فاضطر النبى صلى الله عليه وسلم إلى اتخاذ الكتاب أول ما أمكنته الفرصة. ونحن عندما ننظر إلى أوائل المؤمنين بالإسلام نجد كثيرا منهم كتابا، مثل الخلفاء الأربعة، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعامر بن فهيرة، ومعيقيب بن أبى فاطمة، وحذيفة بن اليمان وغيرهم. وذلك أمر غير غريب، فإن الكتاب أو الذين يحسنون الكتابة هم مثقفو العرب ولا ندهش إذا آمن بالدعوة الجديدة المثقفون من العرب، وإنما ندهش لو حدث غير ذلك. وهكذا تيسر للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجد حوله جماعة من الكتاب يدونون له ما يمليه عليهم من آى. واشتهر جماعة من الصحابة بكتابة الملوحى، على رأسهم عثمان ابن عفان، وعلى بن أبى طالب، فإن غابا كتب أبى بن كعب، وزيد بن ثابت[1]، كما اشتهر بها أيضا معاوية بن أبى سفيان[2]، وكان يكتب له أيضا عبد الله بن سعد بن أبى سرح، ثم ارتد ولحق بالمشركين[3]. فإن لم يشهد أحد هؤلاء الكتاب

---

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٢. ويقول ابن عبد البر: الاستيعاب ١:٢٦ "كان زيد ألزم الصحابة لكتابة الوحى".

(٢) شرح الزرقانى على المواهب ٣ : ٣٢٢ .

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٣ .

كتب غيرهم، من أمثال جابر بن سعيد بن العاص، وأبان بن سعيد، والعلاء بن الحضرمى، وحنظلة بن الربيع[1].

وكان الكتاب السابقون يكتبون للنبي، ولكن كان هناك من يكتبون لأنفسهم، وقد وثق بهم فيما بعد زيد بن ثابت عند جمعه للقرآن، فى زمن أبى بكر الصديق، إذ يقال إنه لم يكن يأخذ الآية من أحد إلا إذا كان معه شاهدان. وكانت الكتابة معتبرة أحد الشاهدين[2] ويذكرون فى هذا الصدد اسم أبى خزيمة بن ثابت على أنه كان لديه آخر سورة التوبة مكتوبا[3].

ونشأ عن هذا ظهور المصاحف المختلفة التى تُنسب لكثير من الصحابة فهذا مصحف على، وهذا مصحف أبى، وذاك مصحف ابن مسعود، وذلك مصحف سالم مولى أبى حذيفة، وُجدت كل هذه المصاحف إلى جانب المصحف الرسمى الذى جمعه زيد ابن ثابت بأمر أبى بكر من الصحابة المختلفين والمواضع المتعددة، وكَتَبه فى القراطيس. وظل هذا الأمر مختلفا متدابرا، حتى اختلف معه القراء وتدابروا، فقام عثمان بعمله الموفق، ووحد كتابة القرآن فى مصحفه الإمام، وأحرق المصاحف الأخرى[4].

تلك هى قصة كتابة الوحى نرويها لا لأنها كتابة فنية، ولكن لأنها مظهر من مظاهر انتشار الخط بين العرب عند ظهور الإسلام، ولأنها ظاهرة تبين لنا حاجة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين بعده إلى الكتابة والحث عليها. أما الوحى ذاته أو القرآن فلا شك أنه كتابة فنية، ولكنه نوع من الكتابة فريد لا يتصل بما قبله من

---

(١) عبد الحى الكتانى: التراتيب الإدارية ١ : ١١٥ .

(٢) السيوطى : الإتقان ١ : ٥٨ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) السيوطى: الإتقان ١ : ٥٩ .

كتابة، ولا بما بعده، هكذا نظر إليه القدامى والمحدثون، فالوليد بن المغيرة، العربى الصميم، يقول "ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن"[١]، ويذهب الباقلانى إلى أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم (كلام العرب) ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز فى تصرفه من أساليب الكلام المعتاد[٢]، ويرى الدكتور طه حسين "أن القرآن ليس نثرا، كما أنه ليس شعرا، إنما هو قرآن، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم. لأنه مقيد بقيود خاصة به، لا توجد فى غيره"[٣]. ولا يتصل القرآن بما قبله، إذ رأينا أنه لم توجد هذه الكتابة الفنية الراقية التى تقارب القرآن، بل لم نجد أمثلة تجعلنا نوقن بوجود كتابة فنية على الإطلاق. ولا يتصل بما بعده من كتابة فنية، لأن المسلمين آمنوا بإعجازه وباللعنة التى تلاحق من يحاول تقليده. فظلوا يعجبون به ولكنهم بعيدون عن تقليده، فبقى وحيدا فريدا فى بابه ونوعه. أضف إلى ذلك أنه تفرَد له الأبحاث الخاصة. ولذلك لن أتعرض له فى رسالتى هذه.

كتابة الحديث

هناك نوع آخر شبيه بهذا من الكتابة، هو كتابة الحديث الشريف فعلى الرغم من تَحرُّج النبى صلى ا لله عليه وسلم من كتابته، ونهيه عن ذلك كى لا يختلط بالقرآن ويلتبس الأمر عليهم، خاف بعضهم أن يضيع ما سمعه من أحاديث فدونها لنفسه. وشاهدنا على ذلك ما روى عن اليمنى الذى طلب من النبى صلى ا لله عليه وسلم أن يكتب له الحديث الذى سمعه[٤]، وما روى عن صحيفة عبدا لله بن عمرو

---

(١) تفسير الطبرى والزمخشرى لسورة المدثر، وسيرة ابن هشام ١ : ٢٨٩ .

(٢) الباقلانى : إعجاز القرآن ٥١ .

(٣) طه حسين: من حديث الشعر والنثر ٣١ .

(٤) صحيح البخارى، باب كتابة العلم .

ابن العاص التى استأذن النبى فى كتابتها، فأذن له النبى، وكان يسمّيها الصادقة[1].

الرسائل السياسية :

أدت حاجة النبى صلى الله عليهوسلم إلى الكتاب - كما رأينا - إلى العناية بالكتابة وحث المسلمين عليها. وتكفى الإشارة إلى ما حدث لأسرى بدر من إطلاق سراح المتعلم منهم إذا علم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة[2]، كما تكفينا الإشارة إلى المواضع المتعددة التى ذكر فيها القرآن الكتابة بالتعظيم، وحث العرب على تدوين معاملاتهم كتابة حتى لا يكثر النزاع، ويتضح وجه الحق. اجتمع كل هذا إلى حاجة المسلمين لقراءة القرآن فى صلواتهم وخلواتهم، وإلى ما أحدثه الدين الجديد من حركة فكرية، فجعل الكتابة أمرا ضروريا لكل فرد يحس فى نفسه شيئا من أمل ومن طموح. ولكن العامل الأكبر فى إظهار الكتابة وبثها فى الأرجاء، هو بزوغ الدولة العربية، فما يخفى على أحد ما تستلزمه الدول من علاقات وروابط داخلية وخارجية، لا يمكن التعبير عنها والاتفاق عليها إلا بالمراسلات. وهكذا كان إنشاء النبى صلى الله عليه وسلم للدولة العربية الإسلامية داعيا إلى إنشاء نظام من المراسلات الداخلية والخارجية أيضا .

وأحب أن أقول إنى لا أعنى بذلك أن الرسائل والمعاهدات لم تظهر إلا بعد تكون الدولة، بل ظهرت فى أثناء تكونها، وقبل تكونها أيضا، حتى إنهم يروون لنا أن الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذ شرحبيل بن حسنة كاتبا فى مكة، بل قالوا إن الداريين أتوا للرسول وهو فى مكة، وطلبوا منه أن يقطعهم أرضا بالشام إن فتحها

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبير الجزء الرابع من القسم الثانى ص٨ .

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام ١٧١ .

ا لله عليه، فأقطعهم بيت عينون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم، وكتب لهم بذلك كتابا من خط شرحبيل. ولكننا نشك شكا قويا فى صحة هذه الرواية، ولا نصدق إلا الإقطاع الثانى الذى تم فى السنة التاسعة بعد الهجرة، وكتبه الإمام على بن أبى طالب بأمر من رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، واحتفظ به الداريون وقتا طويلا[١]، إذ لم تكن الجماعة الإسلامية فى مكة دولة من الدول، لها كيان سياسى أو نظام إدارى، ولم يكن الرسل قد بدأ يفكر فى غزو الأمم المجاورة للعرب، حتى يقطع أرضا بها .

أما الأمر الذى لا نشك فيه فهو ظهور فكرة الدولة منذ بيعتى العقبة، وماتلاهما من هجرة إلى المدينة، وكان من أول أعمال الرسول صلى ا لله عليه وسلم بها كتابه الذى نظم به التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود[٢]. وهو يعتبر المعاهدة الأولى فى الإسلام. وهكذا نرى الوثائق السياسية الإسلامية تبدأ بالمعاهدات ثم تظهر الرسائل فى الإسلام بالرسالة التى كتبها النبى صلى ا لله عليه وسلم لعبيد ا لله بن جحش فى سريته المعروفة[٣]. وتوالت بعد ذلك المعاهدات والأحلاف بين الرسول والمشركين، كما توالت الرسائل بينه وبين قواده وأمرائه، وبينه وبين كبراء المشركين، وبينه وبين ملوك الدول المجاورة، فارس والروم ومصر والحبشة، إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

---

(١) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق السياسية ٤٤ والكتانى: التراتيب الإدارية ١ : ١٤٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٢٥٢ (م٣ – نشأة الكتابة) .

وثائق الرسول السياسية :

تناول المستشرق الألمانى اشبيربر[1] **Sperber** هذه الوثائق بالبحث، وقسمها إلى أربعة أقسام تبعا لتاريخها: ما قبل العام الخامس الهجرى، ومن العام السادس إلى فتح مكة سنة ٨هـ، ومن فتح مكة إلى غزوة تبوك سنة ٩هـ، وما بعد غزوة تبوك. وأفرد قسما مستقلا بنفسه - غير هذه الأربعة - لرسائله صلى الله عليه وسلم إلى عرب الجنوب. وتناول هذه الوثائق بالبحث أيضا الأستاذ أنيس المقدسى[2] أستاذ الأدب العربى فى جامعة بيروت الأمريكية، وجعلها فى ثلاثة أقسام. ورأى الرسائل فى الدور الأول الذى يمتد منذ الهجرة إلى وقعة الخندق، خلوا من التاريخ وكله سياسى يصبو إلى محالفة القبائل، وهى على حالها من الشرك، للاستعانة بها على إضعاف قريش، مثل حلفه مع نعيم بن مسعود[3]، وبنى غفار[4]، وبنى ضمرة[5]. أما الدور الثانى الذى يشمل المدة ما بين السنة الخامسة وفتح مكة فترى النبى صلى الله عليه وسلم أقوى مركزا، وأنفذ كلمة، فلا يتجلى فى كتبه ما كان يتجلى قبل من الميل إلى محالفة المشركين، بل أصبح يشترط الإسلام أو الجزية مثل رسالته لبنى الجرمز[6]، ورسالته لابنى الجلندى[7]. وأخيرا الدور الثالث بعد

---

(١) العدد ١٩ من مجلة **Mitteilungen des Seminars fur Orientalische Sprachen**

(٢) أنيس المقدسى : تطور الأساليب النثرية ١١ .

(٣) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ١٤٥ .

(٤) نفس المرجع ١٤٤ .

(٥) أحمد صفوت: جمهرة رسائل العرب ١ : ٧٠ .

(٦) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ١٤٤ .

(٧) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٤٦ .

غزوة تبوك، وقد بلغ الرسول أعلى درجات القوة، وأخذ يستغل مركزه الحربى والدينى، فصار لا يكتفى بقبول الإسلام أو الجزية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، ففرض الزكاة على القبائل الداخلة فى الإسلام، وبعث العمال والأمراء على الصدقات، ومنها كتبه إلى ملوك حمير[1]، وإلى همدان[2]، وإلى بنى كلب[3] .

ولكن هذه الأقسام لا تعنينا كثيرا لأنها تنظر إلى الناحية التاريخية أكثر مما تنظر إلى الناحية الأدبية. نعم، ينبغى ألا ننسى ما للناحية التاريخية من أثر فى الناحية الأدبية، ولكن كان أثرها الأول فى شروط المعاهدات، لا فى أسلوبها وصياغتها الفنية.

ومن حسن الحظ أن كثيرا من هذه الرسائل لا يزال باقيا إلى يومنا هذا، على خلاف الحال مع خطبه صلى الله عليه وسلم، إذ ضاع أكثرها، ولم يكد يصل إلينا إلا القليل النادر، ولكن هذه الرسائل لم يصل إلينا إلا أصل اثنتين أو ثلاث منها هى كتابه إلى المقوقس الذى وجده المستشرق الفرنسى بارتلمى فى كنيسة قرب إخميم[4]، وكتابه إلى المنذر بن ساوى الذى نشره المستشرق فلايشر[5]، وكتابه إلى النجاشى الذى وجده المستشرق الإنجليزى دنلوب[6]. ولذلك قد يثور بنا الشك فيها، أو فى لغتها. ولكن يجب أن نتنبه إلى أن العناية بهذه الوثائق قديمة جدا. إذ كانت القبائل والأسر تحفظ كتبه صلى الله عليه وسلم إليها تبركا بها، كما يروى

---

(١) نفس المرجع ١ : ٥٣ .

(٢) نفس المرجع ١ : ٥٦ .

(٣) نفس المرجع ١ : ٥٢ .

(٤) الحيدر آبادى : مجموعة الوثائق ى .

(٥) نفس المرجع ى .

(٦) نفس المرجع ى .

عن الدارين[1]. وكذلك اهتم بها المؤلفون القدامى، فنقرأ عن عناية عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤هـ بها، وعناية عبد الله بن أبى بكر بن عمرو بن حزم المتوفى عام ١٣٠هـ[2]. وقد عنى بها من بعدهم من المؤرخين عناية شديدة، كما نرى الحال عند الزهرى وابن إسحاق، أضف إلى ذلك عناية المحدّثين بها. كل هذا يجعلنا نطمئن إل هذه الوثائق، وخاصة إذا ما استبعدنا الوثائق التى تذكر أشياء لم توجد فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم، أو التى تختلف مع الوقائع التاريخية، أو فيها فخر قبيلة على أخرى. ومع ذلك يَسْلم لنا بعد كل هذا كثير من الوثائق، نطمئن إليها كل الاطمئنان أو معظمه، مثل كتب الأمان أو العهود العادية، التى قد يكون فى بعضها مالا يوافق رغبات المسلمين كصلح الحديبية .

خصائصها

تتألف كتب الرسول صلى الله عليه وسلم من معاهدات وكتب أمان، ورسائل، وكتب قسمة للغنائم، وإقطاعات، وتشترك كلها فى بعض الخصائص العامة، كما يختص كل منها بخصائص لا توجد فى غيره .

١- فالمعاهدات تنفرد بنوع من الإسهاب الذى يتناول كثيرا من التفاصيل، ولكنه لا يعم جميع المعاهدات، وإنما يخص المهمة منها، مثل معاهدته مع ثقيف[3]، ومعاهدته مع أهل نجران[4]، بالإضافة إلى معاهدة المدينة التى ذكرناها قبل[5]. وكذلك نجدها

---

(١) الكتانى: التراتيب الإدارية ١ : ١٤٣ .

(٢) هوروفتس: كتب المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف : ٣٧ .

(٣) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ١٩٥ .

(٤) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٧٩ .

(٥) سيرة ابن هشام ٢ : ١٤٧ .

مقسمة إلى مواد شبيهة بمواد المعاهدات فى وقتنا الحاضر. وتبدأ المعاهدات فى الغالب بالبسملة[١]، إلا معاهدة الحديبية التى تبدأ بعبارة "باسمك اللهم" إرضاء لقريش[٢]. ثم يذكر فى آخر المعاهدات الشهر والكاتب، وقد لا يذكر[٣]. وما أقل ما يقتبس فيها من القرآن .

٢- أما كتب الأمان فقصيرة موجزة، بل قد تبلغ فى القصر حدا لا تبلغه إلا الإقطاعات، كما قد تطول فى النادر. وتتشابه كتب الأمان جميعا على الرغم من اختلاف كتابها، بل نجد فيها بعض العبارات التى تكاد تتكرر على الدوام، كأنها طابع لابد أن تطبع به مثل قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يحاقه فيها أحد"[٤] و "من حاقه فلا حق له، وحقه حق"[٥] "وما بل بحر صوفة"[٦] وغيرها. وكان يبدؤها أحيانا بالبسملة[٧]، وأحيانا أخرى يتركها[٨]، وأحيانا يبدؤها بقوله: "هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان"[٩]، ولها عدة صور أخرى أيضا .

٣- ولكن الرسائل لا تتمتع بهذا التشابه، فيختلف بعضها عن بعض، تبعا لوقتها وللمرسل إليه. وعلى الرغم من هذه الاختلافات يغلب عليها بعض الخصائص إذ

---

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٥ .

(٢) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ١٣ .

(٣) يذكر الشهود والكاتب فى صلح الحديبية، ولا يذكر أحد فى معاهدة المدينة الأولى .

(٤) الحيدر آبادى : مجموعة الوثائق ٧٣ ، ٧٤ ، ١٤٩ – حاقه : خاصمه وادعى أنه أولى بالحق منه .

(٥) نفس المرجع ١٤٣ ، ١٤٥ .

(٦) نفس المرجع ١٣٠ ، ١٤١ . الصوفة : هنا الإسفنجة .

(٧) نفس المرجع ٢٢ ، ١١٨ ، ١٢٠ .

(٨) نفس المرجع ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ .

(٩) نفس المرجع ١٢٢ .

تبدأ بالبسملة ثم "من محمد رسول ا لله إلى فلان"[1] أولا يأتي بالبسملة ويبدأ الرسالة باسمه مباشرة[2]، أو يقول "هذا كتاب من محمد رسول ا لله إلى فلان"[3] أو "إلى فلان"[4] مباشرة. وكان يأتي في صدور كتبه بالسلام فيقول للمسلم: "سلام عليك"[5] ولغير المسلم "السلام على من اتبع الهدى"[6] وربما قال "سلام على من آمن"[7] كما كان يبدأ كتبه إل من يدعوهم إلى الإسلام بقوله: "سلم أنت أو أنتم"[8]، وربما أسقط السلام[9]. وكان يأتي أيضا بالتحميد بعد السلام فيقول: "فإني أحمد إليك ا لله الذى لا إله إلا هو"[10] وربما تركه[11]. وقد يأتي بالتشهد[12]

---

(١) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ١٨ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ . وتروى قصة طويلة عن البسملة، وكيف وصل الرسول إلى معرفتها، فيقولون إنه كان يفتح رسائله مثل العرب بقوله: "باسمك اللهم" فلما نزلت الآية "قل ادعو ا لله أو أدعوا الرحمن" كتب "بسم ا لله الرحمن" ولما نزلت الآية "إنه من سليمان وإنه بسم ا لله الرحمن الرحيم" كتب البسملة كاملة، انظر الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص١٤٠. ولكنى لم أجد فى كتبه التى وصلت إلينا ما يؤيد ذلك، إذ ليس فيها هذه الأطوار، وإنما البسملة كاملة أو محذوفة برمتها، بدلا من هذه الأطوار الأولى، ما دامت هى الصورة الأخيرة التى ارتضاها النبى. ولم تذكر "باسمك اللهم" إلا فى كتب المشركين من العرب . وفى صلح الحديبية بأمر من قريش .

(٢) نفس المرجع ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ .

(٣) نفس المرجع ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٢ .

(٤) نفس المرجع ٣١ ، ٦٢ .

(٥) نفس المرجع ٥٦ ، ٥٨ .

(٦) نفس المرجع ٢٦ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٥٠ .

(٧) نفس المرجع ٣٢ .

(٨) نفس المرجع ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٩ .

(٩) نفس المرجع ٣٠ ، ٤٠ .

(١٠) نفس المرجع ٢٤ ، ٣٢ ، ٥٦ .

(١١) نفس المرجع ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ .

(١٢) نفس المرجع ٢٦ ، ٥٤ ، ٥٦ .

وقد لا يأتى به[1]. وكان يبدأ أحيانا بعبارة "أما بعد"[2] .

أما كتب أمرائه إليه فتشبه كتبه فى بداياتها وخواتيمها وأسلوبها غير أنها عند ما تذكر اسمه صلى الله عليه وسلم تبدأ به فتقول: "لمحمد النبى رسول الله من فلان"[3]. ويبدو أن كتب المشركين من العرب كانت تبدأ بعبارة "باسمك اللهم"[4] أو تتركها[5]. وهى أيضا شبيهة برسائله صلى الله عليه وسلم فى الأسلوب. وإذا قرأنا كتب الملوك الأعاجم إلى الرسول، وجدناها تشبه كتبه فى خصائصها ولغتها، ولكننا لا نعتمد على ذلك كثيرا، فإنها – فى غالب الظن – مغيرة تغييرا كبيرا على يد الأدباء والمؤرخين المسلمين، بل لعلها موضوعة لأن كثيرا منها لا يوافق الواقع التاريخى، وبه نزعة إسلامية ظاهرة، مثل كتب نجاشى الحبشة[6] .

وإذا ما تركنا صدور الرسائل ونظرنا إلى أعجازها وجدناها أكثر اختلافا. إذ ينتهى كل منها بحسب موضوعه، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتعمد بعض الخواتم أحيانا كالسلام مثلا، وله عدة صور: السلام العادى إذا كان المكتوب له مسلما، أو غير مسلم أحيانا[7]، وربما دعا له بعد السلام، فيقول: "والسلام ورحمة الله، يغفر الله لك"[8]. فإذا كان غير مسلم قال فى السلام: "والسلام على

---

(١) نفس المرجع ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ٢٩ ، ٤٠ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٣) نفس المرجع ٧١ .

(٤) نفس المرجع ٩ .

(٥) نفس المرجع ٨ ، ١٦ .

(٦) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ص٢٧،٢٨ .

(٧) نفس المرجع ٥٢ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ .

(٨) نفس المرجع ٥٦ .

من اتبع الهدى"[1] أو "والسلام عليكم إن أطعتم"[2]. وكان الكاتب فى بعض الأحايين يدون اسمه فى خاتمة الرسالة، فيقول: "وكتب فلان"[3] .

أما أسلوب هذه الرسائل فأسمى عادة من أسلوب الأنواع الأخرى من كتب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن هذا السمو لا يخرج بها إلى مرتبة الصنعة، وإنما إلى مرتبة فصاحة لغة الخطاب العادية. ويلاحظ فى بعض الرسائل أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يضع نصب عينيه المكتوب إليهم، فيكلمهم بما يقرب من لهجاتهم. ولعل هذا سبب كثرة الألفاظ الغريبة فى رسالتيه لوائل بن حجر الحضرمى[4] ولطهفة النهدى[5] مثلا، مما جعل بعض المحدثين يشك فيها، ويظن أنها من وضع بعض المتكلفين، معتمدا فى ذلك على الخبر القائل بأن ابن الأثير أهمل ذات مرة نقل مكتوب منسوب للنبى صلى الله عليه وسلم وقال: "تركنا ذكره لأن رو نقلوه بألفاظ غريبة وبدلوها وصحفوها"[6]. ويمتاز بعض رسائله أيضا بتتابع الجمل القصيرة دون عاطف أو بعاطف، ولكنها غير متصلة المعانى، ولا يربط بينها غير الجو العام، وهو النصيحة الدينية. يتضح هذا تمام الوضوح فى عهده صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم الأنصارى حين ولاه على اليمن[7]. وتمتاز كتبه إلى الملوك الأعاجم، وخاصة من أهل الكتاب، بالاقتباس من القرآن، أو النظر إليه فى

---

(١) نفس المرجع ٢٤ ، ٣١ ، ٦٤ .

(٢) نفس المرجع ٣٢ .

(٣) نفس المرجع ٦١ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ١١٤ .

(٤) نفس المرجع ١٢٨ .

(٥) نفس المرجع ٨٩ .

(٦) نفس المرجع بط .

(٧) نفس المرجع ١٠٤ .

مفرداتها، بل قد تكون الرسالة كلها آيات قرآنية، مثل كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل(١). وكان الرسول ذا نظر بعيد فى رسائله، فإذا ما أرسلها إلى مسيحى أكثر من الآيات النازلة فى حق عيسى، كرسالته إلى النجاشى(٢)، وإذا ما أرسلها لأحد اليهود ربط بين نفسه وموسى عليه السلام، مثل كتابه إلى يهود خيبر(٣) .

وإذا ما تركنا الرسائل إلى كتب المقاسم والإعطاء(٤)، نجد أننا انتقلنا نقلة كبيرة. إذ ليست هذه الكتب إلا إحصاءات، لا يمكن للفن أن يتسرب إليها من طريق، ولا تتعلق بالأدب بأى سبب، ولذلك لا أتكلم عنها فى هذا المقام .

الخصائص العامة

الآن وقد انتهى الكلام عن الخصائص التى يمتاز بها كل نوع من أنواع كتب الرسول، لم يبق أمامنا إلا أن نعرف الخصائص العامة التى تصطبغ بها الكتب جميعا. ولعل أوضح ميزة هى البساطة التى تنزل بها إلى مستوى لغة التخاطب الفصيحة لدى العرب فى ذلك الزمن، وإن وشاها فى بعض الأحيان الجمال الطبيعى، ولكنه لا يخرج بها عن مستوى لغة الحديث، فما كانت تهدف إلا إلى إفهام المرسل إليهم مضمونها. تتضح هذه الميزة فى قوله فى معاهدة المدينة الأولى: "بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد بين المؤمنين المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على رباعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو

---

(١) نفس المرجع ٢٩ .

(٢) نفس المرجع ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) نفس المرجع ١٥ .

(٤) نفس المرجع ٢٧ ، ٢٢ .

عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .. إلخ"[1] .

والميزة الثانية: الإيجاز الذى يدلنا على أن الرسول صلى ا لله عليه وسلم كان يؤدى ما يريد من المعانى بأقل ما يمكنه من لفظ، وهذا ما اعتاده العربى العادى فى حديثه، ترى هذا فى جميع رسائله تقريبا .

والميزة الثالثة: التزام بعض التعابير الخاصة مثل: "ما كان أحد مكانه" و "مابل بحر صوفة" أى على الدوام، وبعض التعابير التى ذكرناها آنفا. ومن ذلك أيضا استعمال بعض العبارات الغريبة مثل قوله: "من أطلع أهل مقنا بخير"[2] و "إن لهم سعاية فلان"[3] و "والليل مد والنهار شد"[4] .

والميزة الرابعة أننا نرى فيها التشبيه كثيرا، والمجاز، والجمل التى تشبه الأمثال التى ذكرناها فى الميزة الثالثة. أما الاستعارة فقليلة، لأنها تحتاج إلى بعض الصنعة الفنية. فتراه يقول فى رسالته لهوذه بن على. "واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر"[5] ويقول لابنى الجلندى: "وخيلى تحل بساحتكما"[6]: أى تزيل ملككما وتستولى على بلادكما .

---

(١) نفس المرجع ص١ . رباعة الرجل: شأنه وحاله التى هو رابع عليها، أى ثابت مقيم. ويقال تركناهم على رباعتهم: أى على أمرهم الذى كانوا عليه. والتعاقل: من عقل القتيل، أى إعطاء ديته، والمعاقل: جمع معقلة "بضم القاف" وهى الدية ومعنى يتعاقلون معاقلهم الأولى: أى يكونون على ما كانوا عليه فى الجاهلية من أخذ الديات وإعطائها، أو على مراتب آبائهم، وأصله من ذلك. والعانى: الأسير. والقسط: العدل .

(٢) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ٢٦، ومعناها: من أسدى إليهم معروفا. ومقنا: موضع .

(٣) نفس المرجع ٤٩ ، والمعنى: إن لهم صدقة وزكاة .

(٤) نفس المرجع ٢٢، والمعنى: يشتد العهد كل ليل ونهار قوة، فلا ينقص منه شىء .

(٥) نفس المرجع ٦٥ .

(٦) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٤٦ .

وأخيرا تخلو كتبه صلى ا لله عليه وسلم من الصنعة والمحسنات، ومن العمل والتروى، وإن وجد فيها أحيانا شئ من توازن العبارات أو الازدواج أو السجع. الذى لا يخرج عما تأتى به الفطرة السليمة والطبع القوى .

كُتاب الرسول

لعلنا الآن وقد انتهى بنا الحديث عن كتب النبى، فى حاجة لمعرفة كتابه صلى ا لله عليه وسلم. ونحن عندما نحاول معرفة هؤلاء الكتاب، لا نجد الأمر بسهولة كما كنا نتوقع، إذ لم تصلنا جميع كتبه صلى ا لله عليه وسلم، ولم يكن جميع الكتاب يضعون أسماءهم فيما كتبوه من رسائل ولذلك نرى الأقوال تتضارب فى عدتهم وأسمائهم. فيذهب الحافظ ابن عساكر فى "تاريخ دمشق" إلى أنهم ثلاثة وعشرون، ولكنه يقرر فى "بهجة المحافل" أنهم خمسة وعشرون. ويوافقه على هذا الرأى ابن عبد البر فى "الاستيعاب". ويقول القرطبى فى تفسيره إنهم ست وعشرون وهناك من يذهب بعيدا فيرى أنهم أربعون (الشبراملسى فى القضاء) أو اثنان وأربعون (أبو الوفا نصر الهورينى فى مطالعه) أو ثلاث وأربعون (البرهان الحلبى فى حواشى الشفا)[1] وذكر الجهشيارى بعضهم ولم يبين عدتهم. وقد حاولت أن أجمعهم، فعثرت بعد البحث على قريب من خمسة وأربعين كاتبا. ولا يخامرنى الشك أنهم ليسوا جميع من كتب للرسول، إذ لابد أنه قد فاتتنا أسماء كثيرة فى الإحصاء، كما يرجح أن ذكر كثيرين منهم ضاع فيما ضاع من كتب. ولعل اختلاف المؤلفين فى عددهم يرجع إلى أن منهم من لم يواظب على الكتابة للنبى صلى ا لله عليه وسلم إلا مرات قليلة، فأهمل بعضهم ذكره .

---

(١) الكتانى : التراتيب ١ : ١١٥ .

تخصص الكتاب

هل اختص كل واحد من هؤلاء الكتاب بنوع من الكتابة ؟

أشرت من قبل إلى الكتاب الذين اشتهروا بكتابة الوحي، ولست في حاجة إلى تكرار الحديث عنهم. ويقال أيضا إن "خالد بن سعيد بن العاص، ومعاوية ابن أبي سفيان (كانا) يكتبان بين يديه في حوائجه"[١]. وإنه "كان يكتب له للبوادى معاوية"[٢] وإن "المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير (كانا) يكتبان ما بين الناس"[٣] أو "يكتبان في حوائجه"[٤] أو "المداينات والمعاملات"[٥] و "ينوبان عن خالد ومعاوية إذا لم يحضرا"[٦] وإن "عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث، والعلاء بن عتبة (كانا) يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء"[٧] وإنه "ربما كتب عبد الله بن الأرقم إلى الملوك"[٨] وإنه "كان حذيفة بن اليمان يكتب خرص ثمار الحجاز"[٩] وإن "زيد بن ثابت (كان) يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحى"[١٠]. وإن كاتب النبى "المواظب على الرسائل والأجوبة، والذى كتب

---

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٢ .

(٢) الكتاني: التراتيب ١ : ١٢١ .

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٢ .

(٤) الكتاني: التراتيب ١ : ١٢٣ .

(٥) نفس المرجع ص١٢٤ .

(٦) ابن عبد ربه. العقد الفريد ٣ : ٥ .

(٧) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٢ .

(٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٦ .

(٩) نفس المرجع ٣ : ٦ الخرص: القدر .

(١٠) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٢ .

الوحى كله زيد بن ثابت"[1] "وإنه كان كاتب سر النبى صلى ا لله عليه وسلم[2]، وإن أبى بن كعب وزيد بن ثابت "كانا يكتبان بين يديه صلى ا لله عليه وسلم، ويكتبان كتبه للناس، وما يقطع وغير ذلك"[3] وإن "مُعيقيب بن أبى فاطمة .. كان يكتب مغانم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم"[4] وإنه "كان حنظلة بن الربيع .. خليفة كل كاتب من كتاب النبى إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب، وكان يضع عنده خاتمه"[5]، وإن كاتبى العهود هما على بن أبى طالب وعامر بن فهيرة"[6] وإن "الزبير بن العوام وجهم بن الصلت (كانا) يكتبان أموال الصدقات"[7]. وإن "شرحبيل بن حسنة (كان) يكتب التوقيعات إلى الملوك"[8] .

حين ننظر إلى هذه الأقوال نجد الأقدمين - على الرغم من اختلافهم - شعروا بشئ من التخصص بين كتاب النبى. وذلك أمر غير غريب، إذ أن كل امرئ لابد أن تبرز ناحية من نواحيه على النواحى الأخرى، فيخصص له ما يلائم هذه الناحية. وكذا الأمر مع هؤلاء الكتاب ولو أنعمنا النظر فى الأقوال السابقة وأحببنا أن نخرج منها بأشياء واضحة، ليس فيها ظلام الاختلاف، لأمكننا ذلك بالنسبة لبعض الكتاب. فحذيفة بن اليمان كاتب خرص الحجاز، وزيد بن ثابت كاتب

---

(١) الكتانى : التراتيب ١ : ١١٧ .

(٢) نفس المرجع ١١٩ .

(٣) نفس المرجع ١٢٠ .

(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٢.

(٥) نفس المرجع ١٢ .

(٦) الكتانى : التراتيب ١ : ١٢٣ .

(٧) نفس المرجع ١٢٤ .

(٨) نفس المرجع ١٢٤ .

الملوك، فإن غاب ناب عنه عبد الله بن الأرقم، ومعيقيب بن أبى فاطمة كاتب المغانم، ومعاوية بن أبى سفيان كاتب البوادى، والزبير بن العوام وجهم بن الصلت كاتبا أموال الصدقات، وعلى بن أبى طالب كاتب المعاهدات فإن غاب كتبها عامر ابن فهيرة أو غيره .

ويجب أن ننظر إلى هذا التخصص نظرة هينة لينة، فهو ليس بالنظام الصارم الواجب اتباعه، وإنما هو نظام يحاول مراعاته، فإن غاب أحد الكتاب "أمر (الرسول) من حضر أن يكتب له"[1]. ونحن إذا حصرنا الرسائل الموقع عليها باسم كاتبيها، وحاولنا معرفة تخصص صاحبها لجحنا فى تعيين بعض الكتاب مثل على كاتب المعاهدات، وأخفقنا فى تعيين بعضهم الآخر. وآخر ما نقول إنه وجد نظام خفيف من التخصص، ولكنه أهمل كثيرا لعدم مواظبة الكتاب على الحضور إلى مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ لم يكن الحضور فرضا عليهم، ولم يكونوا معينين كتابا له صلى الله عليه وسلم .

وقد صنفت الرسائل التى كتبها مختلفون فى موضوع واحد، رجاء أن أحد ما يدل على شخصية كل كاتب من المزايا الخاصة، فتبين لى أن رسائل الأمان التى كتبها على بن أبى طالب، والتى كتبها المغيرة بن شعبة، والتى كتبها معاوية وغير هؤلاء من الكتاب، كلها متشابهة شبها يكاد يكون تاما. وكذا الأمر فى أنواع الكتب والوثائق الأخرى. فشخصية الكاتب غير ظاهرة فى هذه الرسائل. أما السبب فواضح، فهذه الرسائل كلها من إملاء الرسول نفسه، وهذا الإملاء أمر معروف غير محتاج إلى إثبات. والشىء الوحيد الذى أشار إليه المؤرخون هو أن عبد الله بن

---

(١) نفس المرجع ١٢٠ .

الأرقم كان يستقل أحيانا بكتابة بعض الرسائل، بأمر النبى صلى ا لله عليه وسلم. وكان الرسول يجيز ما كتب[1] وأظن أن الكاتب، فى مثل هذه الحالة كان يحتذى فيما يكتب على مثال رسائل النبى، وكأنه يملى عليه، فتخرج رسالته على نمط رسائل الرسول. ولذلك غلبت هذه الصفات العامة على جميع الرسائل فى عهد النبى. ومن الأسباب الأخرى لهذه الحالة، أن الكُتّاب كانوا يكتبون دون روية وتفكير، ودون محاولة للافتنان - إذا كانوا استقلوا بأنفسهم - وإنما قصارى غايتهم إفهام المكتوب إليه ما يريدون من معان، بأقرب طريق وأسهل أسلوب، ولذلك تشابهت لهجاتهم فى كتبهم. وإذا فنحن لا نستطيع أن نتبين شخصية خاصة أو أسلوبا معينا، لأحد هؤلاء الكتاب فى مجموع كتب الرسول .

هذه هى حال الكتابة فى عهد النبى صلى ا لله عليه وسلم، فهل يمكننا أن نطلق عليها اسم الكتابة الفنية؟ أعتقد من الواضح الذى لا شك فيه، بعد كلامنا الطويل، أننا لا يمكننا ذلك، فإنها ليست إلا كتبا مرتجلة، سريعة، مملاة بلغة سهلة هى لغة الحديث، لا يوشيها شىء من عمل أو جمال، غير فصاحة لغة الحديث عند العرب، بل تهبط لغتها كثيرا عن لغة الخطابة التى كان لها تقاليدها المرعية، وقواعدها الأدبية، منذ العصر الجاهلى، ولم تكن تسمو إليها إلا فى بعض الرسائل .

ديوان الرسائل

هل وجد ديوان للرسائل فى عهد النبى ؟

إذا رجعنا إلى آراء الأقدمين فى ذلك، وجدنا القلقشندى يقول[2]: "اعلم أن

(١) الكتانى: التراتيب ١ : ١٢٠ .

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى ١ : ٩١ .

هذا الديوان (ديوان الرسائل) أول ديوان وضع فى الإسلام، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه، وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وبعث إليهم رسله بكتبه .. وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء، بخلاف ديوان الجيش، فإن أول من وضعه ورتبه عمر بن الخطاب فى خلافته" .

ولكن هذا القول لا يعتمد على أساس قوى، فلا تلازم بين ديوان الإنشاء وهذه الكتابات، إذ قد توجد هذه، ولا يوجد هذا الديوان الذى يتألف من كتاب متروّين محبرين متجملين، متأنقين متفننين. ولم يوجد فى عهد الرسول مثل هذا الصنف من الكُتاب الذين يخلون بأنفسهم، ويكتبون من عندهم، وإنما وجد كتاب تملى عليهم كتبهم، فيكتبونها كما يملى الرسول. وقد بالغ القلقشندى فى هذا الادعاء، مبالغته التى نراها فى ادعائه بأن ديوان الجيش والدواوين الأخرى وضعت فى عهد الرسول أيضا، ولكنها لم تكن فى شهرة ديوان الإنشاء[1]، وخاصة أن من قبله لم يذكروا وجود هذا الديوان فى العهد النبوى. ولذلك لا يمكننا تصديق هذا الخبر، بل نقول إن هذا الديوان لم يوجد حتى فى عهد الخلفاء الراشدين أنفسهم. وكل ما يمكن قوله هو وجود الأساس الذى سيشيد عليه فيما بعد ديوان الرسائل.

عهد أبى بكر

لا يتغير الحال كثيرا حين نأخذ فى عرض تاريخ الكتابة فى عهد أبى بكر الصديق، فالكتاب هم الكتاب[2]، والكتب نفس الكتب، والأسلوب هو بعينه

---

(١) نفس المرجع ٩١ .

(٢) يقول الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٥ : إن عثمان بن عفان وزيد بن ثابت وعبدالله بن الأرقم وحنظلة ابن الربيع كتبوا لأبى بكر. وما أشك كثيرا فى أن الأحياء من كتاب النبى قد كتبوا أيضا لأبى بكر، أو تراسلوا معه فى الأحداث الإسلامية الجديدة .

أسلوب الكتابة فى عصر النبى. والأمر الجديد الذى نلاحظه هو اندلاع نيران الحروب فى أنحاء شبه الجزيرة بين المسلمين والمرتدين أولا، ثم امتداد اللهب إلى الحدود الخارجية وأراضى العراق والشام، مما جعلهم يكثرون من الكتابة فى شأن هذه الحروب من وصايا للقواد[١]، ومعاهدات[٢]، ودعوات للإسلام[٣]، وما إلى ذلك من الأمور التى تتصل بالحروب من قريب أو بعيد. وكما يبرز خالد بن الويد قائدا، كذلك يبرز كاتبا، فنراه يكتب أغلب الكتب فى عهد الصديق، كما يؤخذ من مطالعة كتابى الوثائق السياسية وجمهرة الرسائل. ولا أعنى بذلك أن خالدا كتب جميع هذه الرسائل بيده، بل كان له كتابه أيضا، إذ ذكروا أن حنظلة بن الربيع كتب له كتابين[٤]. وظهر أمر جديد آخر هو عهود الولاية، أعنى بذلك عهد أبى بكر لعمر[٥] .

ولا نحتاج للإكثار من الكلام عن هذه الفترة، إذ ينطبق عليها ما قيل عن مدة الرسول كل الانطباق، وخاصة أنها لا تستغرق غير وقت قصير امتلأ بالأحداث التى شغلتهم عن كل جديد. وقد شعر بذلك الأقدمون حتى قال القلقشندى[٦]: "وكانت (رسائل الصديق) تفتتح بلفظ: من أبى بكر خليفة رسول الله[٧] صلى الله عليه وسلم إلى فلان، وباقى الكتاب من نسبة كتب النبى صلى الله عليه وسلم، من التصدير

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ١١٧ ، ١٢٤ .

(٢) نفس المرجع ١٢٠ ، ١٣٢ .

(٣) نفس المرجع ١٤٠ .

(٤) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق السياسية، الوثيقتان رقم ٢٢١ ، ٢٢٦ .

(٥) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ١٥٥ .

(٦) صبح الأعشى ٦ : ٣٨٤ .

(٧) كتب أبو بكر أيضا: أمين رسول الله . انظر كتابه إلى الداريين فى مجموعة الوثائق السياسية ٤٧ .

بالسلام، والتحميد، والتخلص بأما بعد، والاختتام بالسلام، وما يجرى هذا المجرى".
وهاك شاهدا من كتب أبى بكر إلى المُثنّى[1] بن حارثة :

"بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد،

فإن صاحبك العجلى كتب إلى يسألنى أمورا، فكتبت إليه آمره بلزوم خالد حتى أرى رأيى. وهذا كتابى إليك، آمرك ألا تبرح العراق، حتى يخرج منه خالد بن الوليد. فإذا خرج خالد منه، فالزم مكانك الذى كنت به، فأنت أهل لكل زيادة، وجدير بكل فضل .

والسلام عليك ورحمة الله "

عهد عمر

إذا ما قلبنا هذه الصفحة من كتاب التاريخ، ونظرنا إلى صفحة عمر بن الخطاب وجدنا الطريقة لم تكد تتغير، والإملاء لا يزال موجودا[2]. ولكننا على الرغم من هذا يجب أن نعطى الخبر التالى أهميته الجديرة به. يروى الجهشيارى[3] بعض أخبار زياد بن أبيه، ثم يبين أن عمر بن الخطاب أراد اختباره ككاتب، فيقول: "ثم دعا (عمر) بزياد فقال له: ينبغى أن تكتب إلى خليفتك بما يجب أن يعمل به. فكتب إليه كتابا، ودفعه إلى عمر. فنظر فيه ثم قال: أعد: فكتب غيره. فقال له:

---

(١) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ١٣٠ .
(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٩ .
(٣) نفس المرجع ١٦ .

أعد. فكتب الثالث. فقال عمر: لقد بلغ ما أردت فى الأول، ولكننى ظننت أنه قد روّى فيه، ثم بلغ فى الثانى ما أردت فكرهت أن أعلمه ذاك، وأردت أن أضع منه، لئلا يدخله العجب فيهلك". فإننا عندما نتأمل فى هذا الخبر نستطيع أن نرى فيه ما كانوا يطلبونه من الكاتب فى ذلك العصر. فهل طلب عمر من زياد صحة كتابة، وحسن خط، أم طلب منه شيئا آخر؟ من الواضح أنه أعطاه موضوعا وطلب منه أن يصوغه بأفكاره وألفاظه. وإذا فهم لم يكونوا يطلبون من الكاتب إصغاء للمملى وتدوينا لما يملى فحسب، بل كانوا يطلبون منه أيضا أن يحسن الكتابة من عنده أيضا ولعل فى هذا دليلا واضحا على أن الكاتب كان يطلب منه أحيانا أن يكتب بعض الرسائل بنفسه دون إملاء. وإذا هو مستطيع أن يتروى - كما خاف عمر - وأن يتأنق بعض التأنق الذى تسمح به طبيعة عصر عمر. ومن المؤسف حقا ألا تروى لنا هذه الرسالة التى اتهمها عمر بالتروى، حتى يمكننا أن نوازن بينها وين الرسائل التى وصلتنا من هذا العصر. ولكن يغلب على الظن أنها لا تفترق عنها كثيرا، إلا فى ظهور طابع زياد الفصيح عليها .

وهذه الظاهرة لها أهميتها، فإننا إذا كنا قلنا عن عبد الله بن الأرقم إنه كان يحاكى كتب الرسول فى رسائله التى كتبها منفردا، فإننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن زياد وعمر، وإذا قلناه، فإنه يكفينا أن نلاحظ أن الكاتب بدأ يكتب بمفرده، بل بدأ يتروى أيضا فى زمن مبكر جدا، ألا وهو أوائل صدر الإسلام .

ولم يتغير الأسلوب الكتابى عما قبل، يقول القلقشندى[1] "كان (عمر) يكتب فى كتبه: من عمر بن الخطاب خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان[2]".

---

(١) صبح الأعشى ٦ : ٢٨٦ .

(٢) لم أجد هذه العبارة فيما بين يدى من رسائل عمر .

فلما تلقب بأمير المؤمنين أثبت هذا اللقب فى كتبه، وزاد فى ابتدائها لفظ "عبدا لله" قبل اسمه، ليكون اسمه نعتا له، فكان يكتب: "من عبد ا لله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى فلان"[1]. وباقى الكتاب على ما مر فى كتب النبى صلى ا لله عليه وسلم والصديق" .

غير أننا نلاحظ فى كثير من هذه الرسائل ظهور شخصية عمر أصدق ظهور. ولعل ذلك هو الذى يميز كتب عمر عن كتب النبى والصديق، فيظهر فيها شىء من الشدة التى اشتهر بها عمر، والإكثار من أسلوب التحذير والإغراء، يقول فى كتابه لسعد بن أبى وقاص[2]: "وإياكم والضحك: والوفاء الوفاء" ويقول فى كتابه لأبى موسى الأشعرى[3]: "الفهم الفهم فيما يتلجلج فى صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة .. وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم"، ويكثر أيضا من الجمل القصيرة المنفصلة، التى تدل على انفعال متدفق مطلق لا يكبحه زمام، ونفس شديدة مندفعة لا تخاف لومة لائم، ويكثر أيضا من الأوامر والنصائح، فتمثل شخصيته كأنه يتكلم بنفسه، فقارئ رسائله يتخيله أمامه. هذا إلى جانب شخصيته فى الأفكار التى تجول فى رسائله. ويتضح كل هذا تمام الوضوح فى مراسلاته مع سعد بن أبى وقاص، وفى رسالته المشهورة فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى[4] .

ومما هو جدير بالذكر ظهور الدواوين فى عهد عمر[5]. إذ احتاج المسلمون عندما فتحت الأقطار، وتدفقت الأموال، إلى الكتبة والحسبة، فانشئوا الدواوين،

---

(١) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، وغيرها .

(٢) الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق ٢٢٨ .

(٣) نفس المرجع ٢٤١ .

(٤) نفس المرجع ٢٤٠ .

(٥) ابن الأثير: الكامل ٣ : ٣٥ .

مثل ديوان الخراج، وديوان الجند[1]. أما ما يروى عن وجود هذه الدواوين فى عهد الرسول فلا دليل عليه، ولا يمكن أن نثق به[2]. ولكننا لن نعطى هذه الدواوين كثيرا من الأهمية، لأنها مجرد إحصاءات وأرقام لا تتصل بالكتابة الفنية عن قرب أو بعد، بل كان بعضها يكتب باللغات المحلية. فكان ديوان الخراج يكتب بالفارسية فى فارس، وبالرومية فى الشام، وبالقبطية واليونانية فى مصر، إلى أن عُربت هذه الدواوين فى العصر الأموى[3]. أما أهمية هذه الدواوين فهى دلالتها على تعقد المصالح فى الدولة، وأخذ الحكومة فى تخصيص فروع مختلفة للمسائل المتنوعة، مما يدل على أخذ النظام الإدارى فى الاستقرار والنضج.

ويهمنا أن نلفت النظر أيضا إلى تعدد الدواوين فى الأمصار المختلفة فى عهد عمر، فديوان للخراج بالعراق، وآخر بالشام، وثالث بمصر. وليس الأمر مقصورا على هذا الديوان، بل نجد دواوين أخرى متعددة للجند، إذ يذكرون أن أبا جبيرة ابن الضحاك كان على ديوان الكوفة[4]، وأن عبد الله بن خلف الخزاعى كان على ديوان البصرة[5]، ويقصدون بذلك ديوان الجند، كما سنرى. يضاف إلى ذلك ابتكار نظام البريد مما ييسر المراسلات .

ونلفت النظر أيضا إلى ظاهرة أخرى مهمة، هى اتخاذ الولاة والأمراء للكتاب الخاصين، كما روى أن زياد بن أبيه كان كاتبا للمغيرة بن شعبة، ثم لعبد الله بن

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ١ : ٩١ .

(٢) نفس المرجع ٩١ .

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى ١ : ٣٤٧ .

(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٦ . وابن عبد ربه : العقد الفريد ٣ : ٧ .

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٧ .

عامر بن كرز، ثم لعبد الله بن عباس، ثم لأبى موسى الأشعرى[1]، والمغيرة بن شعبة كان كاتبا لأبى موسى الأشعرى أيضا، وأن عبد الرحمن بن أبزى كان كاتبا لنافع بن الحارث والى مكة[2] .

وهذه الظواهر كلها مهمة تدل على حركة داخلية فى ميدان الكتابة، إذ ستخلق طبقة خاصة من الكتاب، ليسدوا حاجة هذه الدواوين المختلفة، والأمراء الكثيرين. وهذه الطبقة الخاصة من الكتاب هى التى ستسير بالكتابة إلى مرحلة الفن.

عهد عثمان

حين يتولى عثمان الخلافة نرى ظاهرة جديدة مهمة أيضا، إذ يبعث المنشورات إلى النواحى المختلفة من الدولة العربية يبين فيها سياسته الجديدة، فكتاب لعماله، وآخر لأمراء الأجناد، وثالث لعمال الخراج، ورابع للعامة[3]. ولا تختلف لغة هذه الكتب عن لغة الكتب السابقة فى عهد الخلفاء الراشدين، ولكنها تقرب من كتب عمر أكثر مما تقرب من كتب النبى والصديق، فهى فى العهد الأخير تسير نحو التروى والتجمل. بل نجد فى كتب عثمان نوعا من المجاز والعمل لا نجده عند من قبله. ويظهر هذا المجاز فى الميل إلى التشخيص، فهو يقول فى رسالته إلى معاوية حين قام أبو ذر بدعوته فى الشام: "إن الفتنة قد أخرجت خطمها و عينيها، فلم يبق إلا أن تثب، فلا تنكأ القرح"[4]. ويقول لأهل الكوفة عندما عزل عنهم

---

(١) نفس المرجع ٩ .

(٢) نفس المرجع ٩ .

(٣) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٨٩-٢٩٣ .

(٤) أحمد صفوت : الجمهرة ١ : ٢٩٦ . الخطم: جمع خطام، وهو الزمام .

سعيد بن العاص: "وا لله لأفرشنكم عرضي"[1]، وغير ذلك كثير في كتبه. والخطوة الثانية إلى التجمل هي تحلية رسائله بالقرآن، بل تكاد تكون رسالته التي بعثها مع ابن عباس ليقرأها في الحج قرآنا كلها[2]. والخطوة الثالثة تحلية رسائله بالشعر، نرى ذلك في رسالته وهو محصور إلى علي[3]، وفي رسالة مروان بن الحكم إلى معاوية ويعلى بن منية يستصرخهما من أجله[4]، إذ قال في آخرها: "فجدا في طلب ما أنتما ولياه، وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء ا لله، وكتب في نهايتها :

وما بلغت عثمان حتى تخمطت ... رجال ودانت للصغار رجال

لقد رجعت عودا على بدء كونها ... وإن لم تجدا فالمصير زوال

سيبدئ مكنون الضمائر قولهم ... ويظهر منهم بعد ذاك فعال

..... الأبيات "

ولكننا يجب ألا نلقى القول على عواهنه، فنثبت هذه الظواهر، ونترك الأمر يمر سهلا هينا، بل يجب أن ننبه إلى أننا وصلنا إلى مرحلة محفوفة بالأخطار. فمنذ قيام الفتنة كثرت المخترعات والمنحولات التي لم يستطع رجال الأدب والتاريخ تبين زيفها من صدقها حتى اليوم. ولذلك يجب أن نسير بحذر، وألا نقبل كل ما روى لنا إلا بعد فحص وتمييز، وأن نثبت هذه الظواهر على أنها أمور ظنية لا يقينية، خشية أن يكون بعض ما ورد من النصوص في هذه المدة، قد صنعه منتحلوه في زمن متأخر.

---

(١) نفس المرجع ٣٠٦ .

(٢) نفس المرجع ٣١٥ .

(٣) نفس المرجع ٣١٢ .

(٤) نفس المرجع ٣٣٥ .

عهد على

إذا كنا نشك بعض الشك فى رسائل عثمـان، فإن الشـك فـى رسـائل علـىّ يحيط بنا من جميع الأنحاء. وقد نسب إلى على ما يؤلف المجلدات من رسائل وخطب، وما نستطيع أن نثبت له واحدة يقينا. وقـد بلـغ الأمـر فـى تغيـير هـذه الرسـائل إلى درجة أننا نرى الرسالة الواحـدة فى الطـبرى وفـى نهـج البلاغـة ولكنهمـا لا يمـت بعضهما إلى بعض بصلة من شـدة الخـلاف. روى الطـبرى أن عليـا حـين خـرج مـن الحجاز فى إثر عائشة، حتى نزل الرَّبذة، كتب إلى أهل الكوفة: "إنى اخترتكم علـى الأمصار، وفزعـت إليكـم لمـا حـدث، فكونـوا لديـن ا لله أعوانـا وأنصـارا، وأيدونـا وانهضوا إلينا، فالإصلاح ما نريد، لتعود الأمة إخوانا، ومن أحب ذلك وآثره، فقـد أحب الحق وآثره، ومن أبغض ذلـك فقـد أبغـض الحـق وغمصـه"(١). وتـروى هـذه الرسالة فى نهج البلاغة كما يلى: "من عبد ا لله على أمير المؤمنين إلى أهـل الكوفـة، جبهة الأنصار، وسنام العرب.

أما بعد، فإنى أخبركم عن أمر عثمـان، حتـى يكـون سمعـه كعيانـه، إن النـاس طعنوا عليه فكنت رجلا من المهـاجرين أكـثر استعتابه، وأقـل عتابـه، وكـان طلحـة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف، وأرفق حدائهما العنيف، وكـان مـن عائشـة فيـه فلتة غضب. فأتيح له قوم فقتلوه، وبـايعنى النـاس غـير مسـتكرهين ولا مجـبرين، بـل طائعين مخيرين .

واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وأقلعوا بها، وجاشت جيش المرجـل، وقامت الفتنة على القطب، فأسرعوا إلى أميركم وبادروا إلى جهاد عدوكم، إن شـاء

---

(١) الطبرى : تاريخ ١ : ٣١٤٠ . غمص : احتقر .

ا لله. فحسبى بكم إخوانا، وللدين أنصارا، فانفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل ا لله لعلكم تفلحون"[١] .

ولعلنا رأينا الرسالة الثانية تدور حول ما دارت عليه الرسالة الأولى، وخاصة فى عجزها، ولكنها تزيد عليها فى اعتذارها لعلى، وإلقاء اللوم على طلحة والزبير وعائشة. ولعل هذا من وضع الشيعة، أو كان فى رسالة أو خطبة أخرى لعلى وألحقها الشريف الرضى بهذه الرسالة، لأنه كان يهدف إلى جمع البليغ من كلام على وكفى، يقول ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة معلقا على إحدى رسائل على إلى معاوية: "إن هذه الخطبة - يريد الرسالة - قد ذكرها نصر بن مراحم فى كتاب صفين على وجه يقتضى أن ما ذكره الرضى - رحمه ا لله - منها قد ضم إليه بعض خطبة أخرى. وهذه عادته، لأن غرضه التقاط الفصيح البليغ من كلامه"[٢] .

ولا تقتصر هذه الروايات المتعددة على عهد على وحده، بل وجدت أيضا فى عهد عمر، وشاهدنا على ذلك الرسائل المتبادلة بين عمر وعمرو بن العاص التى تذكرها جمهرة رسائل العرب فيما بين صفحتى ٢١٣ و ٢٢٨ من الجزء الأول. وتعرقل تلك الروايات المختلفة بحثنا عن خصائص الرسائل، بل قد تؤدى بنا إلى الخطأ .

هذا إلى جانب الرسائل الكثيرة الموضوعة على هذا العهد من الأنصار والخصوم. ولذلك نرى أنفسنا، حين نؤرخ للكتابة فى عصر علىّ، سائرين على أرض غير مطمئنة، إذ لا نستطيع أن نقطع فى الرسائل برأى جازم، وإنما هى ظنون واحتمالات.

---

(١) الرضى: نهج البلاغة ٣ : ٢ وابن أبى الحديد شرح النهج ٣ : ٢٩١ الوجيف : الجرى .

(٢) ابن أبى الحديد: نهج البلاغة ٣ : ٤١٢ .

والأمر الأول الذى نلاحظه كثرة الرسائل كثرة ملحوظة، وذلك راجع إلى النزاع بين على وخصومه، طلحة والزبير وعائشة، فمعاوية وعمرو، فالخوارج، وأنصار كل من هؤلاء وإلى تأليب على عليهم، وحثه قواده إلى استنفار الناس لهم، وإلى مقابلتهم له بمثل عمله. وهذا الأمر يذهب بكتابة الرسائل إلى الأمام خطوات.

ونلاحظ أيضا أن الرسائل أخذت تطول، ولا تقتصر على اللمحة الدالة، أو الإيماءة الموجزة. وهذا أمر لم يكن معروفا من قبل، ولعل من أسبابه ذلك النقاش السياسى بين على وخصومه .

والأمر الثالث أنها تسير على خطا رسائل عثمان من استشهاد بالقرآن والشعر بل يذكرون القصيدة الكاملة فى الرسالة الواحدة فى بعض الأحايين، كما نرى فى كتاب عياض الثمالى إلى شرحبيل بن السمط الكندى[1]، وفى بعض كتب معاوية إلى على[2]، وفى الكتب المتبادلة بين الوليد بن عقبة ومعاوية[3] وغيرها. وهذا نوع من التجميل ولا شك يحسب عند بيان تطور الرسائل .

ونرى فى بعض الرسائل عملا وصنعة، من تأنق فى اختيار الألفاظ والجمل، وسجع أحيانا، وما إلى ذلك .

وما نستطيع أن نثبته هو أن هذه الرسائل أخذت تسير فى سبيل الفصاحة الطبيعية ، بل بلغت الغاية فى بعضها ، وإن لم يكن الكاتب قد استقل تماما عن الإملاء[4] ، فما يزال الوليد بن عقبة يقول

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٣٩٤ .

(٢) نفس المرجع ٢ : ٣٩٨ .

(٣) نفس المرجع ١ : ٣٩٠ - ٣٩٣ .

(٤) انظر وصية على لكاتبه فى الوزراء والكتاب ٢٣ .

لمعاوية[1] :

فإن كنت تنوى أن تجيب كتابه فقبح ممليه وقبح كاتبه

الخلاصة

وخلاصة القول إن كتابة الرسائل فى عهد النبى والخلفاء الراشدين كانت ناشئة مبتدئة، ليست لها تقاليد مرسومة أو قواعد محكمة. وَلكن الرسول كان يملى ما يخطر على باله دون ترو أو نظر، ولا يستوحى غير عقله وقلبه وما يريد من قصد. ولذلك كانت لغته بسيطة خالصة صريحة لا ترتفع فى شىء عن لغة الحديث إذ تقصد اللغتان إلى مجرد الإفهام .

أما ما اتبعه من نظم فى أوائل الرسائل وخواتيمها، فإن هى إلا أمور اقتضتها الدعوة التى يبشر بها، فلما جاء خلفاؤه ساروا على منواله، ولم يخلوا بنظمه، وهنا نستطيع أن نقول إن هذه النظم أصبحت تقاليد مرعية. ولكن يجب أن ننظر إلى هذا الرأى نظرة سهلة غير متشددة، إذ أن الخلفاء كانوا يتبعونها اتباعا دينيا لا أدبيا، فهم يعتبرونها سنة من الرسول. ولذلك نرى رسائل على التى يرسلها إلى معاوية يدعوه فيها إلى الطاعة والانطواء تحت لوائه، تشبه كتب الرسول إلى الملوك ورؤساء العرب شبها كبيرا. وإذن فهذه تقاليد دينية، لا تقاليد أدبية، يمكن أن نعتبرها تقاليد فنية. ولم تتطور لغة الرسائل كثيرا فى هذه الفترة، إذ لا تزال تهدف إلى مجرد الإفهام، وإن كنا نرى فيها بعض آثار تنبئ عن تنبههم الداخلى، أو عن إحساسهم المبهم بالتجمل فى كتبهم. نرى ذلك فى الرسائل المتأخرة، وخاصة عند عثمان، وعلىّ. وعلى الرغم من شيوع نظام الإملاء فإن بعض الكتاب تحرروا من سيطرة

---

[1] احمد صفوت: الجمهرة ١ : ٣٩٢ .

المملى حتى فى عهد النبى، وذلك أمر له أهميته فى الفن، يفسح الطريق لإبراز شخصية الكاتب، ولتجويده وتحبيره وتفننه .

وقد ظهرت عدة ظواهر تدل على أن كتابة الرسائل تعانى حركة داخلية وانفعالا عنيفا يشير إلى تطور هذه الكتابة وسيرها إلى الأمام. ومن هذه الظواهر شيوعها، وكثرتها، ووجود الدواوين، وانتشار هذه الدواوين فى الأمصار المختلفة وظهور الكتاب الخاصين بالأمراء والولاة، والإطناب، بدل الإيجاز، والتجمل بالاقتباس من القرآن والاستشهاد بالشعر، والميل إلى التشخيص، وما إلى ذلك من التجمل الطبيعى، الذى لا يبلغ حد الصنعة. أما الرسائل التى نرى فيها هذه الصنعة، مثل رسالة عمرو بن العاص فى وصف مصر فلا يمكن أن نطمئن إيها. وآخر القول إن هذه الكتابة لم تكن فنية بالمعنى المصطلح عليه، ولكنها كانت تسير نحو الفن بخطا حثيثة .

الفصل الثالث

عهد الأمويين

بدأ الأمويون صفحة جديدة من التاريخ الإسلامى، تغاير الصفحات السابقة كبير مغايرة، فقد قامت تلك الدولة على أسس دنيوية تغاير أسس العهد السابق، وأحسن قول نعتت به أنها تحولت من خلافة إلى ملكية وراثية، تشبه ملكية فارس والروم، كما قال كثير من العرب أنفسهم. ولعل من القول المعاد أن نقول إن العرب اطلعوا على أقطار جديدة بالفتوح الإسلامية، وإن لواء الأمويين أظل عناصر غير عربية الجنس، ولكنها أخذت تتقبل دين العرب، ولغتهم وأدبهم. ومن القول المعاد أن نقول إن هذه العناصر المستعربة مخالفة للعرب فى مزاجها، وتفكيرها، وتراثها. ومن القول المعاد أن نقول إن هذا الاختلاف كانت له آثار فى جميع نواحى الحياة العربية، من اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية وثقافية وفنية، وخاصة الناحية التى تهمنا وهى الأدبية. وكان من أوائل الآثار التى ترتبت على نشوء الدولة والاتصال بالأجانب، ظهور ديوان الجند على يد عمر بن الخطاب. ثم تتالت الآثار بعد ذلك، وخاصة فى العصر الأموى الذى لم يعد يوجد فيه تحرج الصحابة والخلفاء، وخوفهم من كل جديد لم يعرفه عصر الرسول. هذه الدولة التى ثبتت دعائمها فى العهد الأموى، وانثالت عليها الأموال والغنائم من الأقطار المفتوحة، لابد أن تأخذ بما أخذت وأخذ به غيرها من الدول، من تحضر وتمدن، وما يتبعهما من ترف وتجمل. وهذا التحضر يتبعه تعقد فى الحياة، وتشابك فى المصالح، وحاجة إلى التفاهم والتواصل. وهذا مما يطور كتابة الرسائل وينميها وذلك ما حدث فعلا.

فقد رأينا من قبل كتابة الرسائل يغلب عليها الإملاء من الخليفة، والنسخ من الكاتب. ولكننا لا نلبث في هذا العهد أن نرى الشواهد تترى دالة على انفراد الكاتب بنفسه، وكتابته الرسائل دون إملاء .

يقول الجهشياري[1]: وذكر أن زيادا دخل يوما ديوانه، فوجد فيه كتابا، وفيه: ثلاثة دنان. فقال: من كتب هذا؟ فقيل: هذا الفتى. فقال: أخرجوه من ديواننا لئلا يفسده، وامح هذا واكتب: آدن". فهذا الخبر يدل على أن الكاتب كان يكتب بنفسه، ولولا ذلك ما استفسر عنه زياد، وما كتب هذا اللفظ الذى لم يرض عنه زياد .

وكذلك يروى الجهشيارى خبرا[2] عن يزيد بن معاوية الذى اضطرب حين سمع بخروج الحسين إلى العراق، وأراد أن يوليه رجلا يستطيع أن يكفيه. فأشار عليه سرجون الكاتب بتولية عبيد الله بن زياد، فكره ذلك يزيد. فأخرج له سرجون عهدا من معاوية لعبيد الله بولاية الكوفة، كان كتبه معاوية قبل أن يموت. فرضى يزيد بهذا العهد، وأنفذه إلى عبيد الله. يقول الجهشيارى: "فقال (يزيد) له (لسرجون): فأنفذه إليه". ثم يستمر الجهشيارى فى رواية الخبر فيقول: "وكتب معه عن يزيد إليه: أما بعد فإن الممدوح مسبوب يوما ما .." وحين نتأمل فى العبارة السابقة "وكتب معه عن يزيد إليه" قد نحار في معناها: من الذى كتب؟ وكتب مع من ؟ وإلى من؟ وأعتقد أن الكاتب هو سرجون، وأنه كتب مع العهد الذى من معاوية، وأنه إلى عبيد الله، أى أن سرجون أرسل إلى عبيد الله بن زياد عهد معاوية، ومعه رسالة كتبها بنفسه نيابة عن يزيد، ولو أراد أن سرجون "كتب مع يزيد

---

(١) الوزراء والكتاب ٢٥.

(٢) نفس المرجع ٣١.

الكتاب" لقال: وكتب مع يزيد إليه. وعلى هذا التفسير نرى العبارة تصرح بأن سرجون كتب "عن يزيد"، وهذا تصريح لا غموض فيه بأن الكاتب كتب بنفسه على لسان الخليفة. وهذا أمر كبير الأهمية ولا شك، إذ فيه دلالة واضحة على أن شخصية الكاتب بدأت تظهر وتنفرد فى رسائلهم، كما قلنا فى الكلام عن عهد عمر. وإذن كان الكاتب حرا فى بعض الأحيان، وخاصة حين يثق به الخليفة، فكان يكتب دون إملاء. وييسر له هذا التروى والتحبير. ولكننا قبل أن نترك هذا الشاهد يجب أن نلاحظ عليه أنه بليغ، فيه عمل وصنعة، وتحسين وتجميل، فيه ما لا أظن أن سرجون بن منصور الرومى الذى كان يتقلد ديوان خراج الشام بالرومية[1]، يستطيعه أن يبلغه من العربية، فى ذلك العهد المبكر. وإذن فهذه الرسالة أظنها موضوعة على سرجون، ولا يمنعنا ذلك من تصديق الخبر، أو على الأقل الشعور بأن القدماء كانوا يعتقدون بأن الكتاب كانوا أحرارا فى كتابتهم أحيانا .

وهاك شاهدا ثالثا على انفراد الكاتب برسالته. روى الجهشيارى:[2] "أن كاتبا كان لمصعب بن الزبير كتب: "المصعب"، فقال مصعب: ما هاتان الزائدتان؟ يعنى الألف واللام". فهذا التعريف الذى أدخله الكاتب على اسم مصعب، بغير رضى الأخير، يدل على أن مصعبا لم يكن يمليه، وإلا أملاه بدون الزائدتين .

وشاهدنا الرابع على تخلص الكاتب من الإملاء رسالة عبد الرحمن بن الأشعث إلى الحجاج التى يصرحون بأن ابن القرية كتبها له عنه[3]. يقول الدينورى: "فقال له

---

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ٤٦ .

(٣) الدينورى: الأخبار الطوال ٣٢٣. وابن قتيبة: الإمامة والسياسة ٢ : ٢٦ وأحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢١٩ .

(لابن القرية) عبد الرحمن (بن محمد بن الأشعث): إنـي أريـد أن أكتـب إلى الحجـاج كتابا مسجعا أعرفه فيه سوء فعاله، وأبصره قبح سريرته". وهناك شـواهد أخـرى لا داعى للإطالة فى ذكرها[1] .

ولكن يجب أن نقول إن كل هذا لا يدل على اختفاء الإملاء اختفاء تاما، بـل لا زال موجودا، ولن يزال كذلك حتى فى العصـر العباسـى، وخاصـة حـين يستفَز الخليفة فيرى أن يجيب بنفسه[2].

ويتطور الأمر فى أواخر العصر الأموى حتى نرى قبيصـة بـن ذؤيـب يفحـص الكتب الواردة على عبد الملك بن مروان، ويقرؤها قبل عرضها على الخليفة. يقـول الجهشيارى[3] "وكان يكتب لعبد الملـك قبيصـة بـن ذؤيـب بـن حلحلـة بـن عمـرو الخزاعى، ويكنى أبا إسحاق. وكان خاصا به، وبلغ من طلاقة محله منه أنه كان يقـرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل أن يقرأها عبد الملك". ثم يروى قصة تؤيد ذلك القول. ويعد ذلك خطوة مهمة فى تاريخ تطور كتابة الرسائل، والعلاقة بين الكتـاب والخلفاء .

ديوان الرسائل

والمسألة التى أمامنا هى متى ظهر ديـوان الرسـائل؟ لا نجـد تصريحـا فـى شـتى المراجع التى لدينا عن تاريخ إنشاء هذا الديوان، فيمـا عـدا ذلـك القـول فـى صبـح الأعشى للقلقشندى، وقد رفضناه من قبل .

---

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٦٢ .

(٢) الجهشيارى: الوزراء ٥٥، ٦٩ وأحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٥٣ وابن عبد ربه: العقد الفريد ٣ : ٨ .

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٢٤ .

وإذا ما قلبنا صفحات "الوزراء والكتاب"، وطالعنا أسماء كتاب الرسول والخلفاء الراشدين من بعده، وجدناه يقول عن الواحد منهم: "كان فلان يكتب كذا"[1] أو "يكتب له"[2] أو "كان يكتب لفلان فلان"[3] أو "فلان كتب له"[4] أو "استكتب فلان فلانا"[5]. ونستمر نرى هذه العبارات وحدها طوال أيام الخلفاء الراشدين، غير أننا نراه يقول عن أبي جبيرة بن الضحاك (فى عهد عمر): "وكتب له على ديوان الكوفة"[6] وهكذا يصفه بأنه "على الديوان". فأى ديوان نراه يقصد، ديوان الجند، أو الخراج، أو الرسائل، أو غيرها؟ إذا استمررنا فى تصفح نفس الكتاب نراه يعطينا الجواب، إذ يقول عن بعض الخلفاء: "ويكتب له على الديوان سرجون بن منصور النصرانى"[7]. والمعروف أن سرجون كان على ديوان الخراج[8] تولاه لعبد الملك بن مروان ولمن تقدمه من الخلفاء[9]. فنستطيع من هذا أن نرجح أن كلمة "الديوان" المطلقة عند الجهشيارى تعنى ديوان الخراج. ولكننا نعرف أن هذا الديوان كان يكتب بالفارسية فى العراق، والرومية فى الشام، وباليونانية والقبطية فى مصر يقول الجهشيارى[10] : "ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان، أحدهما

---

(١) نفس المرجع ١٢ ، ١٣ .

(٢) نفس المرجع ١٣ ، ٢١٠ ، ٢٣ .

(٣) نفس المرجع ١٥،١٦،٢١،٢٣ .

(٤) نفس المرجع ١٥،١٦ .

(٥) نفس المرجع ١٧ .

(٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ١٦ .

(٧) نفس المرجع ٣٢ ، ٣٢٣ .

(٨) نفس المرجع ٣١.

(٩) نفس المرجع ٤٠.

(١٠) نفس المرجع ٣٨ .

بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم، وهذا الذى كان عمر قد رسمه، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية. وكان بالشام مثل ذلك، أحدهما بالرومية والآخر بالعربية. ومن الطبيعى أن العرب لم يكونوا هم الذين يتولون هذا الديوان الفارسى أو الرومى، ديوان الخراج أو ديوان وجوه الأموال، كما يقول الجهشيارى، وإنما كان يتولاه الموالى الفرس والروم. وإذن لم يكن أبو جَبيرة بن الضحاك على ديوان الخراج، بل على الديوان الآخر العربى، ديوان إحصاء الناس وأعطياتهم، وذلك هو ديوان الجند أو العطاء. يؤيد ذلك أن ديوان الخراج يُشك فى وجوده فى عهد عمر، وأن الجهشيارى وصف عبد الملك بن مروان بأنه كان "يكتب له (لعثمان) على ديوان المدينة"[1]. والمدينة لم يكن بها ذلك الديوان الذى يقصد منه تدوين ما يؤخذ من الأراضى المفتوحة من الجزية والخراج، وإنما كان بها بدلا عنه بيت المال، وبها أيضا ديوان العطاء. ويقطع بذلك تفريق الجهشيارى بين الديوانين. حين ذكر أن على بن أبى طالب استعمل زياد بن أبيه على "الخراج والديوان"[2]. وإذن عندما يطلق الجهشيارى كلمة "الديوان" يعنى بها ديوان الجند أحيانا، وديوان الخراج أحيانا أخرى. ونرى من هذا أن أبا جبيرة بن الضحاك كان على ديوان العطاء، وأن ديوان الرسائل لم يرد ذكره طول عهد الصدر الأول من الإسلام .

وما يكاد يهل العصر الأموى حتى نرى عبارة جديدة تظهر عند الجهشيارى، وهى وصفه عبيد الله بن أوس بأنه "كان يكتب لمعاوية على الرسائل"[3]، ويقول أيضا عن زياد بن أبيه "ويكتب له على الرسائل عبد الله بن أبى بكرة

---

(١) نفس المرجع ٣١ .

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ص٢٣ .

(٣) نفس المرجع ٢٤ .

وجبير بن حية"[1] فما معنى هذه العبارة الجديدة؟ هل تفيد أن الكاتب تخصص بكتابة الرسائل فحسب؟ ما أظن ذلك، لأن كثيرا من الكتاب السابقين كانوا كذلك، فلم يطلق عليهم هذا اللفظ. وإذن فما معناه؟ هل تفيد أن الكاتب كان يكتب لمعاوية أو لزياد على "ديوان" الرسائل؟ هذا ما أرجحه، أرجح أن معاوية أنشأ ديوان الرسائل فيما أنشأ من دواوين[2]. ومما يؤيد ذلك أن هذه العبارة ظلت تستعمل بعد إنشاء ديوان الرسائل بزمن، إذ أطلقها الجهشيارى فى عهد عبد الملك ابن مروان على عبد الله بن أبى فروة، كاتب مصعب بن الزبير[3]، وعلى يحيى بن يعمر كاتب يزيد بن المهلب[4]، وأطلقها فى عهد هشام بن عبدالملك على رشدين كاتب يوسف بن عمر والى العراق[5]، على الرغم من إيقاننا بوجود ديوان الرسائل قبل ذلك العهد كما سيتضح فيما بعد. وقد ظلوا يستعملون أيضا عبارة "وكان يكتب لفلان" بعد إنشاء ديوان الرسائل[6]. ويؤيد ذلك أيضا أن لفظ "على" يرتبط عند الجهشيارى فى أغلب الأحيان بلفظ "ديوان" .

ثم يصرح الجهشيارى بوجود الديوان تصريحا لا غموض فيه فى عهد عبد الملك بن مروان، إذ يقول: "وكان يكتب لعبد الملك على ديوان الرسائل أبو الزعيزعة مولاه"[7]، ويصرح أيضا بأن سليمان بن سعد الخشنى كان يتقلد لعبد

---

(١) نفس المرجع ٢٦ .

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى ١ : ٥٣٠ والدكتور شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٣٤ .

(٣) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٤٤ .

(٤) نفس المرجع ٤١ .

(٥) نفس المرجع ٦٤ .

(٦) نفس المرجع ٦٤ .

(٧) نفس المرجع ٣٥ .

الملك ديوان الرسائل[1]. ولا يقتصر الأمر على ذلك بل يصرح الجهشيارى بوجود ديوان للرسائل لدى الولاة، من أمثال الحجاج[2]، ويزيد بن المهلب[3]. ولعل تعدد هذه الدواوين يجعلنا نرجح وجودها من قبل هذا العهد بزمن كاف، مما يطمئننا إلى ما قلناه من ظهورها فى عهد معاوية بن أبى سفيان .

وهكذا نرى أن ديوان الرسائل ظهر فى أوائل العصر الأموى، فى أيام معاوية ابن أبى سفيان، وتطور سريعا حتى انتشر فى الولايات المختلفة. فسمعنا عن ديوان العراق[4]، وديوان خراسان[5] فى عهد عبد الملك بن مروان. ونرى أيضا أن أوائل الكتاب الذين تقلدوا هذا الديوان كانوا عربا خلصا (مثل عبيد الله بن أوس[6]، وعبد الله بن أبى بكرة[7] ويحيى بن يعمر[8]، وقبيصة بن ذؤيب[9]، وروح بن زنباع[10]، ويدل هذا على أن ديوان الرسائل عربى النشأة، وليس بالفارسى ولا اليونانى، كما يذهب إلى ذلك بعض الدارسين. وهذا أمر طبيعى فى الرسائل العربية التى يطلب فيها الخلفاء الفصاحة والإجادة اللتين لم تتوفرا للأعاجم فى ذلك الوقت ولكننا لا نلبث أن نرى الأعاجم ينافسون العرب فى هذا الميدان، منافستهم لهم فى

---

(١) نفس المرجع ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ٤٢ .

(٣) نفس المرجع ٤١ .

(٤) نفس المرجع ٤٢ .

(٥) نفس المرجع ٦٣ .

(٦) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٢٤ .

(٧) نفس المرجع ١٦ .

(٨) نفس المرجع ٤١ .

(٩) نفس المرجع ٣٤ .

(١٠) نفس المرجع ٣٥ .

جميع الميادين الأخرى، وربما كانت منافستهم لهم فيها أسرع منها في الميادين الأخرى إذ نجدهم يتعلمون العربية ويتقنونها ويستطيعون التعبير بها تعبيرا فصيحا جميلا بليغا. فنرى أبا الزعيزعة مولى عبد الملك بن مروان على ديوانه ولا يزال الأمر في تطور حتى نرى ديوان الرسائل في يد الموالى في عهد هشام بن عبد الملك. إذ يتقلده مولاه سالم وابنه وتلاميذه الذين يعتبر عبدالحميد الكاتب، وهو من الموالى أيضا، أنبغهم. فديوان الرسائل نشأ نشأة عربية خالصة، ولكنه في أثناء سيره أمدته روافد فارسية ويونانية على يد هؤلاء الموالى الذين أتقنوا اللغة العربية، وعبروا بها شعرا ونثرا.

ولا يخامرنا الشك في أن هؤلاء الكتاب طوروا الكتابة تطويرا كبيرا إذ اتخذوها مهنة لهم، يجودون فيها ويحسنون، حتى يبلغوا أعلى المراتب وما كان الكاتب منهم مستطيعا أن يتقلد ديوان الرسائل إلا إذا أظهر هذه البراعة وأبان عن جمال في كتابته، وتفنن في أسلوبه. وهكذا تصل الكتابة إلى الفن الصحيح عندهم. ونستطيع دون وجل أن نطلق على كتابتهم اسم "الكتابة الفنية" ومما يدل على ميلهم إلى التجمل والتزين، أننا نرى الوليد بن عبد الملك يأمر بكتابة رسائله في الصحف، يقول الجهشيارى: "وكان الوليد أول من كتب من الخلفاء في الطوامير. وأمر بأن تعظم كتبه، ويجلل الخط الذى يكاتب به وكان يقول: "تكون كتبي والكتب إلى خلاف كتب الناس بعضهم إلى بعض"[1] فهذا الخليفة يطلب التخصص والتجمل في الورق والخط، والابتعاد عن مشابهة كتب الناس. ولا شك أنه لا يكره التجمل في الأسلوب والأفكار، بل يحبه ويطلبه من كتابه أيضا. وقد عمل

---

(١) نفس المرجع ٤٧ . الطوامير: الصحف، الواحدة طومار وطامور .

بذلك الخلفاء من بعده، اللهم إلا عمر بن عبد العزيز المتقشف الزاهد "الذى كان .. يأمر كتابه بجمع الخط كراهية استعمال الطوامير"[1] .

ومن الظواهر التى تدل على اهتمام الأمويين باللغة العربية، وتعريب الأشياء الأجنبية، تحويلهم دواوين الخراج من الفارسية واليونانية والقبطية إلى العربية فى عهد عبد الملك بن مروان. ولا شك أن ذلك أمر له أهميته، إذا عرفنا أن الموالى اضطروا إلى تعلم العربية كى يستعيدوا الوظائف التى انتزعها منهم العرب بهذا التحويل. فلما تعلم الموالى اللغة العربية وأجادوها كى يستطيعوا منافسة العرب فى وظائفهم، أخذوا يحاولون أن يظهروا التفوق عليهم فى التعبير بهذه اللغة. وكانت ثمرة هذا التنافس السير بالكتابة إلى طريق الفن، إذ أخذوا يتجملون فى أساليبهم ويتأنقون حتى يتفوقوا على العرب. ولا شك أن العرب قابلوا هذا الصنيع بالمثل، مما سما بالكتابة إلى الدرجات العلى فى هذه الفترة المبكرة من تاريخها .

فنحن نرى أن كتابة الرسائل فى العربية كانت سريعة التطور، لم يسايرها فى ذلك فرع آخر من فروع الأدب.

خصائص الرسائل الأموية :

إذا ألقينا نظرة عامة على رسائل العصر الأموى، رأينا فيها استمرارا لرسائل الفترة السابقة، ولكنه يصل فى النهاية إلى طور يغاير أوائل الفترة الأولى مغايرة تامة فليست لغتها بلغة الخطاب العادى، ولكنها لغة مهذبة مجملة ولا شك. لكن على الرغم من هذا التهذيب لا تصل إلى ميدان كد الذهن، وإنما هو نوع من التروى والتجويد. وقد لاحظنا من قبل أن ذلك التروى بدأ منذ أواخر الصدر الأول من

---

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٥٣ .

الإسلام. فالكتابة كانت تسير سيرا حثيثا نحو الفن والجمال وإن المرء منا حين يقرأ رسالة يزيد بن معاوية لأهل المدينة[1]، وهى التى يقول فيها: "وإنى وا لله قد لبستكم فأخلقتكم، ورفعتكم على رأسى، ثم على عينى، ثم على فمى، ثم على بطنى، وأيم ا لله لئن وضعتكم تحت قدمى لأطأنكم وطأة أقل بها عددكم، وأترككم بها أحاديث، تُنتسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود". لا شك أن المرء حين يقرأ هذه الرسالة يشعر بما فيها من تحبير وتجويد. فهذا هو الأسلوب التصويرى "الرمزى" يشيع فى هذه الرسالة، ليبين لأهل المدينة إكرام الخليفة لهم، وسعيهم فيما يحطهم فى عينه، وإنه إن لم ينتهوا سيسحقهم سحقا، فلا يبقى منهم باقية. ولا يستولى علينا الدهش حين نقول الأسلوب التصويرى، لأن بعض أنواع هذا الأسلوب من الأساليب الفطرية التى تظهر مبكرة فى الفنون، وقد رأينا أمثلة منه فى عهد عثمان.

ويظهر هذا الأسلوب أيضا فى رسالة الحجاج عند وفاته إلى الوليد، يقول[2]:

"أما بعد ؛

فقد كنت أرعى غنمك، أحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه. فجاء الأسد فبطش بالراعى، ومزق المرعىّ كل ممزق" .

وتبين هاتان الرسالتان أن لغة الكتابة قد ارتفعت إلى لغة الخطابة، بل أخذت تستعير منها عاريات، تضمها إلى نفسها، فتظهر كأنها منها لحما ودما، إذ لا فرق بين العارية والأصيل. ولا شك أننا نعرف أن لغة الخطابة كان لها تراثها القديم، وأنها كانت تترفع عن لغة الكتابة من قبل .

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٩٤ .

(٢) نفس المرجع ٢٩٢ .

ومن ظواهر التحبير والتروى ذلك السجع الذى فشا فى رسائل المختار بن أبى عبيد الثقفى، وخاصة رسالته إلى أنصاره من الشيعة. فقد قال فى رسالته إلى سليمان ابن صرد بعد محاربته عبيد الله بن زياد[1]:

"أما بعد ؛

فإن الله أعظم لكم الأجر، وحط عنكم الوزر، بمفارقة القاسطين، وجهاد المحلين، إنكم لم تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خطوة، إلا رفع الله لكم بها درجة، وكتب لكم بها حسنة .. "

وكان المختار مولعا بالسجع فى حديثه وخطابته وكتابته، ومغرما بمحاكاة القرآن وفواصله، والاستعارة من معانيه وأخيلته. يقول فى رسالته إلى الأحنف بن قيس:[2]

"أما بعد ؛

فويل أم ربيعة من مضر، فإن الأحنف مورد قومه سقر، حيث لا يستطيع لهم الصدر، وإنى لا أملك ما خط فى القدر، وقد بلغنى أنكم تسموننى كذابا، وإن كُذبت فقد كذبت رسل من قبلى، ولست بخير من كثير منهم" .

كل ذلك لا لرغبة فنية، ولكن لتأييد ما يدعيه من نزول الوحى عليه، ومن ادعاءات أخرى غريبة ليس هنا موضع ذكرها[3]. والأمر الذى يعنينا فى هذا أن ندرك أن السجع كان يرتبط لدى العرب بالكهانة والعرافة، ولذلك يقال إن

---

(١) نفس المرجع ١٢٣ .

(٢) نفس المرجع ١٣١ .

(٣) تاريخ الطبرى عام ٦٦ هـ وما بعدها .

العرافين من العرب القدماء فى الجاهلية كانوا لا يقولون تنبؤاتهم إلا سجعا. ونـدرك كذلك أن السجع ارتبط بالأمور الدينية، ولذلك نجده يظهـر ويـأخذ فـى النمـو فـى حلقات الوعظ فى الكوفة والبصرة.

وقد ظهر السجع أيضا فى بيئة أخرى غير دينية، وأعنى بذلك ظهوره فى دائرة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث. روى الدينوزى[1] أن عبد الرحمن أمر ابـن القريـة عندما خرج على الحجاج، بكتابة رسالة مسجعة إليه يخلع فيها طاعتـه. ويعرفـه فيهـا سوء فعاله، ويبصره قبح سريرته فكتب إليه :

"بسم الله الرحمن الرحيم"

من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الحجاج بن يوسف :

سلام على أهـل طاعـة الله وأوليائـه، الذيـن يحكمـون بعدلـه، ويوفـون بعهـده، ويجاهدون فـى سـبيله، ويتورعـون لذكـره، ولا يسـفكون دمـا حرامـا، ولا يعطلـون للرب أحكاما، ولا يدرسون له أعلاما، ولا يتنكبون النهج، ولا يـبرمون السـى، ولا يسارعون فى الغى، ولا يُدللون الفجرة، ولا يـتراضون الجـورة، بـل يتمكنـون عنـد الاشتباه، ويتراجعون عند الإساءة.

"أما بعد .

فإنى أحمد إليك الله حمدا بالغا فى رضاه .."

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ٣٢٣ . أحب أن أعبر عن شكي الشديد فى هذه الرسالة وأختها رسالة الحجاج . وقد يكون من أسباب هذا الشك – غير انتشار السجع والتحبير فيها – شك العلماء فى وجود ابن القرية نفسه . يقول الأصمعى (الأغانى ٢ : ٣) رجلان ما عرفا فى الدنيا قط إلا باسم : مجنون بنى عامر وابن القرية ، وإنما وضعهما الرواة" . ويقول عوانة بـن الحكـم (الأغـانى ٢: ٩) : "ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا : ابن أبى العقب صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية. ومجنون بنـى عامر".

وكان رد الحجاج عليه مسجوعا أيضا، ونحن لو صدقنا هاتين الرسالتين لقلنا بأن السجع تعدى الدوائر الدينية، ووصل إلى الدوائر الفنية الدنيوية أيضا، بل نقول إن السجع في الإسلام فن عربي صرف، لأن ابن القرية عربي خالص من البادية كما يقول مترجموه، هذا إلى جانب وجود السجع في كلام الكهان العرب منذ جاهليتهم. وارتبط بالسجع الازدواج، فكان الكاتب في كثير من رسائله يتخلص من أولهما إلى الثاني .

وتمر الكتابة في تطورها بمرحلة غريبة عنها، بل غريبة عن العقل العربي الخالص، لم يعرفها من قبل .

تلك هي مرحلة الإطالة في الكتابة. وقد تكلمت قبل عن طول الرسائل في عهد الفتنة، وأرجعت ذلك إلى الجدل السياسي بين الأحزاب المختلفة، ولكننا في هذا العصر نجد الطبري يصرح بأن عمرو بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد أول من أطال في الكتب[1]. وكانت هذه الظاهرة من الغرابة عن العرب الخلص، بحيث لم تستطع أن تسيطر عليهم وتغزو شعرهم، وإنما تغلبت على الكتابة التي يلعب فيها العقل والثقافة الدور الأكبر. وقد أخذت هذه الظاهرة تتطور وتفشو، حتى إننا نجد عبد الحميد في آخر هذا العصر يكتب رسالة يقال إنها استوعبت مجاميع ضخمة من الصحف[2].

واتجه التجويد والتحسين وجهة أخرى، إذ يرى يحيى بن يعمر العدواني كاتب يزيد بن المهلب أن الجمال في الإغراب اللفظي، وتتبع الألفاظ النادرة الاستعمال.

---

(١) الطبرى ٢ : ٢٧٠ .

(٢) ابن نباتة المصرى: سرح العيون ١٢٨ .

رووا أن يحيى بن يعمر كتب عن يزيد إلى الحجاج ينبئه بأحد الفتوح، فقال: "إنا لقينا العدو، فقتلنا طائفة، وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة بعرائر الأودية، وأهضام الغيطان. وبتنا بعرعرة الجبل، وبات العدو بحضيضه"(١). فلما أتى الكتاب إلى الحجاج استدعى يحيى وأخذ يسأله عن فصاحته. ويدل هذا الخبر على أن بعض الكتاب كانوا يتأنقون فى اختيار ألفاظهم، بل يبحثون عنها ولا يرضون بما يأتيهم عفوا. وكان هذا الإغراب اللفظى ثمرة لبيئة العراق التى اجتمعت فيها القبائل العربية، وواصلت حياتها القبلية التى كانت تحياها قبل الإسلام، أو قريبا منها .

وأخذ الكتاب يعنون بصدور رسائلهم ويتجملون فيها. فهذا كاتب المهلب يعنى بالتحميد ويطيله على غير ما اعتاد العرب فيقول(٢):

"بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الكافى بالإسلام فقد ما سواه، المعجل النقمة لمن بغاه، الذى حكم بأن لا ينقطع المزيد منه، حتى ينقطع الشكر من عباده. أما بعد .. " ويظهر فى هذا التحميد الأساس السجعى الذى سيقام عليه هذا الفن. وقد رأينا هذا أيضا فى سلام رسالة ابن القرية التى ذكرناها آنفا. ونرى فى هاتين الرسالتين وغيرهما بداية ذلك الفن الذى سيراعَى فيما بعد، إذ تطال التحميدات والصدور، ويراعى فيها موضوع الرسالة، فيكون التحميد مشعرا بذلك الموضوع. ولعلنا لاحظنا ذلك فى رسالة المهلب السابقة التى أرسلها مبشرا ببعض انتصاراته على الخوارج، وفى رسالة ابن القرية أيضا.

---

(١) المبرد: الكامل ١ : ١٣٣ . عرائر الأودية: أسافلها. والأهضام: جمع هضم، وهو المطمئن الواسع من الأرض. وعرعرة الجبل: أعلاه. والحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ١٨٧ .

وسيعنى بهذا الفن عبد الحميد الكاتب، فيطيل فيه ويتفنن، ويعطيه قواعده النهائية التى يسير عليها الكتاب فيما بعد، وخاصة تحميداته فى الفتوح[1]. وقد أدى ذلك ببعض الأدباء إلى أن يقول إنه أول من استعمل التحميدات فى فصول الكتب[2]. وقد رأينا الآن إنه ليس أول من فعل ذلك، بل سبقه بعض الكتاب الأمويين. وربما كانت هذه التحميدات من أثر كتب النبى والصحابة وخطبهم، فقد كانت تبدأ بالحمد. ولكنه كان حمدا قصيرا موجزا، فلما أتى كاتب المهلب أطاله قليلا، ولما أتى عبد الحميد أسهب وأطنب فيه. وربما كان عبد الحميد متأثرا فى تحميداته المطولة بخطب على بن أبى طالب، التى كان يحفظها، ويقول عنها إنها سبب بلاغته. وهاك أحد تحميدات عبد الحميد[3]:

"الحمد لله العلى مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصادق وعده، الذى قدر على خلقه بملكه وعز فى سماواته بعظمته، ودبر الأمور بعلمه، وقدرها بحكمه، على ما يشاء من عزمه، مبتدعا لها بإنشائه إياها، وقدرته عليها، واستصغاره عظيمها، نافذا إرادته فيها، لا تجرى إلا على تقديره، ولا تنتهى إلا إلى تأجيله، ولا تقع إلا على سبق من حتمه. كل ذلك بلطفه وقدرته وتصريف وحيه، لا معدل لها عنه ولا سبيل لها غيره، ولا يعلم أحد بخفاياها ومعادها إلا هو، فإنه يقول فى كتابه الصادق "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين".

---

(١) نفس المرجع ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ .

(٢) المسعودى: مروج الذهب ٣ : ١٧٨ .

(٣) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٥١ .

ونرى فى هذا التحميد سجعا، وزواجا وعبارات متزنة موسيقية، واقتباسا من القرآن، وغير ذلك من الحلى اللفظية والأسلوبية .

وعلى الرغم من ميل الكتاب فى هذا العصر إلى التحسين والتجميل، يجمل بنا أن نقول إن ذلك لم يخرج بهم إلى مرتبة التكلف، أو السعى وراء السجع أو البديع، وإنما كانوا يأتون برسائلهم فى أسلوب جميل فصيح بليغ توشيه بعض الجمل المتوازنة، التى تتزاوج أحيانا، وتسجع أحيانا، وتسير طبيعية فى غالب الأحيان، ويجملها أيضا شيء من تشبيه واستعارة وكناية ولكننا لن تخدعنا تلك الرسائل التى نرى السجع يفشو فيها، وتنسب إلى ذلك العصر، فإنها مما حُمل عليه، ووضع على ألسنة أدبائه، وقد أكثرنا آنفا من التنبيه إلى عدم اطمئناننا إلى ما يروى عن هذه الفترة من التاريخ، التى كثر فيها العداء، واختلطت المصالح، سواء كان ذلك فى عهدها أو بعده، واستباح كل امرئ من هؤلاء الخصوم والأولياء أن ينسب لأدبائها أو رجالها ما يؤيد حجته.

إذن نحن نجد كتابة الرسائل الرسمية تطورت تطورا سريعا، رمى بها إلى أحضان الفن، منذ أوائل العصر الأموى، وكان ممهدا للصورة الأخيرة التى ستأخذها عند عبد الحميد الكاتب وأساتذته. فقد كان هؤلاء الكتاب حلقة ذات ثقافة أجنبية أثرت فى الكتابة تاثيرا جميلا، وأخذت بيدها إلى الصورة البسيطة الجميلة من الفن.

الباب الثانى

الرسائل الإخوانية

الفصل الأول

صدر الإسلام

ليس هذا العنوان بغريب على قراء الأدب العربى، ولكنى أحب أن أشير إلى أنه يطلق على جميع الرسائل غير الديوانية. ونحن - وقد عرفنا حال الكتابة فى الجاهلية - لا نستبعد وجود هذا الفرع من الكتابة فى ذلك العصر. ولكن البحث المنقب لم يؤد بنا إلى شىء من هذه الرسائل. وأما ما جمعته جمهرة رسائل العرب[1] فقصائد شعرية، يقال إنها أرسلت إلى المكتوب إليهم، ولا يدخل فى نطاق بحثنا هذا غير الرسالتين المنسوبتين إلى أكثم بن صيفى. ويرى الناظر فيهما أنهما عبارة عن مجموعة من الحكم والأمثال، جُمع بعضها إلى جانب بعض دون رابطة أو تآلف. ونحن نرجح أنهما من جمع المتأخرين المحبين للنوادر الشوارد اللغوية، وخاصة أن من المعروف أن حكماء العرب، بل حكماء العالم أجمع، قد حمل عليهم الكثير من الأقوال. وهكذا نرى أنفسنا وليس أمامنا ما نستطيع أن نسميه إخوانيات الجاهلية.

فإذا بحثنا فى الصدر الأول من الإسلام عن وسائل إخوانية لم نكد نجد شيئا، فهم لا يروون لنا للنبى غير رسالة إخوانية واحدة، يعزى فيها معاذ بن جبل فى ابن له مات، يقول:[2]

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ١ -٢٤ .

(٢) نفس المرجع ٦٥ .

من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل:

سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد:

فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر. ورزقنا وإياك الشكر. ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية، وعوارفه المستودعة، نمتع بها إلى أجل معدود، وتقبض لوقت معلوم. ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى.

وكان ابنك من مواهب الله السنية. وعوارفه المستودعة، متعك به فى غبطة وسرور، وقبضه منك بأجر كثير: الصلاة والرحمة والهدى، إن صبرت واحتسبت. فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين: أن يحبط جزعك صبرك، فتندم على ما فاتك، فلو قدمت على ثواب مصيبتك، قد أطعت ربك وتنجزت موعوده، عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه. واعلم أن الجزع لا يرد ميتا، ولا يدفع حزنا، فأحسن الجزاء، وتنجز الموعود، وليذهب أسفك ما هو نازل بك، فكأن قد"[1] .

ومن يتأمل فى هذه الرسالة يرى – إذا كانت حقيقية ولم يغير فيها الرواة – نفس النمط الذى تسير عليه كتب الرسول السياسية، ويرى نفس أفكاره صلى الله عليه وسلم، بل قد تتضح فيها روح الرسول وعاطفته الدينية أكثر من غيرها. وذلك أمر لا غرابة فيه، لأنها رسالة إخوانية يصدر فيها كلام النبى عن عواطفه وأحاسيسه، التى قد لا تظهر فى المعاهدات أو كتب الأمان أو غيرها من الكتب السياسية. ونرى فى هذه الرسالة أيضا نوعا من الفصاحة والبلاغة يعلو بعض الشىء عن كتبه صلى الله عليه وسلم السياسية، ولعل السبب ما ذكرته آنفا، ويلاحظ فيها أيضا الصلة الشديدة بينها وبين أقواله فى الوعظ والإرشاد، ولعل ذلك أيضا من

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٦٥ العوارف: جمع عارفة، وهى المعروف .

أسباب السمو بأسلوبها. وستظل هذه الملاحظة تنطبق على كثير من إخوانيات صدر الإسلام، وبعض إخوانيات العصر الأموى، فلا يستطاع الفصل بين الرسائل الإخوانية والرسائل الدينية فصلا تاما، إذ كان الغالب على الرسائل الإخوانية التى حفظت لنا روح الوعظ والإرشاد. ومن أوضح الأمثلة على ذلك رسالة عمر بن الخطاب إلى ابنه عبد الله:[1]

"أما بعد،

فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكر له زاده، ومن أقرضه جزاه. فاجعل التقوى عماد قلبك، وجلاء بصرك فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، ولا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خلق له" .

وأحب أن أعبر عن بعض الشك فى هذه الرسالة التى رواها جماعة متأخرون، منهم صاحب زهر الآداب، ومجمع الأمثال. ولا يخفف من هذا الشك إلا أن أسلوبها المسجع، وعبارتها المتوازنة، تشبه أسلوب أحاديث الرسول الوعظية، والخطب الدينية، وهى لا تحتوى إلا على ذلك، حتى لنستطيع أن نضعها فى باب الرسائل الدينية دون أن نخشى لوما. ومن أمثلة هذه الصلة بين الرسائل الإخوانية والدينية الرسائل المتبادلة بين أبى الدرداء وسلمان الفارسي، التى توجد فى جمهرة الرسائل، وفى حلية الأولياء[2]. يقول سلمان فى إحدى رسائله:[3]

"أما بعد .

فإنك لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهى، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على

---

(١) نفس المرجع ٢٨١ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٣٢٤-٣٢٥. وأبو نعيم الأصبهانى: حلية الأولياء ١ : ٢١٤، ٢١٦ .

(٣) انظر النص المطول فى حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

ما تكره، فليكن كلامك ذكرا، وصمتك فكرا، ونظـرك عـبرا. فـإن الدنيـا تتقلـب، وبهجتها تتغير، فلا تغتر بها، وليكن بيتك المسجد .

والسلام"

ويقول أبو الدرداء:

"سلام عليك .

أما بعد ،

فإني أوصيـك بتقـوى ا لله، وأن تـأخذ مـن صحتـك لسـقمك، ومـن شـبابك لهرمك، ومن فراغك لشغلك. ومن حيـاتك لموتـك، ومـن جفـائك لمودَّتـك، واذكـر حياة لا موت فيها، في إحدى المنزلتين: إما في الجنة، وإما في النار، فـإنك لا تـدرى إلى أيهما تصير".

ونرى في هاتين الرسالتين سجعا، وزواجا، وطباقـا، وجمـلا متوازنـة، وذلـك – كما قلنا قبل – هو أسلوب المواعظ الدينية، مواعظ الرسول أو الخلفاء الراشدين أو الصحابة. بل هو أسلوب خطب الجمعة في المساجد حتى اليـوم. وقـد أخـذت هـذه الرسائل ذلك الطابع من أحاديث الرسول ومواعظه، التي كان يغلب عليها – فيمـا يظهر – الأسلوب المتوازن، الذى قد يسجع أحيانا، وقد يـزاوج كثيرا. ونـرى مـن هذا أن السجع ليس بغريب عن الأوساط الدينية. يؤيدنا في ذلك أقوال الكهان فـى الجاهلية، والقرآن والأحاديث النبويـة فـى صـدر الإسـلام، وآثـار المختـار، ووعـاظ الشوارع والمساجد في المدن الإسلامية في العصر الأموى، وما بعده. وينبغي أن يقر في أذهاننا أن ليس هذا هو الأسلوب الشائع في الرسائل الإخوانية في هذا العصـر، وإنما تغلب عليها البساطة والسهولة والصراحـة ومحاولـة الإفهـام لا غـير، كمـا هـو

الحال فى الرسائل السياسية. ويظهر هذا فى رسالتى أبى الدرداء وسلمان الفارسى التاليتين. كتب أبو الدرداء من الشام إلى سلمان فى العراق[1] .

"سلام عليك،

أما بعد،

فإن الله رزقنى بعدك مالا وولدا، ونزلت الأرض المقدسة" .

فأجابه سلمان:

"سلام عليكم .

أما بعد،

فإنك كتبت إلى أن الله رزقك مالا وولدا. فاعلم أن الخير ليس بكثرة المال والولد، ولكن الخير أن يكثر حلمك، وأن ينفعك علمك. وكتبت إلى أنك نزلت الأرض المقدسة، وإن الأرض لا تعمل لأحد. اعمل كأنك ترى الله، واعدد نفسك من الموتى" .

وتظهر البساطة والصراحة فى الرسالتين التاليتين المتبادلتين، بين عبد الله ابن عمر وغلام له[2]، كتب إليه غلامه :

"أما بعد ،

فقد أعطيت بفضل مائى ثلاثين ألفا، بعد ما أرويت زرعى ونخلى وأصلى. فإن رأيت أن أبيعه وأشترى به رقيقا، أستعين بهم فى عملك، فعلت" .

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٣٢٤ .

(٢) نفس المرجع : ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

فأجابه عبد الله:

"قد جاءنى كتابك، وفهمت ما كتبت به إلى، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من منع فضل ماء ليمنع به فضل كلأ، منعه الله فضله يوم القيامة، فإذا جاءك كتابى فاسق نخلك وزرعك وأصلك وما فضل فاسق جيرانك، الأقرب فالأقرب .

والسلام"

وفيما عدا هذه الرسائل التى لا تتجاوز عدد الأصابع نرى عصر الرسول وعصر الخلفاء الراشدين، يمر مسرعا أو مبطئا، دون أن يصل إلينا شىء منه ولا يعنى هذا أنه لم تكن توجد إخوانيات كثيرة، بل لقد كانت، وكانت أيضا فى تطور سريع، حتى وجد نظام البريد فى عهد عمر. وكان سبب وجوده حب عمر فى الاتصال السريع الدائم بعماله. يؤيد ذلك قصة نصر بن حجاج الذى نفاه عمر من المدينة إلى البصرة، لجماله وخوف عمر على النساء أن تفتتن به. يقول الخبر:

وأبرد عمر بريدا إلى عتبة بن أبى سفيان بالبصرة فأقام بها أياما، ثم نادى منادى عتبة من أراد أن يكتب إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئا فليكتب، فإن بريد المسلمين خارج. فكتب الناس، ودس نصر بن حجاج كتابا[1] .. " .

ولا شك أن هذا النظام كان عاملا هاما فى الرقى بالرسائل الإخواتية وغيرها ونشرها.

ولكننا لم يصل إلينا غير هذه الرسائل القليلة من ذلك العهد، فما السر يا ترى؟ السر فى ذلك – كما أعتقد – أن الأدباء العرب لم يعنوا بهذه الرسائل الإخوانية، بل ما كانوا يعنون بها فى الأزمنة المتأخرة، إلا إذا كانت آية فى البلاغة أو نهاية فى

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٨٣ .

الجمال والصنعة. وما كان ذلك ليتوافر لرسائل هذا العهد المبكر. وإذن فسبب ضياع إخوانيات الجاهلية والصدر الأول من الإسلام، بل ضياع كثير من رسائل الأزمنة المتأخرة، أن الأدباء ما كانوا يهتمون بهذا النوع من الكتابة وما كانوا يعتبرونه فنا من الفنون، وخاصة أنه يتصل بالشئون الخاصة للأدباء، والأدب العربي - للأسف - مصاب بمرض إهمال تلك الأمور، في نثره أو شعره. ويرجع ذلك إلى أنه أدب قصور، يعيش على موائد الملوك، ولا يصل إلينا منه إلا ما اقترب منهم واتصل بهم. ولعل هذا المرض لم يصب به الأدباء، وإنما أصيب به النقاد والمؤرخون، وتلك هي الحقيقة. فما كان نقادنا - رحمهم الله - يقدرون ويستحسنون غير شعراء البلاط وكتابه، فيخلدونهم في كتبهم وموسوعاتهم. أما الشعراء الخاصون والكتاب الخاصون، أو الأدباء الذين يعيشون لأنفسهم فلم يحفلوا بهم إلا قليلا. ولذلك لم نجد عنهم غير أخبار نادرة تتساقط إلينا منزوية منكمشة. وهكذا ضاع شعر كثير جميل، وكتابة كثيرة جميلة، وعاش ذلك المديح وشعراؤه، وتلك الكتابة الديوانية وكتابها. ولو وصلت إلينا آثار أولئك الأدباء المنطوين على أنفسهم، لوجدنا كنوزا أدبية تفيض بالعاطفة، ولتفتحت أمامنا ميادين فسيحة للبحث والدرس، ولعثرنا على مذاهب فنية تقوم على قوام الأدب من أفكار وانفعالات وأخيلة، لا على الصنعة والتصنيع والتصنع، التي أولع بها كتاب القصور وشعراؤها. ولعلنا نعذر هؤلاء النقاد والمؤلفين، إذا عرفنا أنهم كانوا يؤلفون كتبهم للملوك والأمراء، فيملأونها بأخبارهم، ويسقطون منها ما يعتبرونه أخبار الشعب والسوقة. والسبب الثاني لضياع إخوانيات العصر الجاهلي والإسلامي عدم سمو هذه الرسائل إلى مرتبة الفن، فما كان ذلك الفرع الناشئ من الأدب ليتخطى حدود الزمان، ويضرب إلى الفن .

أما الذى حفظ لنا الكتابة السياسية، التى لم تصل إلى مرتبة الفن، فارتباطها الشديد بالتاريخ. ولذلك نجدها مدونة فى كتب التاريخ لا فى كتب الأدب. ولن يعنى الأدباء بها إلا عندما تصير فنا جميلا خليقا بعنايتهم. وأما الذى حفظ الرسائل الإخوانية السابقة – فى ظنى – فهى المواعظ التى تشتمل عليها . ولعلها لم تبق بصورتها القديمة، وإنما نالتها أيدى الرواة بالتحبير والتحسين، ومن هنا جاء الفرق بين الرسائل المحبرة التى فيها وعظ، والرسائل العاطلة التى لا مواعظ فيها .

الفصل الثانى

العصر الأموى

فى مستهل هذا العصر يتولى الخلافة معاوية بن أبى سفيان، فيعنى بالبريد وتنظيمه، حتى يشتهر أنه أول من وضع البريد[1]، وليس ذلك بصحيح، فإن واضعه هو عمر بن الخطاب، كما تقدم. ولكن العصر الأموى لم يكن بأحسن حظا من الفترة السابقة عليه إذ ضاع أكثر رسائله الإخوانية أيضا، ولم نستطع العثور إلا على قريب من عشرين رسالة. وهى فى النصح والعتاب والاعتذار والتعزية والشفاعة والرجاء وتبادل الآراء والمعارف العلمية، وما إلى ذلك من الأمور التى تقع بين الأصدقاء. ولا نكاد نصل إلى عبد الحميد حتى نراهم يأتون له بنحو خمس رسائل إخوانية، بل يؤلف رسالة طويلة فى الإخاء ذاته .

ونرى هذه الرسائل فى بادئ أمرها بسيطة اللغة صريحة الأسلوب، لا ترمى إلا إلى الإفهام، دون تجمل أو تحبير، كما نرى فى رسالة محمد ابن الحنفية إلى أخيه الحسين، حين اقترفا متغاضبين، وأراد محمد الصلح[2]:

"من محمد بن على إلى أخيه الحسين بن على،

أما بعد،

فإن لك شرفا لا أبلغه، وفضلا لا أدركه، فإن أمي امرأة من بني حنيفة، وأمك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمي ما وفين بأمك، فإذا قرأت رقعتي هذه، فالبس رداءك ونعليك، وسر إليّ لترضيني

---

(١) الكتاني: التراتيب ١ : ١٩٢ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٤ .

وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى.

والسلام"

أما رسالة معاوية إلى ابنه يزيد فى عتابه، التى يقول فيها[1]

"من معاوية بن أبى سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية،

أما بعد،

فقد أدت ألسنة التصريح إلى أذن العناية بك، ما فجع الأمل فيك، وباعد الرجاء منك، إذ ملأت العيون بهجة، والقلوب هيبة، وترامت إليك آمال الراغبين، وهمم المتنافسين، وشحت بك فتيان قريش وكهول أهلك، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجرة المهومة، والكظ الجشء.

اقتحمت البوائق، وانقدت للمعاير، واعتضتها من سمو الفضل ورفيع القدر فليتك - يزيد - إذ كنت لم تكن، سررت يافعا ناشئا، وأثكلت كهلا ضالعا، فواحزناه عليك، يزيد! وياحر صدر المثكل بك، ما أشمت فتيان بنى هاشم! وأذل فتيان بنى عبد شمس، عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب! فمن الصلاح ما أفسدت، ورتق ما فتقت؟ هيهات! خمشت الدربة وجه التصبر بك، وأبت الجناية إلا تحدرا على الألسن، وحلاوة على المناطق، ما أربح فائدة نالوها، وفرصة انتهزوها ! .."[2].

---

(١) نفس المرجع ٦٩ .

(٢) "أدت ألسنة التصريح .. الأمل فيك": أى أفضت بأنبائك ألسنة الرقباء عليك إلى مسامع أبيك ذى العناية الشديدة بشأنك. وصرحت له بما تقارفه من المنكرات. الجرة: ما يفيض به البعير فيأكله ثانية، وهوعه ما أكل: قيأه إياه والمراد أنهم يستثقلون ذكره، كظه الطعام كظا: ملأه حتى لا يطيق النفس. والجشء: الكثير. والبوائق: جمع بائقة، وهى الداهية. والمعاير: المعايب. والدربة: العادة والجراة على الأمر والمعنى دربتك على اقتراف المعاصى والسيئات .

أما هذه الرسالة فأشك فيها شكا قويا، بسبب ما فيها من العبارات التى تحط قدر يزيد، وتبلغ عنه ما يريده خصمه، مما لا يصح أن يصدر عن أبيه الذى يرشحه لولاية العهد. ولعل أسلوب هذه الرسالة يساعد على هذا الشك، إذ نرى فيها شيئا من السجع، وكثيرا من الألفاظ الغريبة التى لم نعتد وجودها بهذه الكثرة عند معاوية، كما نرى فيها مجازا بعيدا عن عصر معاوية مثل قوله "فقد أدت ألسنة التصريح إلى أذن العناية بلك ما فجع الأمل فيك" وقوله "خمشت الدربة وجه التصبر فيك" . ومما يزيد من حدة هذا الشك أنها وصلت إلينا من رواية متأخرة، أعنى كتاب صبح الأعشى(١) .

وتظهر هذه البساطة أيضا فى الرسائل التى يتبادل فيها العلماء المعلومات. يقال إن عروة بن الزبير وعبد الملك بن مروان كانا يتبادلان الرسائل العلمية. يقول الطبرى(٢): ثنا هشام بن عروة، عن عروة، أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان:

أما بعد؛

فإنك كتبت إلى تسألنى عن خالد بن الوليد، هل أغار يوم الفتح؟ وبأمر من أغار؟ وإنه كان من شأن خالد يوم الفتح أنه كان مع النبى صلى الله عليه وسلم فلما ركب النبى بطن مر، عامدا إلى مكة، وقد كانت قريش بعثوا أبا سفيان وحكيم ابن حرام يتلقيان رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهم حين بعثوهما لا يدرون أين يتوجه النبى صلى الله عليه وسلم: إليهم، أو إلى الطائف، وذاك أيام الفتح؟ واستتبع أبو سفيان وحكيم بن حزام بديل بن ورقاء، وأحبا أن يصحبهما ولم يكن غير أبى

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى ٦ : ٣٨٧ .

(٢) ١ : ١٦٣٤ .

سفيان وحكيم بن حزام وبديل. وقالوا لهم حين بعثوهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا نؤتين من ورائكم، فإنا لا ندرى من يريد محمد: إيانا يريد، أو هوازن يريد، أو ثقيفا؟ وكان بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين قريش صلح يوم الحديبية وعهد ومدة، فكانت بنو بكر فى ذلك الصلح مع قريش. فاقتتلت طائفة من بنى كعب، وطائفة من بنى بكر، وكان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين قريش فى ذلك الصلح الذى اصطلحوا عليه "لا إغلال ولا إسلال" فأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، فاتهمت بنو بكر قريشا، فمنها غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة. وفى غزوته تلك لقى أبا سفيان وحكيما وبديلا بمر الظهران .." .

ولا يبقى أمر هذه البساطة طويلا، إذ لا يلبث قارئ هذه الرسائل أن يشعر بأن كتابها كانوا يطلبون من أنفسهم إحكامها، حتى لا يفلت من بين أصابعهم شيء، ويطلبون إيجازها، حتى لا ترى فيها موضعا لإطناب، فأنت تشعر فيها بنوع من الدقة والتحرز والحرص، يظهر هذا فى رسالة عبد الملك بن مروان إلى ولده يعاتبه فيها:(١)

"أما بعد؛

فإنى أمرتك بأمر فأتيت غيره، ووصيتك بوصية فأبيت إلا عصيانها، وخفت أنك بمنزلة الصبى الذى إذا أُمر بشيء أباه، وإذا نهى عن شيء أتاه، فيحتال له فيما ينفعه بأن ينهى عنه، وفيما يضره بأن يؤمر به، وياسوءتى لمن هذه حاله !

والسلام"

وتظهر فى هذه الرسالة ثمرة التفكير الطويل فى طريقة العتاب، وإيلام المعاتب

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٤٢ .

بما لا يخرج عن الأدب، بعكس الحال فى رسالة معاوية. فهى عتاب ساخر مصور، يشبه الرسم "الكاريكاتورى"، لاسباب فيه ولا شتم .

ونرى ظاهرة أخرى فى رسالة بشر بن مروان، التى يعتذر فيها لأخيه عبد العزيز:[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

لولا الهفوة لم أحتج إلى العذر، ولم يكن لك فى قبوله منى الفضل. ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضمنته لزدت فيه، وبقية الأكابر على الأصاغر من شيم الأكارم، ولقد أحسن مسكين الدارمى حيث يقول :

أخاك أخاك إن من لا أخا له   كساع إلى الهيجا بغير سلاح

وإن ابن عم المرء ـ فاعلم ـ جناحه   وهل ينهض البازى بغير جناح"

إذ نرى فى هذه الرسالة، إلى جانب الإيجاز والإحكام والاهتمام بالأسلوب وتوازن الألفاظ فى الأكابر والأصاغر والأكارم، نرى فيها إلى جانب كل هذا تفكيرا عقليا يخرج بها إلى حد الغموض القليل، ونرى فيها أيضا نوعا آخر من التحلية، أعنى الاقتباس من الشعر .

وتأخذ هذه الرسائل الإخوانية فى التقدم، إلا أنها تصاب بنكسة عند عمر ابن عبد العزيز، فترجع إلى حالها الأول لا ترمى إلا إلى الإفهام، ولا تأبه لزينة أو جمال، وإنما تصدر عنه بسيطة خالصة صريحة. يظهر هذا فى رسالته إلى عمر بن عبد الله بن عتبة يعزيه فى أبيه:[2]

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٧٠ .

(٢) نفس المرجع ٣٥٦ .

أما بعد؛

فإنا قوم من أهل الآخرة سكنا الدنيا، أموات أبناء أموات، فالعجب كل العجب لميت، يكتب إلى ميت، يعزيه عن ميت .

والسلام"

ويظهر هذا أيضا في رسالته إلى مؤدب ولده، وإن كانت أعلى من الأولى أسلوبا:[١]

"من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سهل مولاه .

أما بعد؛

فإني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي، فصرفتهم إليك عن غيرك من موالي وذوي الخاصة بي، فخذهم بالجفاء فهو أمعن لإقدامهم؛ وترك الصحبة، فإن عادتها تكسب الغفلة؛ وقلة الضحك، فإن كثرته تميت القلب. وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن، فإنه بلغني من الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني، واللهج بها ينبت النفاق في القلب، كما ينبت العشب الماء، ولعمري لتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن، أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه .. " .

وتظهر هذه النكسة في رسائله جميعها على اختلاف أنواعها، ولكنها لا تتعدى شخص عمر، فهذا الحسن البصري، في عهده، يتصل به أن مكحولا فقيه الشام توفي فيحزن عليه، ثم يتصل به بطلان ذلك فيفرح، ويكتب إليه:[٢]

---

(١) نفس المرجع ٣٦٨ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٣ : ٣٩٠ .

"أما بعد، أبا عبد الله،

كان الله لنا ولك فى المحيا والممات، وقضى لنا ولك بخير فى الدنيا والآخرة، ويسر لنا ولك حسن المآل والمنقلب .

فإنه أتانا عنك ما راعنا، ثم أتى بعده ما أكذبه، فلعمر الله لقد سررنا وإن كان السرور بما سررنا به وشيك الانقطاع، ذاهبا عما قليل إلى الخبر الأول. فهل أنت - عافاك الله ووفقنا وإياك لصالح العمل - كرجل ذاق الموت، وعاين ما بعده، وسأل الرجعة فأجيب إليها وأعطى ما سأل، بعد أن عاين مافاته، فتأهب فى نقل جهازه إلى دار قراره، لا يرى أن له من ماله إلا ما قدم أمامه، ومن عمله إلا ما كتب له ثوابه.

والسلام"

فهذه الرسالة على الرغم من اختلافها عن رسائله الأخرى الدينية، تخالف كتب عمر بن عبد العزيز، فهى تتدفق بالشعور الجميل، الذى يغدق على الألفاظ جمالا، ويكسب الأسلوب فصاحة وبلاغة.

ويرجع الإيجاز والإحكام فى التعبير، والتفكير العقلى إلى الظهور ثانية فى رسالتى سالم مولىهشام. وهاك رسالته إلى بعض إخوانه:

أما بعد؛

فقد أصبحت عظيم الشكر لما سلف إلى منك، جسيم الرجاء فيما بقى لى عندك، قد جعل الله مستقبل رجائى منك عونا لى على شكرك، وجعل ما سلف إلى منك عونا على مؤتنف الرجاء فيك"[1].

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٤٣١ . مؤتنف: مستأنف .

ويلاحظ على هذه الرسالة توازن جملها وتقابلها، بل تقابل ألفاظ كل جملة بألفاظ الجملة التى تليها .

وإلى جانب هذا الإيجاز تيار آخر، هو تيار الإطناب، الذى يظهر عند عقال ابن شبة وعبد الحميد الكاتب. فقد كتب عقال إلى خالد بن عبد الله القسرى فى شفاعة: إن الله انتجبك من جوهرة كرم، ومنبت شرف، وقسم لك خطرا شهرته العرب، وتحدثت به الحاضرة والبادية، وأعان خطرك بقدرة مبسوطة، ومنزلة ملحوظة، فجميع أكفائك من جماهير العرب يعرف فضلك، ويسره ما خار الله لك، وليس كلهم أداله الزمان، ولا ساعده الحظ، وأحق من تعطّف على أهل البيوتات، وعاد لهم بما يبقى لهم ذكره، ويحسن به نشره، مثلك .

وقد وجهت إليك فلانا، وهو من دنية قرابتى، وذوى الهيئة من أسرتى وعرف معروفك، وأحببت أن تلبسه نعمتك، وتصرفه إلى، وقد أودعتنى وإياه ما تجده باقيا على النشر، جميلا فى الغب"[1] .

فهذه الرسالة فيها إطناب، آت من ترادف الجمل، الذى تعمده الكاتب ليوفر لرسالته نوعا من التوازن، الذى يحدث جرسا موسيقيا عند القراءة، وفيها أيضا فكر يحسن التصرف فى الشفاعة، يبدأ بمدح المشفوع إليه وبيان خطره، ويثنى بالمشفع فيه وجدارته، ويختم بالأثر الحميد لقضاء هذه الشفاعة .

أما الإطناب عند عبد الحميد فيظهر فى رسالته إلى أخيه يعرفه بمولوده الجديد:[2]

---

(١) نفس المرجع ٤١٦. انتجب: اختار . والخطر: القدر . وأدال: نصر . والغب: العاقبة .

(٢) نفس المرجع ٥٤٩ .

"أما بعد؛

فإني ما أتعرف من مواهب الله نعمة خُصصت بمزيتها، وأصفيت بخصيصتها كانت أسر لى من هبة الله لى ولدا سميته "فلانا"، وأملت ببقائه بعدى حياة ذكرى، وحسن خلافة في حرمتي، وإشراكه إياى في دعائه، شافعا لى إلى ربه عند خلواته في صلاته، وحجه، وكل موطن من مواطن طاعته. فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدى، وظهر به سرورى، وتعطفت عليه منى أنسة الولد، وتولت عنى به وحشة الوحدة، فأنا به جذل في مغيبي ومشهدى، أحاول مس جسده بيدى في الظُّلَم، وتارة أعانقه وأرشفه، ليس يعدله عندى عظيمات الفوائد، ولا منفسات الرغائب، سرني به واهبُه لى على حين حاجتي، فشد به أزرى، وحملنى من شكرى فيه، ما قد آدنى بثقل حمل النعم السالفة إلىّ به، المقرونة سراؤها في العَجب، بتارات ما يدركنى به من رقة الشفقة عليه مخافة مجاذبة المنايا إياه، ووجلا من عواصف الأيام عليه .. " ولا شك أن القارئ يشعر بإطنابه، الذى يأتى من ترادف الجمل، وتفصيله في الكلام. ويشعر أيضا بأن الطفل ماثل أمامه، وقد رفعه والده على يديه، حانيا عليه، ملاعبا إياه، حين يقرأ قوله "فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدى، وظهر به سرورى، وتعطفت عليه منى أنسة الولد، وتولت عنى به وحشة الوحدة، فأنا به جذل في مغيبي ومشهدى، أحاول مس جسده بيدى في الظلم، وتارة أعانقه وأرشفه" . وهذه قدرة عبد الحميد على التشخيص والتصوير .

وكانت ثمرة تطور كتابة الرسائل الإخوانية في هذه العصور تلك الرسالة الجامعة التى كتبها عبد الحميد في وصف الإخاء ذاته. يقول عبد الحميد:[1]

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٤٣٤ .

"فإن أولى ما اعتزم عليه ذوو الإخاء وتواصل عليه أهل المودات، ما دعا أسبابه صدق التقوى، وبنيت دعائمه على أساس البر، ثم أنهد البناء حريز التواصل، وشيده مستعذب العشرة، فادعم قويا، وصفا مونقا، وأخلصته المقة منعطفة، وسكنت به القلوب أنيسة، وسمت من مواصلة الهمم مستعلية عن كل زائغ معتاق، ومخوف عارض"(١)

ويظهر في هذه الفقرة توازن الجمل وترادفها اللذان يتعمدهما عبد الحميد. ويظهر فيها أيضا ميله للسير المنطقي، فهو يمثل الإخاء بناء تجتمع له الأسس من التقوى والبر، ويرفع بناءه التواصل والعشرة العذبة، ويدعمه ويصفيه، ثم تجمله المقة والمحبة، وأخيرا تسكنه القلوب مستأنسة. ونرى في هذا السير المنطقي حبا للتجسيم والتجسيد، يجعلنا نتصور البناء، في جميع أطواره، ماثلا أمام أعيينا كأننا نلمسه بأيدينا. ويظهر هذا الميل للتجسيد والتصوير في تركيب الجمل، التي توحي بالتجسيد أو تكسب الكلام البروز والوضوح كقوله "فأنا مصيخ السمع للفظه، عقل العقل عن سوى أمره، محتضر الذهن في تدبيره، ذهل القلب عن تفنين القول". ولعل هذا الميل للتجسيد والتصوير هو الذى ساقه إلى الإكثار من الحال، التي نعرف أنها تحدد الأمور وتوضحها، وتعطيها صورا ماثلة أمام ذهن المستمع، فهو يقول في العبارة السابقة "فادعم قويا، وصفا مونقا، وأخلصته المقة منعطفة .." ويقول أيضا في نفس الرسالة: "وكشف لهم عن نفسه، مظهرا أعلامه، مبديا دفينته، طارحا قناع سره، معلنا مكنون ضميره". وتكرر عنده - غير الحال - بعض الصيغ الأخرى مثل المفعول لأجله في قوله "وبث في الحقب من المكارم قياما لهم بالنصرة، وحياطا للمودة، وترغيبا في العشرة" . ونحن ندرك أن ذكر الأسباب مما يحدد

---

(١) أنهد: رفع . وحرير: حصين . والمقة : المحبة .

الأمور، ويجلى الظروف المحيطة بها. وتكرر عنده أيضا صيغة التفضيل يليها المضاف إليه أو التمييز مثل قوله "فكان أكهف لجأ، وأحرز حصن، وأحصف جنة، وأعون ظهير، وأبقى ذخيرة، وأعظم فائدة، وأشرف كنز، وأفخر صنيعة، وآنق منظر، وأينع زهرة، أكثر الأشياء ريعا، وأنماها وصلا، وأمدها سببا، وأقواها أيدا، وأحلاها ذوقا، وأدعمها ثباتا، وأرساها ركنا"(١) وهذا التكرار يكسب كتابته جمالا موسيقيا ملحوظا، فوق تحديده ما يريد من المعاني. وهكذا نرى عبد الحميد يوفر كل هذه الخصائص لإخوانياته مما يضفي عليها جمالا وفنا، ويجعلها جديرة بزعامة العصر الأموي.

الخلاصة

وجملة القول إن الرسائل الإخوانية الخالصة التي لا وعظ فيها، بدأت بسيطة خالصة صريحة، ليس فيها شيء من الفن، واستمرت كذلك مديدة في العهد الأموي، بخلاف الرسائل السياسية، التي سارت في طريق الفن منذ أواخر صدر الإسلام وأوائل العهد الأموي. ولكن الإخوانيات ما لبثت أن تطورت سريعا، فسارت في اتجاهين: اتجاه الإيجاز والإحكام والدقة عند عبد الملك بن مروان وأخيه بشر وسالم، واتجاه الإطناب وترادف الجمل وتوازنها الموسيقى عند عقال وعبد الحميد. وكان الاتجاهان كلاهما لا يرضيان بما يعطيه العقل للوهلة الأولى، وإنما يفكران، ويعمقان الفكر، في سبيل الوصول إلى الأمر الجديد البديع. ونستطيع أن نقول إن تفنين الكتابة الإخوانية تأخر قليلا عن الكتابة السياسية، ولكن الإخوانيات سرعان ما أدركت السياسيات، وسارت بجوارها غير متخلفة عنها ولا متقدمة عليها.

---

(١) أكهف: أحصن وأمنع. وأحصف: أحكم. والجنة. كل ما يقى. وراع يربع ريعا: نما وزاد. والأيد: القوة .

الباب الثالث

الرسائل الدينية

الفصل الأول

الرسائل الوعظية

من المستحسن أن نبين ما نريده بهذه الرسائل قبل أن نتكلم عنها، فهي ما أرسله كبار رجال الدين والوعاظ والزهاد إلى الخلفاء والأمراء، والأصدقاء أحيانا، لوعظهم، وتوجيههم الوجهة الدينية التي يريدون، وإظهار رأى الدين فى المشكلات التى أمامهم .

ولو أردنا أن نفصل بين هذه الرسائل والأنواع الأخرى السابقة، ما استطعنا فى كثير من الأحيان، وقد رأينا ذلك من قبل فى تعزية الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل، وفى رسالة عمر بن الخطاب لابنه، وفى الرسائل المتبادلة بين أبى الدرداء وسلمان الفارسى، وغيرها من الرسائل، التى نستطيع أن ندخلها فى باب الرسائل الإخوانية أو الدينية دون حرج. وتظهر الصلة الشديدة بين الرسائل الدينية والسياسية كل ظهور فى رسائل الخلفاء إلى عمالهم، وخاصة رسائل عمر بن عبد العزيز. وليس ذلك بالأمر الغريب لأن الخليفة كان الرئيس الدينى والرئيس السياسى فى نفس الوقت. وقد يتضح السبيل أمامنا حين تغلب على الرسالة صبغة الوعظ الدينى، أو تكون مرسلة إلى أحد الخلفاء أو الأمراء .

وعندما ما نبحث هذا النوع من الرسائل نجده يختلف عن الأنواع الأخرى. فهو صادر عن عاطفة دينية لا تريد الإفهام أو الإخبار فحسب، وإنما تريد دفع المرسل إليه إلى العمل بما فى هذه الرسائل من مواعظ. وإذن فمجرد الإفهام غير مطلوب منها، وإنما يطلب منها أيضا أن تؤثر فى قارئها، وتدفعه إلى تغيير وجهة نظره فى الحياة، وإلى أن يقوم بأعمال قد يكون غير معتاد لها من قبل. وإذن يجب على الكاتب أن يراعى هذه المسألة، ويبحث عن الأمور التى تأتى له بهذه الثمرة. ومن هنا يبحث عن تحميل ألفاظه شحنا من عاطفته الدينية الثائرة المتدفقة، كى تثير هذه العاطفة شعور القراء. وما تستطيع الألفاظ جميعا أن تحمل هذه العواطف، وتؤديها الأداء الجميل، ولذلك يضطر الكاتب إلى اختيار ألفاظه واختيار جمله، واختيار أسلوبه. وهو قد يفعل كل ذلك دون أن يتنبه له، وإنما بدافع من عاطفته القوية الثائرة، وقد يفعله وهو جد واع له. ولكن الثمرة واحدة فى الحالتين، إذ ستخرج رسائله سامية الأسلوب، عذبة الألفاظ، موسيقية العبارات، زاخرة بالمشاعر. وهذا ما نلاحظه على هذا النوع من الرسائل فى جملتها منذ البداية .

وقد رأينا فى باب الرسائل الإخوانية ما كانت تتحلى به رسالة عمر، ورسائل أبى الدرداء وسلمان الفارسى من خصائص، فلست بحاجة إلى تكرار الكلام عنها. ولما كان صدر الإسلام لم يصل إلينا منه رسائل غيرها، فإننا سننتقل من فورنا إلى العصر الأموى .

فإذا ما انتقلنا إلى ذلك العصر، وجدنا أنه بقى لنا منه أكثر مما بقى من الإخوانيات، ويرجع أغلب رسائله إلى عهد عمر بن عبد العزيز، وكثير منها إل قلم الحسن البصرى، تلك الشخصية الدينية الرائعة التى ظلت مثلا بارزا للورع والتقوى طوال القرون السابقة حتى اليوم، والتى كانت المحور الذى دارت عليه قصص دينية جميلة، محقة ومبطلة.

وإذا ما جمعنا هذه الرسائل أمامنا، وأخذنا نمعن النظر فيها لتبين خصائصها، وجدنا الخاصة الأولى التى تشيع فيها توازن الجمل الموسيقى. نرى هذا فى رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أحد أصدقائه:[١]

"يا أخى، إنك قد قطعت عظم السفر وبقى أقله .. وإياك أن تغرك الدنيا، فإن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، يا أخى، إن أجلك قد دنا، فكن وصى نفسك، ولا تجعل الرجال أوصياءك" .

ونرى هذا التوازن الموسيقى فى أغلب الرسائل الباقية، ولعل القارئ سيلاحظ ذلك فى الأمثلة الأخرى التى سنذكرها فيما يلى .

ومن الخصائص التى تبين عنايتهم بألفاظهم، ذلك الزواج الذى يفشو فى معظم رسائلهم، والذى إن أخلى مكانه، فإنما يخليه للسجع. يقول عمر بن عبد العزيز لأبى بكر بن حزم والى المدينة:[٢]

"إن الطالبين الذين أنجحوا، والتجار الذين ربحوا، هم الذين اشتروا الباقى الذى يدوم بالفانى المذموم. فاغتبطوا ببيعهم، وأحمدوا عاقبة أمرهم. فالله الله وبدنك صحيح. وقلبك مريح: قبل أن تنقضى أيامك، وينزل بك حمامك. فإن العيش الذى أنت فيه يتقلص ظله، ويفارقه أهله. فالسعيد الموفق من أكل فى عاجله قصدا، وقدم ليوم فقره ذخرا، وخرج من الدنيا محمودا، قد انقطع عنه علاج أمورها، وصار إلى الجنة وسرورها".

ويقول الحسن البصرى فى رسالته لعمر بن عبد العزيز التى يصف فيها الإمام

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٥٥ .

(٢) نفس المرجع ٣٠٦ .

العادل[1] : "اعلم، يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف" ويظهر فى هذه الرسالة ترادف الجمل وتوازنها ظهورا بينا. ويظهر السجع والازدواج فى رسالة الحسن الأخرى إلى عمر بن عبد العزيز[2] :

"فانظر، يا أمير المؤمنين، إليها (إلى الدنيا) نظر الزاهد المفارق، ولا تنظر نظر المبتلى العاشق. واعلم أنها تزيل الثاوى الساكن، وتفجع المترف فيها الآمن، ولا ترجع ما تولى وأدبر، ولابد مما هو آت منها ينتظر، ولا يتبع ما صفا منها إلا كدر، فاحذرها فإن أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وعيشها نكد، وصفوها كدر" .

ومن الخصائص التى تنتشر فى هذه الرسائل الاقتباس من القرآن، يقول غيلان بن مسلم الدمشقى لعمر بن عبد العزيز[3]:

"وربما نجت الأمة بالإمام، وربما هلكت بالإمام، فانظر أى الإمامين أنت. فإنه تعالى يقول: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) فهذا إمام هدى، ومن اتبعه شريكان. وأما الآخر، فقد قال تعالى: (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار، ويوم القيامة لا ينصرون)، لن تجد داعيا يقول: تعالوا إلى النار. إذن لا يتبعه أحد، لكن الدعاة إلى النار هم الدعاة إلى معاصى الله" .

وقد يضمن القرآن تضمينا لطيفا دون أن ينص عليه، كما فى رسالة الحسن البصرى لعمر بن عبد العزيز[4] :

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٧٨ .

(٢) نفس المرجع ٣٨٣ .

(٣) نفس المرجع ٣٩٢ .

(٤) نفس المرجع ٣٨٠ .

"واعلم، يا أمير المؤمنين، أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، ويسلمونك فى قعره فريدا وحيدا. فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه. واذكر، يا أمير المؤمنين، إذا بعثر ما فى القبور، وحصل ما فى الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها" .

ومن الخصائص الظاهرة فيها أيضا الاقتباس من الحديث يقول عمر بن عبد العزيز فى رسالته لعبد الملك:(١)

"أما بعد؛

فإنك راع، وكل راع مسئول عن رعيته، حدثنى أنس بن مالك أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كل راع مسئول عن رعيته" ، "الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، ومن أصدق من الله حديثا" .

ويظهر هذا الاقتباس من الحديث واضحا فى رسالة أبى الدرداء إلى سلمان الفارسى، وهى ترجع إلى صدر الإسلام:(٢)

"يا أخى، اغتنم صحتك وفراغك، قبل أن ينزل بك من البلاء مالا يستطيع العباد رده، واغتنم دعوة المبتلى. ويا أخى، ليكن المسجد بيتك، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن المساجد بيت كل تقى". وقد ضمن الله عز وجل لمن كانت المساجد بيوتهم بالروح والراحة والجواز على الصراط إلى رضوان الرب عز وجل. ويا أخى، ارحم اليتيم وأدنه منك، وأطعمه من طعامك، فإنى سمعت

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٤١ .

(٢) أبو نعيم الأصبهانى: حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول - وأتاه رجل يشتكى قساوة قلبه - فقال له رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "أتحب أن يلين قلبك؟ فقال: نعم. قال: أدن اليتيم منك، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، فإن ذلك يلين قلبك، وتقدر على حاجتك". ويا أخي، لا تجمع ما لا تستطيع شكره، فإني سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول: "يجاء بصاحب الدنيا يوم القيامة الذى أطاع ا لله تعالى فيها، وهو بين يدى ماله، وماله خلفه، كلما تكفأ به الصراط قال له ماله: "امض، فقد أديت الحق الذىعليك". قال: "ويجاء بالذى لم يطع ا لله فيه، وماله بين كتفيه، فيعثره ماله ويقول له: "ويلك، هلا عملت بطاعة ا لله عز وجل فى؟ فلا يزال كذلك حتى يدعو بالويل". ويا أخي، إنى حُدثت أنك اشتريت خادما، وإنى سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول: "لا يزال العبد من ا لله وهو منه، ما لم يُخدم، فإذا خُدم وجب عليه الحساب .." .

فإن لم تقتبس الرسائل نص الأحاديث، فإنها تقتبس منها أفكارها، بل ألفاظها أحيانا، وذلك أمر طبيعى لا ندهش لحدوثه. وقد رأيناه فى الرسائل السابقة وخاصة رسائل أبى الدرداء وسلمان الفارسي وعمر، ونراه فى رسالة سالم بن عبد ا لله بن عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبد العزيز[1] .

"أما بعد؛

فإن ا لله عز وجل خلق الدنيا لما أراد أن يخلقها له، فجعل لها مدة قصيرة، كأن ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار، ثم قضى عليها وعلى أهلها الفناء، فقال: "كل شئ هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون" .

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٨٥ .

ونرى خاصة أخرى فى الرسائل الطويلة، وهى القصص الوعظية، أو بالأحرى خيال الوعاظ الذين يصوررون ما يريدون من أفكار فى صور واقعية، يقول سالم بن عبد الله فى رسالته السابقة لعمر بن عبد العزيز :

"إن استطعت ألا تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة فافعل، فإنه قد كان قبلك رجال عملوا ما عملوا، وأحيوا ما أحبوا من الباطل، وأماتوا ما أماتوا من الحق، حتى ولد فى ذلك رجال ونشئوا فيه، وظنوا أنها السنة، فسدوا على الناس أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها بابا إلا فتح الله عليهم باب بلاء .. فإنهم (الموتى من خلفاء بنى أمية) قد عاينوا هول المطلع، وعالجوا نزع الموت الذى كانوا منه يفرون، فأنشقت بطونهم التى كانوا لا يشبعون بها، وانفقأت أعينهم التى كانت لا تنقطع لذاتها، واندقت رقابهم فى التراب غير موسدين، بعد ما تعلم من تظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم، فصاروا جيفا فى بطون الأراضى تحت مهادها، والله لو كانوا إلى جانب مسكين لتأذى بريحهم، بعد إنفاق ما لا يحصى عليهم وعلى خواصهم من الطيب" .

وتوجد هذه الظاهرة أيضا فى رسالة يونس بن عبيد إلى جعفر بن برقان، حين سأله كتابة: "يا أخى، اكتب إلى بما أنت عليه" . فكتب إليه يونس(١):

"أتانى كتابك تسألنى أن أكتب إليك بما أنا عليه، وأخبرك أنى عرضت على نفسى أن تحب للناس ما تحب لها، وتكره لهم ما تكره لها، فإذا هى من ذاك بعيد. ثم عرضت عليها مرة أخرى ترك ذكرهم إلا من خير، فوجدت الصوم فى اليوم الحار الشديد الحر، بالهواجر بالبصرة، أيسر عليها من ترك ذكرهم. هذا أمرى، يا أخى .

والسلام"

---

(١) أبو نعيم الأصبهانى: حلية الأولياء ٣ : ١٨ .

ونرى فى كثير من هذه الرسائل تكرارا لبعض الألفاظ، التى لها أهميتها الخاصة فى الدلالة على الانفعال والشعور الثائر، كما نرى فى رسالة عمر بن عبد العزيز السابقة إلى أحد إخوانه"[1]:

"يا أخى، إنك قد قطعت عظم السفر وبقى أقله، فاذكر، يا أخى، المصادر والموارد، فقد أوحى إلى نبيك صلى الله عليه وسلم فى القرآن أنك من أهل الورود ... يا أخى، إن أجلك قد دنا، فكن وصى نفسك .. " .

فهذا التكرار لكلمة "يا أخى" ومخاطبته بصيغة الخطاب، فيه مايشعر بحنان عمر ابن عبد العزيز عليه، وأنه يريد خيره بهذه النصيحة، وأنها صادرة عن قلب محب وفى، مما يجعل قارئها يتأثر بها سريعا، وذلك ما يأمله عمر، وتكرر هذه الكلمة نفسها فى رسالة سلمان الفارسى فى حلية الأولياء[2]:

ويظهر هذا التكرار أيضا فى رسالة الإمام العادل للحسن البصرى، يقول[3]:

"والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالراعى الشفيق على إبله، الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلكة .. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا .. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلا .. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين، وصى اليتامى، وخازن المساكين .. والإمام العدل، يا أمير المؤمنين .. ".

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٥٥ .

(٢) أبو نعيم الأصبهانى: حلية الأولياء ١ : ٢١٤ .

(٣) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٧٩ .

ويظهر هذا التكرار أيضا فى رسالة طاووس إلى عمر بن عبد العزيز التى يقول فيها[1]:

"سلام عليك يا أمير المؤمنين .

فإن الله عز وجل أنزل كتابا، وأحل فيه حلالا، وحرم فيه حراما، وضرب فيه أمثالا، وجعل بعضه محكما، وبعضه متشابها. فأحِل حلال الله، وحرم حرام الله، وتفكر فى أمثال الله، واعمل بمحكمه، وآمن بمتشابهه .

والسلام عليك"

فهو يؤكد كلمة "الله" و "الحلال" و "الحرام" وغيرها، ويكررها، ويضغط عليها ليغرى بالابتعاد عن حرام الله والأخذ بحلاله. وهذا الأسلوب شائع فى حلقات الوعظ، فى الكتابة أو الحديث. يتضح هذا فى حديث الحسن البصرى مع عمر بن هبيرة والى العراق حين سأل: أيطيع أوامر الخليفة ويعصى الله؟[2]:

"يا عمر بن هبيرة، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى، فظ، غليظ، لا يعصى الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك. ياعمر بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك (الخليفة) ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل. يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل فى طاعة يزيد بن عبد الملك .. يا عمر بن هبيرة. لقد أدركت ناسا .. يا عمر ابن هبيرة ..".

---

(١) نفس المرجع ٣٩١ .

(٢) أبو نعيم الأصبهانى: الحلية ٢ : ١٤٩ .

ويتضح هذا أيضا فى حديث عون بن عبد الله لنفسه فى بكائه[1]:

"ويحى، بأى شىء لم أعص ربى. ويحى، إنما عصيته بنعمته عندى، ويحى ..".

وآخر الأمر يوضح لنا القرآن ذاته أن الوعظ والنصح يستتبع التكرار فى بعض الألفاظ، ويظهر هذا فى تكرار كلمة "يا بنى" فى سورة لقمان فى أثناء النصح.

ويشيع فى هذه الرسائل أيضا الطباق الذى نجده فى رسالة الحسن إلى عمر التى يقول فيها[2]:

واعلم، يا أمير المؤمنين، أن الصبر - وإن أذاقك تعجيل مرارته - فلنِعْم ما أعقبك من طيب حلاله، وحسن عاقبته، وأن الهوى - وإن أذاقك طعم حلاوته - فبئس ما أعقبك من مرارته وسوء عاقبته".

ويظهر الطباق فى غيرها من الرسائل أيضا.

وهناك خصائص أخرى متناثرة لا نستطيع أن نحكم بعمومها فى جميع الرسائل لقلة المصادر مثل الاقتباس من الشعر، الذى نجده فى رسالة الحسن البصرى إلى عمر، التى يقول فيها[3]:

"والدنيا - وأيم الله، يا أمير المؤمنين - حلم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، والعباد فى أضغاث أحلام، وإنى قائل لك، يا أمير المؤمنين، ما قال الحكيم:

فإن تنج منها تنج من عظيمة   وإلا فإنى لا إخالك ناجيا

---

(١) نفس المرجع ٤ : ٢٥٥.

(٢) أحمد صفوت : الجمهرة ٢ : ٣٨٦.

(٣) نفس المرجع ٢ : ٣٨٥.

ومثل هذا اللعب اللفظى الفكرى، فى رسالة غيلان الدمشقى إلى عمر[1]:

"فهل وجدت، يا عمر، حكيما يعيب ما يصنع، أو يصنع ما يعيب، أو يعذب على ما قضى، أو يقضى بما يعذب عليه؟"، ومثل التفكير الصوفى فى رسالة الحسن إلى عمر التى يقول فيها[2]:

"أما بعد،

فإن رأس ما هو مُصلحك، ومصلَح به على يدك: الزهد فى الدنيا، وإنما الزهد باليقين، واليقين بالتفكر، والتفكر بالاعتبار. فإذا أنت تفكرت فى الدنيا لم تجدها أهلا أن تبيع بها نفسك، ووجدت نفسك أهلا أن تكرمها بهوان الدنيا، فإنما الدنيا دار بلاء، ومنزل غفلة" .

ولا يسود على هذه الرسائل تيار واحد من الإيجاز أو الإطناب، بل نجد رسائل موجزة غاية فى الإيجاز، مثل رسالة عمر بن عبد العزيز إلى بعض أهل بيته[3] .

"أما بعد؛

فإنك إن استشعرت ذكر الموت فى ليلك ونهارك بغض إليك كل فان وحبب إليك كل باق .

والسلام"

ونجد رسائل أخرى مسهبة تستغرق الصفحات، مثل الرسائل التى أشرنا إليها واقتبسنا منها من قبل.

---

(١) نفس المرجع ٣٩٣ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣٨٨ .

(٣) نفس المرجع ٣٥٦ .

وهناك ظاهرة جديرة بالعناية الشديدة لدلالتها على ارتقاء فن الوعظ فى ذلك العصر، الارتقاء البعيد، تلك الظاهرة هى تأليف الكتب الوعظية. فهذا أبو محمد ابن خير الوراق الأسبانى[١]، ينسب إلى وهب بن منبه المؤرخ المعروف المتوفى عام ١١٠هـ موعظة مدونة، وكتابا فى الحكمة، كما ينسب إليه ابن سعيد الكتاب الأخير[٢]. ولم يصل إلينا الكتابان كلاهما، ولكننا نظن أن كتاب الحكمة كتاب وعظى أيضا، بمعنى أنه يشتمل على الأقوال السائرة والأمثال والحكم التى تحاول إرشاد الإنسان وتسديد خطاه. وعلى الرغم من ضياع هذين الكتابين نجد بعض المواعظ والحكم المنسوبة لوهب فى الكتب المختلفة. ونحن إذا جمعنا هذه المواعظ وأحببنا التعرف على بعض خصائص وهب نجده متأثرا بالإسرائيليات تأثرا كبيرا. فهو قد قرأ الكتب المنزلة. وأخذ منها، كما يصرح قائلا: "وجدت فى بعض الكتب، أو قرأت فى بعض الكتب[٣]. وقد ذكر أحيانا اسم التوراة صراحة، فقال[٤]: قرأت فى التوراة أربعة أسطر متواليات من قرأ كتاب ا لله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات ا لله، ومن شكا مصيبة فإنما يشكو ربه، ومن أسف على ما فى يد غيره سخط قضاء ربه عز وجل، ومن تضعضع لغنى ذهب ثلثا دينه" .

ويغلب فى مواعظه ذكر أنبياء بنى إسرائيل وأحبارهم ورهبانهم، يقول[٥] :

"إن رجلا من بنى إسرائيل صام سبعين أسبوعا، يفطر فى كل سبعة أيام يوما،

---

(١) المكتبة الأندلسية ٦ : ١٢٩ ، ٢٩٤ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٧ : ٩٧ .

(٣) أبو نعيم الأصبهانى: الحلية ٤ : ٢٦ ، ٢٧، ٣٢، ٣٣، ٣٨ .

(٤) أبو نعيم الأصبهانى: الحلية ٤ : ٣٨ .

(٥) نفس المرجع ٣٢ .

وهو يسأل ا لله تعالى أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس. فلما أن طال ذلك عليه ولم يجب قال: "لو أقبلت على خطيئتى وعلى ذنبى، وما بينى وبين ربى لكان خيرا لى من هذا الأمر الذى أطلب" . فأرسل ا لله تعالى إليه ملكا فقال: "إن ا لله عز وجل أرسلنى إليك وهو يقول لك: إن كلامك هذا الذى تكلمت به أعجب إلى مما مضى من عبادتك، وقد فتح بصرك. قال: "فنظر، فإذا أحبولة لإبليس قد أحاطت بالأرض، وإذ ليس أحد من بنى آدم إلا وحوله شياطين مثل الذباب، فقال: أى رب، من ينجو من هذا؟" قال: "الورع اللين" .

وقد سيطرت الإسرائيليات على وهب فى كل مكان وزمان، حتى ليلقيها على سائليه فى الطريق. قال عطاء الخراسانى[1] : "لقيت وهب بن منبه فى الطريق فقلت: "حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى، وأوجز" . قال "أوحى ا لله إلى داوود: يا داوود، أما وعزتى وعظمتى لا يشعر بى عبد من عبادى دون خلقى، أعلم ذلك من نيته، فتكيده السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهم فرجا ومخرجا. أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى، أعلم ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات من يده، وأرضخت الأرض من تحته، ولا أبالى فى أى واد هلك" .

ويورد وهب فى مواعظه بعض الحكم والمواعظ العربية الأصل، يقول[2]

"قال لقمان لابنه: يا بنى اعقل عن ا لله، فإن أعقل الناس عن ا لله أحسنهم عقلا، وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكايده". ونضيف إلى ذلك

(١) نفس المرجع ٣٠ .

(٢) نفس المرجع ٢٥ .

النوع المواعظ الإسلامية الصبغة. وقد نرى فى هذا النوع العربى الأصل آثارا فارسية يقول[2]: قال لقمان لابنه: "يا بنى، إن مثل أهل الذكر والغفلة كمثل النور والظلمة" فالنور والظلمة آتيان من الفرس، ولكننا لانجد هذا الأثر كثيرا.

وهذه شذرات من مواعظه تمثل لنا هذه الخصائص. يقول[3]:

"إن الله عز وجل حين فرغ من خلقه، نظر إليهم حين مشوا علي وجه الأرض فقال: "أنا الله الذى لا إله إلا أنا، الذى خلقتك بقوتى، وأتقنتك بحكمتي، حق قضائى، ونافذ أمرى، أنا أعيدك كما خلقتك، وأفنيك بحكمتى، حتي أبقي وحدى، فإن الملك والخلود لا يحق إلا لى، أدعو خلقي، وأجمعهم لقضائى، يوم يخسر أعدائى، وتجل القلوب من خوفى، وتجف الأقلام من هيبتي، وتبرأ الآلهة ممن عبدها دونى".

ويقول[4]: "يا بن آدم، إنما جمعت من منافع هذا اليوم لدفع ضرر الجهالة عنك، وإن ما أوقدت فيه مصابيح الهدى ليته يجزيك .. يا بن آدم إنه لا أقوى من خالق، ولا أضعف من مخلوق، ولا أقدر ممن طلبته فى يده، ولا أضعف ممن هو فى يد طالبه. يا بن آدم، إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك وأقام معك ما سيذهب، فما الجزع مما لابد منه؟ وما الطمع فيما لا يرتجى؟ وما الحيلة في بقاء ما سيذهب؟ يا بن آدم .. يا بن آدم .. ؟" .

من هذه الفقرات المقتطفة من وهب، نرى أن أسلوبه فى القصص بسيط صريح لا يميل إلى تجويد أو تحبير، ولكنه يعنى بالتجويد في غير القصص، حتى ليسجع

(٢) نفس المرجع ٣٨ .

(٣) نفس المرجع ٣٤ .

(٤) نفس المرجع ٣٠ .

ويوازن فى العبارات، وتكاد تظهر فيه خصائص الرسائل الدينية الوعظية الكبيرة. ونرى عنده من تلك الخصائص القصص الخيالية، والتكرار وأسلوب الخطاب، إلى جانب السجع والموازنة .

الخلاصة :

وخلاصة الرأى إننا نرى هذه الرسائل الوعظية تجيش بالعاطفة الثائرة، التى تسوق كتابها إلى العناية بأسلوبها، فيخرج مختار الألفاظ عذبها، متوازن العبارات موسيقيها، مزدوجها أو مسجعها، وقد لبس وشيا من القرآن والحديث والشعر والتعابير المكررة، وغير ذلك من الحلى التى تكسب الأسلوب جمالا طبيعيا موسيقيا فى أغلبه. ولكن هذه الحلى، التى فيها الصنعة، لم تخرج بأسلوب هذه الرسائل إلى درجة التكلف، وإنما هى وحى الخاطر، ودفع العاطفة. وتخالف هذه الرسائل الإخوانيات فى ازدهارها وكثرتها فى عهد عمر بن عبد العزيز، الذى انتكست على يده الإخوانيات، وتخالف السياسيات والإخوانيات معا فى أنها سبقتهما إلى ميدان الفن والصنعة والجمال .

الفصل الثانى

الرسائل الجدلية

وجد فى هذا العصر نوع آخر من الرسائل الدينية لم أعثر إلا على أربع منها ولكن يستحب أن نفرده بالذكر، لانفراده ببعض الخصائص. هذا النوع هو الرسائل الدينية الجدلية، وأعنى بها الرسائل التى تجادل فريقا من الفرق الدينية، أو مذهبا خاصا من المذاهب الإسلامية .

الرسالة الأولى :

تنسب أولى هذه الرسائل إلى الحسن بن على بن أبى طالب، أرسلها إلى أهل البصرة يناقش فيها مشكلة القدر، قال[1]:

"من لم يؤمن با لله وقضائه وقدره فقد كفر، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر، إن ا لله لا يطاع استكراها، ولا يُعصى لغلبة، لأنه المليك لما ملّكهم والقادر على ما أقدرهم، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك. فلو أجبر ا لله الخلق على الطاعات لأسقط عنهم الثواب، ولو أجبرهم على المعاصى لأسقط عنهم العقاب، ولو أهملهم لكان عجزا فى القدرة. ولكن له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم .." .

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٥ .

ويرى الناظر فى هذه الرسالة أنها تبين وجهة نظر واحدة، وأعنى بذلك أنها تحاول إقامة الدليل على حرية الإرادة الإنسانية مع الإيمان بقضاء الله وقدره، دون التفات إلى الرأى المخالف، وتفنيد أقواله، ونقض أدلته. وإذن فهى ليست جدلية بالمعنى المعروف، ولذلك نرى فيها كثيرا من التحلية التى لم يكن يتحلى بها الأسلوب الجدلى فى ذلك العهد - كما نراه فى الرسائل التالية - مثل السجع الخفيف. ونرى فى أسلوبها سموا، وفى عباراتها إحكاما، وفى ألفاظها عناية واختيارا، لعلها أكثر مما يوجد فى الرسائل الجدلية الأخرى الآتية، ما عدا رسالة ابن عباس .

ونحن لا نستطيع أن نطمئن إلى صدق هذه الرسالة أو كذبها، إن الكلام عن مشكلة القدر يبدو أنه ظهر عند المسلمين فى زمن مبكر جدا. إذ أننا عندما نقرأ تراجم الصحابة والتابعين نرى هذه المشكلة شائعة فى أوائل عهد هؤلاء وأواخر عهد أولئك، مما يجعلنا نظن أنها كانت موجودة فعلا فى زمن الحسن. ولكن قد يؤدى بنا أسلوب الرسالة، أو السجعة الأولى منها، التى تبدو فى نظرى على الأقل - قلقة، إلى استنكارها، وخاصة أن أصحاب المذاهب فيما بعد كانوا يحاولون دعمها بالأقوال التى يضعونها على أفواه من سبقهم من الصحابة والتابعين، بل الرسول أيضا. ولكننا لا نستطيع الجزم بشىء، وإنما هو التردد والحيطة .

الرسالة الثانية :

وأما الرسالة الثانية فكتبها عبد الله بن عباس إل مجبِّرة الشام، قال[1]:

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٢٥ .

"أما بعد؛

أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون، وتنهون الناس عن المعاصى وبكم ظهر العاصون؟ يا أبناء سلف المقاتلين، وأعوان الظالمين، وعمار مساجد الفاسقين، وخزان سلف الشياطين. هل منكم إلا مفتر على الله يحمل أجرامه عليه، وينسبها علانية إليه .. ".

ويرى قارئ هذه الرسالة منذ النظرة الأولى ذلك السجع الغالب عليها، الذى قد تخلى مكانه فى آخرها للازدواج، ويرى فيها الجمل متوازنة توازنا موسيقيا نتيجة ترادفها. ويرى الرسالة خالية من الجدل والنقاش بالرأى أو الدليل، وإنما هى سب وشتم وتقبيح لأعمالهم دون محاولة لإقناعهم ببطلانها. وتلك هى جملة خصائص هذه الرسالة التى نرى فيها صنعة وعناية وفنا، وهى خصائص تبعدها كل البعد عن الرسالة السابقة، بل تجعلها نسيج وحدها كما سنرى بعد.

الرسالة الثالثة :

ونرى الأسلوب الجدلى الحق، حين ننظر فى الرسالة الثالثة، التى أرسلها الحسن البصرى، أستاذ واصل بن عطاء رأس المعتزلة، إلى عبد الملك بن مروان، عن طريق الحجاج، يعرفه فيها برأيه فى القدر[1]. ويبدأ الحسن رسالته ببيان مسلك الصحابة وعدم خوضهم فى هذه المشكلة، وأنه ما دفعه إلى الكلام فيها إلا خوض الناس وإنكارهم للقدر، فيقول بعد السلام والحمد والدعاء لأمير المؤمنين:

"وقد أدركنا، يا أمير المؤمنين، السلف الذين عملوا بأمر الله، ورووا حكمته، واستنوا بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فكانوا لا ينكرون حقا، ولا يحقون

---

(١) نفس المرجع ٢٦٨. ورسالة الحسن البصرى، مخطوطة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢٢١ أدب .

باطلا، ولا يلحقون بالرب تبارك وتعالى إلا ما ألحق بنفسه، ولا يحتجون إلا بما احتج الله به على خلقه فى كتابه. فإن الله تبارك وتعالى يقول، وقوله الحق: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون". فأمرهم الله بعبادته التى لها خلقهم، ولم يكن ليخلقهم لأمر ثم يحول بينهم وبينه، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد . ولم يكن أحد من السلف ينكر هذا القول، ولا يجادل فيه، لأنهم كانوا على أمر واحد متفقين .. وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس النكرة له، فلما أحدث المحدثون فى دينهم ما أحدثوه، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يبطلون به المحدثات، ويحذرون به من المهلكات". ثم يأخذ الحسن فى تفنيد أقوالهم بالآيات القرآنية، فيقول:

"فافهم أيها الأمير ما أقوله، فإن ما ينهى الله عنه فليس منه، لأنه لا يرضى ما يسخطه من العباد، لأنه تعالى: يقول: "ولا يرضى لعباده الكفر". فلو كان الكفر من قضائه وقدره لرضى عمن عمله .

"ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لمتقدم حمد لما عمل، ولاعلى متأخر لوم، وقال تعالى: "جزاء بما عملت أيديهم" ولم يقل: "جزاء بما كانوا يعملون" .

"إن أهل الجهل قالوا: "إن الله يضل من يشاء، ويهدى من يشاء". ولو نظروا إلى ما قبل الآية وما بعدها، لتبين لهم أن الله تعالى لا يضل إلا بتقدم الفسق والكفر لقوله تعالى: ﴿ويضل الله الظالمين﴾ أى يحكم بضلالهم" .

ويستمر الحسن على هذا المنوال من تفنيد آرائهم بالأدلة القرآنية .

وهكذا لا نجد فى هذه الرسالة شتما أو سبا، غير تسميته للمخالفين بأهل الجهل والمخطئين والمخالفين لكتاب الله. ولكن كل هذا لا يعادل ما فى رسالة ابن

عباس القائمة على هذا النوع من القول. وإنما نجد فيها أسلوبا جدليا بسيطا جميلا، يعتمد على الأدلة والبراهين المأخوذة من الآيات القرآنية. وهى تقارب رسالة الحسن ابن علىّ إلا أن الحسن البصرى يعتمد على الأدلة القرآنية على حين يعتمد الحسن ابن علىّ على الأدلة العقلية، ولا يستشهد فى رسالته بشىء من القرآن .

الرسالة الرابعة:

وأخيرا نصل إلى الرسالة الرابعة التى تتناول مشكلة القدر أيضا، وذلك مما يؤكد قول بعض العلماء الذين يذهبون إلى أن الكلاميين الأمويين كان جل همهم، إن لم يكن كله، منصبا على هذه المشكلة وحدها. وقد كتب هذه الرسالة عمر بن عبد العزيز إلى نفر كذبوا بالقدر، فقال[1]:

"أما بعد؛

فإنكم كتبتم إلىّ بما كنتم تستترون منه قبل اليوم، فى رد علم الله والخروج منه إلى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف على أمته من التكذيب بالقدر. وقد علمتم أن أهل السنة كانوا يقولون: "الاعتصام بالسنة نجاة، وسيقبض العلم قبضا سريعا" . وقول عمر بن الخطاب وهو يعظ الناس: "إنه لا عذر لأحد عند الله بعد البينة بضلالة ركبها حسبها هدى، ولا فى هدى تركه حسبه ضلالة، قد تبينت الأمور، وثبتت الحجة، وانقطع العذر .. " .

ثم يأخذ فى مناقشتهم، مبتعدا عن الشتم، ومستعينا بالأدلة القرآنية:

"وإنكم ذكرتم أنه بلغكم أنى أقول: "إن الله قد علم ما العباد عاملون، وإلام

(١) أبو نعيم الأصبهانى: حلية الأولياء ٥ : ٣٤٦ .

هم صائرون"، فأنكرتم ذلك على، وقلتم: "إنه ليس يكون ذلك من ا لله فى علم، حتى يكون ذاك من الخلق عملا". فكيف ذلك كما قلتم، وا لله تعالى يقول: "إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون" يعنى عائدين فى الكفر، وقال تعالى: "ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنهم لكاذبون" .

ويناقشهم أيضا بالأدلة العقلية مع القرآنية - فيقول:

"فزعمتم بجهلكم فى قول ا لله تعالىٰ "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" أن المشيئة في أى ذلك أحببتم فعلتم، من ضلالة أو هدى، وا لله تعالى يقول: "وما تشاؤون إلا أن يشاء ا لله رب العالمين" فبمشيئة ا لله لهم شاءوا، ولم لم يشأ لم ينالوا بمشيئتهم من طاعته شيئا قولا ولا عملا، لأن ا لله تعالى لم يملك العباد ما بيده ولم يفوض إليهم ما يمنعه من رسله، فقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعا، فما اهتدى منهم إلا من هداه ا لله، ولقد حرص إبليس على ضلالتهم جميعا، فما ضل منهم إلا من كان فى علم ا لله ضالا".

ويظهر الجدل العقلى فى قوله أيضا:

"وزعمتم بجهلكم أن علم ا لله تعالى ليس بالذى يضطر العباد إلى ما عملوا من معصيته، ولا بالذى صدهم عما تركوه من طاعته، ولكنه بزعمكم "كما علم ا لله أنهم سيعملون بمعصيته، كذلك علم أنهم سيستطيعون تركها" فجعلتم علم ا لله لغوا، تقولون: "لو شاء العبد لعمل بطاعة ا لله، وإن كان فى علم ا لله أنه غير عامل بها، ولو شاء ترك معصيته، وإن كان فى علم ا لله أنه غير تارك لها". فأنتم إذا شئتم أصبتموه، وكان علما، وإذا شئتم رددتموه، وكان جهلا. وإن شئتم أحدثتم من أنفسكم علما ليس فى علم ا لله، وقطعتم به علم ا لله" .

ولا يكتفى بالأدلة القرآنية والعقلية، بل يستنبط الأدلة أيضا من الأخبار والآثار يقول:

"إن الله لم يجعل فضله ورحمته عملا بغير قسم منه ولا اختيار، ولم يبعث رسله بإبطال ما كان فى سابق علمه .. فسميتم نفاذ علم الله فى الخلق حيفا. وقد جاء الخبر "إن الله خلق آدم، فنثر ذريته فى يده، فكتب أهل الجنة وما هم عاملون، وكتب أهل النار وما هم عاملون" .

وإذا ما نظرنا فى الصياغة الأدبية لهذه الرسالة، وجدنا أسلوبها بسيطا يجرى دون تكلف أو تجمل، فهى جدل عادى صريح، وأما رسالة الحسن البصرى فأسمى منها أسلوبا، وأكثر منها عناية بالألفاظ واختيارها. وقد كان ذلك شأن الحسن وعمر أيضا فى النوع الأول من الرسائل الدينية والرسائل الإخوانية .

الخلاصة

وصفوة القول إننا نرى هذه الرسائل جميعها تتناول مشكلة القدر(١)، كما نرى ثلاثا منها تؤيد حرية الإرادة الإنسانية، وهى رسائل الحسن بن على وابن عباس والحسن البصرى. فأما رسالة ابن عباس فيمكن إغضاء النظر عنها، وإلحاقها بالنوع الأول من الرسائل الدينية، لأنها ليست من الجدليات فى شيء. وأما رسالة الحسن ابن على فهى جدلية تمتاز بكشف النقاب عن رأى صاحبها، والتدليل العقلى عليه، دون أدنى نظر إلى الآراء المخالفة له. وأما رسالة الحسن البصرى ففيها الجدل والنقاش، وإن كانت أدلتها كلها مأخوذة من القرآن. والرسالة الرابعة، رسالة عمر ابن عبد العزيز، تميل إلى الحد من الإرادة الإنسانية، وهى تمثل القمة فى الأسلوب

---

(١) ينسب ياقوت كتابا فى هذه المشكلة إلى وهب بن منبه المتوفى عام ١١٠هـ والذى كان يقول بالقدر ثم رجع عن ذلك. ولم يصل إلينا هذا الكتاب، ولا أية شذرات منه لنستطيع استنباط خصائصه، وإن كنا نظن أنه لا يعدو أن يكون رسالة صغيرة تتمتع بما تمتعت به كتابات وهب الأخرى .

الجدلى الأموى من حيث استخدام جميع أنواع الأدلة مـن قرآنيـة وعقليـة وأخباريـة.
وأما جمال الأسلوب فيتوفر فى رسالتى الحسنين أكثر مما فى رسالة عمر .

الباب الرابع

الكُتّاب

الفصل الأول

حلقة سالم

لعلنا الآن نستطيع أن نتصور أنواع كتابة الرسائل تصورا صحيحا واضحا، ولسنا بحاجة إلا إلى معرفة بعض الأعلام البارزين، حتى تمثُل الصورة أمام أعيننا كاملة شاملة. وقد ورد فى أثناء الحديث بعض أسماء، ولكن المراجع الخاصة بهم ناقصة قليلة، لا تمدنا بالمواد التى يستطاع تصوير شخصية حية منها. كما أننا رأينا كتابة الرسائل تتخذ صورتها النهائية عند جماعة الموالى الذين رأسوا ديوان الرسائل منذ عهد هشام، وأعنى بهم سالما مولى هشام وتلاميذه، ولذلك نخصهم بالدراسة هنا. وعلى الرغم من ذلك لم يصل إلينا من أخبار سالم إلا القليل الذى لا يمكننا من معرفته معرفة واضحة .

سالم :

هو سالم أبو العلاء، مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه، وختن عبد الحميد بن يحيى الكاتب وأستاذه. ويعده ابن النديم أحد الفصحاء البلغاء[١]، أو أحد البلغاء العشرة الأول عند العرب[٢]. وكان يعرف اللغة اليونانية، وترجم منها بعض رسائل أرسطو إلى تلميذه الإسكندر المقدونى[٣]. وذكر ابن النديم أن رسائله جمعت فى مجلد يبلغ مئة

---

(١) ابن النديم: الفهرست ١١٧ .

(٢) نفس المرجع ١٢٦ .

(٣) نفس المرجع ١٧ .

ورقة[1]، ولكن مما يؤسف له أن هذا المجلد قد ضاع، ولم يصل إلينا من سالم غير رسالتين إخوانيتين قصيرتين. ومن الطبيعى أننا لا نستطيع أن نحكم على كاتب من رسالتين، وخاصة أن كلا منهما لا تزيد على ثلاثة أسطر. وقد تناولنا إحداهما من قبل، ونحاول هنا أن نتبين مزايا الأخرى .

رسائل سالم :

كتب إلى أحد إخوانه يعتذر[2]:

"أمتعك الله وأمتع بك، لولا أنه إذا ضاق علىّ المخرج لك، وسعك عذرى، بسطت لسان لائمتى فى تركك لائمتى فيما خالف هواك" .

ونرى فى مفتتحها لعبا بالألفاظ، ونجده يفكر فى طريقة الاعتذار قبل تدوينه وكيف يأتى بالجديد المبدع حتى لا يكون اعتذارا عاديا بسيطا. ولعل هذا يشعرنا بأنه كان يتروى أيضا فى ألفاظه وأساليبه، ويحاول أن يجدد فيها.

ويورد الطبرى[3] رسالة مجهولة المؤلف، صادرة من ديوان هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسرى والى العراق. ونحن نناقشها هنا، لأنها توضح الخصائص التى كانت تتجلى بها دائرة الكتاب المحيطة بهشام، والتى كانت تتألف من سالم وتلاميذه، وربما كانت الرسالة صادرة من سالم نفسه، كما يرجح أستاذى الدكتور شوقى ضيف[4]. ذكر الطبرى أن ابن عمرو بن سعيد بن العاص دخل على خالد القسرى فاستخف به وعضه بلسانه، فشكاه ابن عمرو إلى هشام، فأرسل إليه

---

(١) نفس المرجع ١٧ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٣١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٢ : ١٦٤٢ .

(٤) الدكتور شوقى ضيف: الفن ومذاهبه فى النثر العربى ٣٨ : ٤١ .

هذه الرسالة يوبخه فيها، قال :

"أما بعد؛

فإن أمير المؤمنين – وإن كان أطلق لك يدك ورأيك فيمن استرعاك أمره، واستحفظك عليه، للذى رجا من كفايتك، ووثق به من حسن تدبيرك – لم يفرشك غرة أهل بيته، لتطأه بقدمك، ولا تحد إليه بصرك، فكيف بك وقد بسطت على غرتهم بالعراق لسانك بالتوبيخ؟! تريد بذلك تصغير خطره واحتقار قدره .. " .

والرسالة طويلة تستطيع أن تعطينا شيئا من تلك المزايا والخصائص التى نريدها. ولعل أول ما لاحظنا على الفقرة التى ذكرتها سابقا، ذلك الاعتراض الطويل الذى يندر أن نرى مثله فى الأسلوب العربى الخالص، وإنما نراه فى الأساليب الفارسية واليونانية. ثم إننا إذا دققنا النظر فى الرسالة وجدنا فيها ميلا ظاهرا للسير حسب المنطق والعقل، ولعل ذلك من تأثير أرسطو فى هذه الدائرة.. ويظهر لنا هذا الميل فى سيرها الطبيعى المتسلسل فى أفكارها، وفى ميلها لتوضيح كل معنى تأتى به. وقد أدى ذلك إلى كثرة استعمال الحال فيها، كثرة لا نراها فى الرسائل الأخرى، اللهم إلا رسائل حلبة هشام، تقول:

"زعمت بالنصفة منه، حتى أخرجك ذلك إلى الإغلاظ فى اللفظ عليه فى مجلس العامة، غير متحلل له – حين رأيته مقبلا – عن صدر مهادك، الذى مهد له الله، وفى قومك من يعلوك بحسبك، ويغمرك بأوليته، فنلت مهادك بما رفع به آل عمرو من ضعتك خاصة، مساوين بك فروع غرر القبائل وقرومها قبل أمير المؤمنين، حتى حللت هضبة أصبحت تنحو بها عليهم مفتخرا، هذا إن لم يدهده عنك قلة شكرك متحطما وقيذا، فهلا – يا ابن مجرشة قومك – أعظمت رجلهم بليك داخلا، ووسعت مجلسه إذ رأيته إليك مقبلا، وتجافيت له عن صدر فراشك مكرما،

ثم فاوضته مقبلا عليه ببشرك إكراما لأمير المؤمنين، فإذا اطمأن به مجلسه نازعته بحَيِّ السِّرار، معظما لقرابته، عارفا لحقه"[1] .

وقد أدى إكثاره من استعمال الحال ببعض الباحثين إلى القول بأن سالما كان على اتصال باللغة اليونانية، التي يستعمل فيها الحال للتوضيح والتدقيق استعمال سالم وحلبته له. ومن مظاهر ميل هذه الرسالة للتوضيح تدقيقها فى ذكر الأسباب والعلل فى كل خطواتها، فالكاتب يذكر خالدا بأمر من الأمور، ثم يورد سبب هذا الأمر، وهلم جرا. ولذلك يكثر فيها أسلوب العلة، ذكر لام التعليل وفاء السببية وما إلى ذلك، مما يبدو فى الفقرتين اللتين ذكرتهما وفى غيرهما من الفقرات. وكان هذا الميل للوضوح والدقة سببا فى إطنابها، وتكرار بعض عباراتها، مع تغيير الألفاظ، فأدى ذلك – مع العناية الظاهرة فيها بالألفاظ – إلى توازن الجمل، وتلاؤم موسيقى العبارات. ومن الخصائص التى تتناثر فيها السجع الخفيف القليل، بل النادر، كما تمتاز بتقابل الألفاظ فى العبارات المتجاورة وتآلفها .

عبد الله بن سالم

ويبدو أن سالما بث خصائصه فى تلاميذه حتى غلبت عليهم، نرى ذلك عند ابنه عبد الله وتلميذه عبد الحميد. وقد وصلنا من عبد الله بن سالم رسالة على لسان هشام بن عبد الملك لخالد بن عبد الله القسرى، يلومه لضربه سهيل ابن حسان النبطى وإفراطه فى الدالة على هشام[2] ، يقول :

(١) تنحو هنا: أى تشرف وتطل. ويدهده: يدحرج. والوقيذ: الصريع. والمجرشة: الماشطة. والسرار: المسارة .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٤٠٢ ، المبرد: الكامل ٢ : ٢٩٧، وانظر التشابه بين هذه الرسالة وسابقتها .

"بسم ا لله الرحمن الرحيم

أما بعد؛

فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر، لم يحتمله لك إلا لما أحب من رب الصنيعة قِبلك، واستتمام معروفه عندك. وكان أمير المؤمنين أحق من استصلح ما فسد عليه منك، فإن تعد لمثل مقالتك، وما بلغ أمير المؤمنين عنك، رأى في معالجتك بالعقوبة رأيه. إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرته، فأساء حمل الكرامة، واستقل العافية، ونسب ما في يديه إلى حيلته، وحسبه، وبيته، ورهطه وعشيرته. فإذا نزلت به الغير، وانكشفت عنه عماية الغي والسلطان، ذل منقادا وندم حسيرا، وتمكن منه عدوه قادراً عليه، قاهرا له .. وتوجيهك أخاك أسدا إلى خراسان مظهرا العصبية بها، متحاملا على هذا الحي من مضر، قد أتت أمير المؤمنين - بتصغيره بهم، واحتقاره لهم، وركوبه إياهم - الثقات" .

ونرى في هذه الرسالة إطنابا بتكرار المعنى الواحد في الجملة والجملتين، وتكرار الألفاظ المترادفة، وتأكيد معنى الجملة الأولى بما يقرب من معناها في الجملة الثانية. ويبرز فيها الحال قريبا من بروزه في الرسالة الأولى. ونستطيع أن نوجز، فنقول إن روح الرسالتين متقارب، مما يجعلنا نميل إلى أن خصائص الرسالتين كانت تتحلى بها مدرسة سالم كلها. ولعل سالما بث في تلاميذه أسلوبه الكتابي وحبه للثقافة اليونانية، وربما وجههم جميعا إلى تعلمها، فظهر هذا الأثر واضحا جليا فيهم.

الفصل الثانى

عبد الحميد بن يحيى

يعتبر عبد الحميد بن يحيى مولى الأمويين أو العامريين أشهر كتاب العصر الأموى. وتكثر الأخبار المضطربة التى يناقض بعضها بعضا عن عبد الحميد، منذ ولادته حتى مماته. ولكننا لا نتعرض لكل هذه الأقوال التى تخبط فى دياجير الظلام ونكتفى بما تكاد تجمع عليه الروايات. فهو من أصل فارسى[١]، من الأنبار ثم سكن الرقة[٢]، واشتغل فى أول أمره بتعليم الصبيان، وأخذ يتنقل فى البلدان المختلفة[٣]، ثم التحق بديوان الرسائل فى عهد هشام بن عبد الملك فى الغالب، وتلمذ لرئيسه وختنه سالم[٤]. وأخيرا صار كاتب مروان بن محمد قبل أن يتولى الخلافة أيام ولايته على أرمينية. فلما تولى الخلافة تقلد رياسة الديوان له وبقى مخلصا وفيا له، حتى قتلا معا فى بلدة بوصير بمصر[٥] .

ويبدو أن عبد الحميد كان مرضى الأخلاق، وفيا كريما، ذا مروءة ورأى، حتى كثرت حوله الأقاصيص الصحيحة والموضوعة. يقول الجهشيارى[٦]: "ولما قوى أمر

---

(١) الاصطخرى: مسالك الممالك ١٤٥ .

(٢) ابن خلكان: الوفيات ١ : ٣٠٧ .

(٣) نفس المرجع، وابن النديم: الفهرست ١٧ .

(٤) ابن خلكان: نفس الموضع. والجهشيارى: الوزراء والكتاب ٦٢ .

(٥) ابن خلكان: نفس الموضع. أما الروايات الأخرى القائلة بهروبه فى الجزيرة أو غيرها، وقتله هناك، فلا تقوم على دعامة قوية، وإنما مات عبد الحميد فى مصر، بدليل أنه كان له عقب بها، لم يكن فى أوائلهم ذو نباهة، ولكن لما جاء أحمد بن طولون إلى مصر، اتصل به أربعة نفر من ولده يعرفون ببنى المهاجر، وإن كان ارتفاع نجمهم لم يستمر طويلا (الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٨٢) .

(٦) نفس المرجع ٧٩ . والمسعودى: مروج الذهب ٣ : ١٧٨ .

بنى العباس وظهر، قال مروان لعبد الحميد: "إنا نجد فى الكتب أن هذا الأمر زائل عنا لامحالة، وسيضطر إليك هؤلاء القوم - يعنى ولد العباس - فصر إليهم. فإنى أرجو أن تتمكن منهم فتنفعنى فى مخلّفى، وفى كثير من أسبابى. فقال له: وكيف لى بأن يعلم الناس جميعا أن هذا عن رأيك، وكلهم يقول: إنى غدرت وصرت إلى عدوك" . وأنشد :

أسر وفاء ثم أظهر غدرة   فمن لى بعذر يوسع الناس ظاهره؟

وأنشد أيضا:

فذنبى ظاهر لا عيب فيه   للائمه وعذرى بالمغيب

فلما سمع ذلك مروان علم أنه لا يفعل. ثم قال له عبد الحميد: "الذى أمرتنى به أنفع الأمرين لك، وأقبحهما بى، لك على الصبر معك إلى أن يفتح الله عليك أو أقتل معك" .

رسائل عبد الحميد: رسالة إلى الكتاب

علينا الآن أن نقف عند بعض رسائل عبد الحميد قليلا، لنتملى من خصائصه وتبرز أمامنا مزاياه. والرسالة الأولى التى أحب الكلام عنها رسالته إلى الكتاب[1]. وهى تقع فى قريب من أربع صفحات من كتاب صبح الأعشى. ويرمى فيها عبد الحميد إلى تبليغ الكتاب ما يحتاجون إليه من ثقافة، ومن أخلاق، ولذلك تزخر بالوصايا والنصائح. وقد اكتسبت أهمية خاصة حتى صارت دستورا يرجع إليه الكتاب ليستوحوها، ويتحلوا بفضائلها.

---

(١) احمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٤٣ .

يبدأ عبدالحميد رسالته بمخاطبة الكتاب، ويبين لهم أن ا لله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات ا لله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرمين، أصنافا وأنه جعل "معشر الكتاب فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءة، والعلم والرواية" .

ثم يبين حاجتهم "إلى اجتماع خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة .. فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره: أن يكون حليما فى موضع الحلم، فهيما فى موضع الحكم، مقداما فى موضع الإقدام، محجاما فى موضع الإحجام .. قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به" إلى آخر الصفات المحمودة التى يرى أنه ينبغى أن يتصفوا بها .

ثم يذكر لهم العلوم والآداب التى يجب أن يعرفوها ويتنافسوا فيها، فيقول: "وتفقهوا فى الدين، وابدءوا بعلم كتاب ا لله عز وجل، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر فى الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج" .

ويسمو بهم على الرذائل، والأخلاق الذميمة، فينصحهم :

"وارغبوا بأنفسكم عن المطامع، سنيها ودنيها، وسفساف الأمور ومحاقرها فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب. ونزهوا صناعتكم عن الدناءات، واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات. وإياكم والكبر والصلف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة" .

ويحضهم على التحاب والتعاون فيما بينهم، فإن "نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه، حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره. وإن أقعد أحدكم الكبر فى مكسبه ولقاء إخوته، فزوروه، وعظموه، وشاوروه" .

ويحثهم على الوفاء لأوليائهم وساداتهم، والإخلاص لهم، "فإن الرجل منكم إذا صحبه الرجل (الخليفة أو الأمير) يبذل له من نفسه، ما يجب له عليه من حقه، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره، واحتماله وصبره ونصيحته، وكتمان سره، وتدبير أمره، ما هو جزاء لحقه" .

وآخر الأمر يشرح لهم ما يجب عليهم من حسن السياسة وبعد النظر حين ولايتهم "فإذا ولى الرجل منكم، أو صير إليه من أمر خلق ا لله وعياله أمر، فليراقب ا لله عز وجل، وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقا، وللمظلوم منصفا. فإن الخلق عيال ا لله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله، ثم ليكن بالعدل حاكما، وللأشراف مكرماً، وللفيء موفرا، وللبلاد عامرا، وللرعية متألفا، وعن إيذائهم متخلفا. وليكن فى مجلسه متواضعا حليما، وفى سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقا" .

"وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح، بألطف حيلة، وأحلم وسيلة. وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها. فإن كانت رموحا لم يهجها إذا ركبها، وإن كانت شبوبا اتقاها من قبل يديها، وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونا قمع برفق هواها فى طريقها، فإن استمرت عطفها يسيرا، فيسلس له قيادها. وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم، وجربهم وداخلهم" .

ويستمر فى تبيين السياسة التى يجب اتباعها من الاعتدال وتجنب السرف:

"ولا يجاوزن الرجل منكم - في هيئة مجلسه، وملبسه، ومركبه، ومطعمه، ومشربه، وبنائه، وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره - قدر حقه، واستعينوا في عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم، وقصصته عليكم، واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلهما" .

ثم ينبههم إلى تجنب الإكثار من الكلام والوصف :

"واعلموا أن للتدبير آفة متلفة، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورويته. فليقصد الرجل منكم مجلسه قصد الكافي من منطقه، وليوجز في ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله، ومدفعة للتشاغل عن إكثاره".

ويختم الرسالة بالإشارة إلى التواضع وعدم الغرور:

"ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور، وأحمل لعبء التدبير، من مرافقه في صناعته، ومصاحبه في خدمته. فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب من رمى بالعُجب وراء ظهره، ورأى أن صاحبه أعقل منه، وأحمد في طريقته .

"وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل "من يلزم النصيحة يلزمه العمل"، وهو جوهر هذا الكتاب، وغرة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل. فلذلك جعلته آخره، وتممته به، تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته" .

ولعل هذه الرسالة لا تكشف عن كثير من خصائص عبد الحميد الأسلوبية على الرغم من أنها تظهر فيها عنايته الفائقة بألفاظه، وأنه كان أحيانا يأتي بالسجع الجميل غير المتكلف، يقول:

"بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح ا لله للخلق سلطانهم، وتعمر بلادهم. لا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم. فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون. وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطشون، فأمتعكم ا لله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم" .

كما تظهر فيها موسيقية أسلوبه وجمال عباراته .

ولكن الرسالة إذا كانت فقيرة فى هذه الناحية فإنها تكشف لنا عن نواح أخرى هامة فى شخصية عبد الحميد. فنحن عندما ننظر إليه، وهو يصف سياسة الدابة الرموح والشبوب والشرود والحرون، رامزا بذلك إلى سياسة الكاتب للحاكم، ندرك تمام الإدراك قوة عبد الحميد فى الوصف، وحبه للتصوير، ومقدرته على إبراز الموصوف أجمل إبراز .

وتكشف الرسالة أيضا عن تأثر عبد الحميد بالثقافات والنظم الفارسية. يظهر ذلك واضحا فى الآداب التى يوصى الكتاب بالتزامها. ويكفينا لمعرفة ذلك أن ننظر إلى ما كان يقول كشتاسب لكتابه(١): "الزموا العفاف، وأدوا الأمانة فى كل ما يفوض إليكم، واجمعوا على غرائزكم وعقولكم سماع الأدب بما طبعت عليه عقولكم، وليكن اجتباؤكم بالقسط والمعدلة، ولا تزينوا لنا مالا تليق بنا الأحدوثة به، والإيثار له" ، وأن ننظر إلى ما قاله أبرويز لوزيره(٢) :

"اكتم السر، واصدق الحديث، واجتهد فى النصيحة، واحترس بالحذر" .

---

(١) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٨ .

(٢) نفس المرجع ٨ .

ولكن هذه الرسالة ذات أهمية كبيرة فـي نظـر دارس الأدب العربـى، وخاصـة حركة التأليف. فهذه الرسالة تشمل – كما ظهـر لنـا – جـل، إن لم يكـن كـل، مـا يطلب من الكتاب، كأنما تضع القوانين التـى يجـب أن تسـود علـى ديـوان الرسـائل ويخضع لها من يريدون دخوله. فهى ترسم لهم الآداب الخلقية التـى يجـب أن يتحلـوا بها، ثم ترسم لهم الآداب الثقافية، فتقسمها إلى ثقافة خاصة بالدين والفقه والتـاريخ والحساب. وقد أثرت هذه النظرية فى المؤلفين بعـد عبـد الحميـد. فمنهـم مـن أخـذ فرعا من هذه الثقافة فألف فيه، مثل ابن قتيبة الذى تناول الناحية اللغويـة فـى "أدب الكاتب"، ومنهم من تناول الثقافة الخاصة، مثل الصولى فى "أدب الكتاب"، ومنهـم من تناول الثقافتين العامة والخاصة، مثل النويرى فى "نهاية الأرب فى فنون الأدب"، ومنهم من تنـاول الآداب الثقافيـة والآداب الأخلاقيـة جميعـا، مثـل القلقشـندى فـى "صبح الأعشى فى صناعة الإنشا". ويصـرح القلقشـندى فـى الفصـل الـذى عقـده لآداب الكتاب الخلقية فيقول[٢]: "أصل هـذه الآداب الـذى ترجـع إليـه، وينبوعهـا الذى تفجرت منه، رسالة عبد الحميـد بـن يحيـى الكـاتب، التـى كتبهـا إلى الكتـاب يوصيهم فيها". ولكنا نقول إن هذه الرسالة ينبوع هذا الفصل، والفصـول الأخـرى الباقية فى كتابه، أعنى ينبوع جميع ما احتوته تلك الكتب التى ألفها الأدباء فى بيـان ما يحتاج إليه الكتاب، وإن كانوا فى الحقيقة أصابوا بعض العلوم التـى لم يفكـر فيهـا عبد الحميد، مثل الجغرافية والفلك وغيرها، ولكن كل تلك العلوم كانت مـن إيحـاء عبد الحميد أيضا.

---

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ١ : ٨٥ .

رسالة ولى العهد

وكتب عبد الحميد رسالة عن مروان بن محمد إلى ابنه عبد الله، حين وجهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى[1]. وهى تقع فى قريب من أربعين صفحة من كتاب "صبح الأعشى"، ولذلك نجد خصائص عبد الحميد تنبسط فيها وتنتشر، فتظهر واضحة ماثلة. وعبد الحميد فى هذه الرسالة ذو تفكير منظم منطقى، يقسم كلامه فقرات منفصلة، كل منها يؤدى فكرة منفصلة عن الأخرى، وإن جمع هذه الأفكار السياق العام. فنراه يبدأ بمقدمة يبين فيها غرض الرسالة وما يتعلق به، ثم يقسم الرسالة إلى قسمين كبيرين: يتناول الأول الآداب والأخلاق التى يجب أن يتحلى بها ولى العهد فى سيرته عامة، ويتناول الثانى سياسة ولى العهد فى الجيش وتنظيمه. ثم يأخذ القسم الأول فيقسمه قسمين: يعالج الأول منهما آداب ولى العهد وعاداته، ويعالج الثانى آدابه فى حاشيته، وآداب الحاشية ذاتها. وكذلك يقسم القسم الثانى إلى جزءين: الأول منهما فى سياسة الجيش العامة، والثانى فى تنظيمه الداخلى .

تبدأ المقدمة بقوله :

"أما بعد؛

فإن أمير المؤمنين – عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الجلف الجافى الأعرابى المتسكع فى حيرة الجهالة، وظلم الفتنة، ومهاوى الهلكة، ورعاعه الذين عاثوا فى أرض الله فسادا، وانتهكوا حرمة الإسلام استخفافا، وبدلوا نعم الله

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٤٧٣ ، وابن طيفور: اختيار المنظوم والمنثور ١٢ : ٢٠١ والقلقشندى: صبح الأعشى ١٠ : ١٩٥ .

كفرا، واستحلا دماء أهل سلمه جهلا - أحب أن يعهد إليك فى لطائف أمورك، وعوام شئونك، ودخائل أحوالك، ومصطرف تنقلك، عهدا يحملك فيه أدبه، ويشرع لك به عظته، وإن كنت - والحمد لله - من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد، مختصا لك بذلك دون لحمتك وبنى أبيك" .

وتظهر فى هذه الفقرة تلك الموسيقى التى يؤلفها استعمال عبد الحميد للمفعول المطلق والمفعول لأجله "فسادا، واستخفافا، وكفرا، وجهلا" فى آخر كل جملة، وتلك الأضواء التى تشع من هذه الألفاظ فتميز أركان العبارات، وتسبغ عليها الإشراق والوضوح اللذين يطلبهما عقل عبد الحميد المنطقى .

ويخاف عبد الحميد أن يغضب ولى العهد من نصحه، فيبين له أن الناس فى حاجة إلى التأديب والوعظ، وإن كبروا وعظموا وعرفوا الفاضل والمرذول: "ولولا ما أمر الله تعالى به دالا عليه، وتقدمت فيه الحكماء آمرين به: من تقديم العظة، والتذكير لأهل المعرفة، وإن كانوا أولى سابقة فى الفضل، وخصيصاء فى العلم، لاعتمد أمير المؤمنين منك على اصطناع الله إياك، ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم، أو لقنوه إلهاما من تلقائهم، ولم يتعلموا شيئا من عند غيرهم، لنحلناهم علم الغيب، ووضعناهم بمنزلة قصَّر فيها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب..".

وتنتهى المقدمة فيبدأ الجزء الأول من القسم الأول بقوله: "اعلم أن للحكمة مسالك تفضى مضايق أوائلها بمن أمها سالكا، وركب أخطارها قاصدا، إلى سعة عاقبتها، وأمن سرحها، وشرف عزها، وأنها لا تعار بسخف الخفة، ولا تنشأ بتفريط الغفلة" . ثم يأخذ يعدد له الصفات التى يجب أن يتحلى بها، والتى نراها تجمع بين الأخلاق الإسلامية، والعادات الفارسية، فيقول: "واعلم أن احتواءك على ذلك،

وسبقك إليه، بإخلاص تقوى ا لله فى جميع أمورك مؤثرا لها، وإضمار طاعته منطويا عليها، وإعظام ما أنعم ا لله به عليك شاكرا له، مرتبطا فيه للمزيد بحسن الحياطة له، والذب عنه، من أن تدخلك فيه سآمة ملال، أو غفلة ضياع، أو سنة تهاون، أو جهالة معرفة. فإن ذلك أحق ما بدئ به ونظر فيه، معتمدا عليه بالقوة والآلة والعدة والانفراد به من الأصحاب والحامة. فتمسك به لاجئا إليه، واعتمد عليه مؤثرا له، والتجئ إلى كنفه متحيزا إليه، فإنه أبلغ ما طلب به رضا ا لله، وأنجحه مسألة، وأجزله ثوابا، وأعوده نفعا، وأعمه صلاحا". ونرى فى هذه الفقرة بعض الصيغ التى يحب عبد الحميد أن يكررها، مثل الحال وصيغة التفضيل مع التمييز، مما يكسب أسلوبه جمالا موسيقيا مع توضيح المعنى وتجليته.

ويستطرد فى التعداد فيقول: "ثم اجعل ا لله فى كل صباح ينعم عليك ببلوغه، ويظهر منك السلامة فى إشراقه، من نفسك نصيبا تجعله لله، شكرا على إبلاغه إياك يومك ذلك بصحة جوارح، وعافية بدن، وسبوغ نعمة، وظهور كرامة، وأن تقرأ فيه من كتاب ا لله – تعالى وتبارك – جزءا تردد رأيك فى آيه وتزين لفظك بقراءته .. ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك، فإنه مغلاق الحسنات ومفتاح السيئات، وخصم العقل. واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ويعترض غفلتك لأنها خدع إبليس، وخواتل مكره، ومصايد مكيدته. فاحذرها مجانبا لها، وتوقها محترسا منها .. فحاول بلوغ غايتها (منزلة أهل الحجا) محرزا لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع، محصنا أعمالك من العجب، فإنه رأس الهوى، وأول الغواية، ومقاد الهلكة، حارسا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوى العادات وذميم إيثارها" ويلاحظ فى هذه الفقرات توازن الجمل الناتج عن ترادفها مما يعطى الأسلوب توازنا موسيقيا، ويلاحظ فيها الحال أيضا. أما الآداب التى يوصى بها فيلاحظ عليها الطابع

الإسلامى، ولكنه لا يقصر نفسه على الآداب الإسلامية، فيأخذ عن الآداب الفارسية والهلينية، التى كانت سائدة فى الشرق فى ذلك الوقت، فيقول:

"من ذلك أن تملك أمورك بالقصد، وتدارى جندك بالإحسان، وتصون سرك بالكتمان، وتداوى حقدك بالإنصاف، وتذلل نفسك بالعدل، وتحصن عيوبك بتقويم أودك، وتمنع عقلك من دخول الآفات عليه بالعجب المردى، وأناتك فوقها الملال وفوت العمل، ومضاءتك فدرعها روية النظر واكنفها بأناة الحلم، وخلوتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة، وصمتك فانف عنه شئَّ اللفظ، وخف فيه سوء القالة، واستماعك فأرعه حسن التفهم، وقوّه بإشهاد الفكر، وعطاءك فامهد له بيوتات الشرف وذوى الحسب، وتحرز فيه من السرف واستطالة البذخ وامتنان الصنيعة، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصر، وحلمك فزعه عن التهاون، وأحضره قوة الشكيمة، وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط، وتعمد بها أهل الاستحقاق، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق، وخذ به واجب المفترض، وأقم به أود الدين، واستئناسك فامنع منه البذاءوسوء المناقشة، وتعهدك أمورك فحُدَّه أوقاتا، وقدره ساعات لا تستفرغ قوتك، ولا تستدعى سآمتك، وعزماتك فانف عنها عجلة الرأى ولجاجة الإقدام، وفرحاتك فاشكمها عن البطر، وقيدها عن الزهو، وروعاتك فحطها من دهش الرأى، واستسلام الخضوع، وحذراتك فامنعها من الجبن واعمد بها للحزم، ورجاءك فقيده بخوف الفائت، وامنعه من أمن الطلب"

ويبدو فى هذه الفقرة ظاهرة غريبة هى هذا المفعول به المقدم فى صدر الجمل، الذى يضفى على الفقرة كلها موسيقية واضحة، ولعل هذا الأسلوب من تأثير الثقافة اليونانية فى عبد الحميد .

وينتهى بهذا حديثه عن الآداب الخاصة الفردية، فيختم هذا القسم بقوله:

"هذه جوامع خلال، دخال النقص منها واصل إلى العقل بطائف أبنه، وتصاريف حويله، فأحكمها عارفا بها، وتقدم فى الحفظ لها، معتزما على الأخذ بمراشدها، والانتهاء منها إلى حيث بلغت بك عظة أمير المؤمنين وأدبه إن شاء الله".

وقد تشعر هذه الخاتمة بأنه قد جمع له هذه الآداب من المصادر المتفرقة، عربية وفارسية ويونانية.

وربما لم يظهر الأثر الفارسي بوضوح في القسم السابق، ولكنه يتضح كل الوضوح في هذا القسم الذى يتناول آداب الحاشية، والذى يبدؤه بقوله: "ثم لتكن بطانتك وجلساؤك فى خلواتك، ودخلاؤك فى سرك، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك، وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور، وخبطته فصالها بين فراسن البزل منها، وقلبته الأمور فى فنونها، وركب أطوارها" .

ويأخذ فى تعداد الآداب، فيقول: "ثم أحضرهم من نفسك وقارا يستدعى لك منهم الهيبة، واستئناسا يعطف إليك منهم المودة، وإنصاتا يفل إفاضتهم عندك بما تكره أن ينشر عنك من سخافة الرأى، وضياع الحزم .. وإياك أن يغمز فيك أحد من حامتك وبطانة خدمك، بضعفة يجد بها مساغا إلى النطق عندك بما لا يعتز لك عيبه، ولا تخلو من لائمته .. ثم إياك أن يفاض عندك بشىء من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التى يستخف بها أهل البطالة، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة .. مع ما فى ذلك من نقص الرأى، ودرن العرض، وهدم الشرف، وتأثيل الغفلة، وقوة طباع السوء الكامنة فى بنى آدم كمون النار فى الحجر الصلد، فإذا قُدح لاح شرره، وتلهب وميضه، ووقد تضرمه .." .

ويظهر فى الفقرة الأخيرة ولع عبد الحميد ببعض الصيغ لجلب الموسيقى، إذ نراه يكثر من صيغة التفضيل يليها التمييز .

ثم يبين له السعايات والوشايات والأخبار وكيفية تلافى أضرارها: "واعلم أن أقواما سيسرعون إليك بالسعاية، ويأتونك من قبل النصيحة، ويستميلونك بإظهار الشفقة ليجعلوك لهم ذريعة إلى استنكال العامة، بموضعهم منك فى القبول منهم، والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة، أو أسرعوا بك فى أمره إلى الظنة، فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة، ولا معروف بتهمة، ولا منسوب إلى بدعة .. وليكن صاحب شرطتك، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك إليه إنهاء ذلك، وهو المنصوب لأولئك، والمستمع لأقاويلهم، والفاحص عن نصائحهم. ثم لينهد لك إليك على ما يرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه، وتقفه على رأيك، من غير أن يظهر ذلك للعامة، فإن كان صوابا نالتك حظوته، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل، أو فرطة سعى بها كاذب .. لم يعصب ذلك الخطأ بك، ولم تنسب إلى تفريط .. وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر وتعتمد عليه فيه، ألا يقدم على شىء ناظرا فيه، ولايحاول أخذ أحد طارقا له، ولا يعاقب أحدا منكلا به، ولا يخلى سبيل أحد صافحا عنه، لإصحار براءته، وصحة طريقته، حتى يرفع إليك أمره، وينهى إليك قضيته، على جهة الصدق، ومنحى الحق، ويقين الخبر .. ثم إياك وأن يصل إليك أحد من جندك وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك أو حاجة يبدهك بطلبها، حتى يرفعها قبل ذلك إلى كاتبك الذى أهدفته لذلك ونصبته له، فيعرضها عليك منهيا لها على جهة الصدق عنها، وتكون على معرفة من قدرها، فإن أردت إسعافه بها، ونجاح ما سألَ منها، أذنت له فى طلبها، باسطا له كنفك، مقبلا عليه بوجهك، مع ظهور سرورك بما سألك، وفسحة رأى، وبسطة ذرع، وطيب نفس. وإن كرهت قضاء حاجته، وأحببت رده عن طلبته، وثقل عليك إجابته إليها وإسعافه بها، أمرت كاتبك فصفحه عنها، ومنعه من مواجهتك بها، فخففت عليك فى ذلك المؤنة، وحسن

لك الذكر" .

ويأخذ عبد الحميد فى ذكر بعض الآداب العامة فيقول: "احذر تضييع رأيك، وإهمالك أدبك فى مسالك الرضى والغضب، واعتوارها إياك، فلا يزدهينك إفراط عجب تستخفك روائعه، ويستهويك منظره .. وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك وعامة رعيتك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة، والتقرب إليك بالسعاية، والإغراء من بعض ببعض، والنميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك .. واملك نفسك عن الانبساط فى الضحك والانفهاق، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحله، فإن ذلك ضعف عن ملْك سَورة الجهل .. إذا كنت فى مجلس ملئك وحيث حضور العامة مجلسك، فإياك والرمى ببصرك إلى خاص من قوادك، أو ذى أثرة عندك من حشمك، وليكن نظرك مقسوما فى الجميع، وإعارتك سمعك ذا الحديث بدعَة هادئة، ووقار حسن، وحضور فهم مستجمع، وقلة تضجر بالمحدث. ثم لا يبرح وجهك إلى بعض قوادك وحرسك متوجها بنظر ركين، وتفقد محض، فإن وجه إليك أحد منهم نظره محدقا أو رماك ببصره ملحا، فاخفض عنه إطراقا جميلا باتّداع وسكون .. " .

ويكثر فى هذا النصح، حتى إذا ما انتهى منه صرح بذلك، ودعا لولى العهد، فقال: "هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسرا، وجمع لك شواذها مؤلفا، وأهداها إليك مرشدا، فقف عند أوامرها، وتناه عن زواجرها، وتثبت فى مجامعها، وخذ بوثائق عراها، تسلم من معاطب الردى، وتنل أنفس الحظوظ، ورغيب الشرف، وأعلى درج الذكر، وتؤثّل سطوة العزّ . وا لله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد، وتتابع المزيد، وبلوغ الأمر .. " .

ويظهر فى هذه الخاتمة كثير من مزايا أسلوب عبد الحميد: من الزواج،

والسجع الخفيف، وتوازن الجمل، وترادفها، واستعمال الحال، وغيرها .

ثم يبدأ الجزء الأول من القسم الثانى من الرسالة، وهو القسم الحربى، بقوله:

"فإذا أفضيت نحو عدوك، واعتزمت على لقائهم، وأخذت أهبة قتالهم فاجعل دعامتك التى تلجأ إليها، وثقتك التى تأمل النجاة بها، وركنك الذى ترتجى به منالة الظفر، وتكتهف به لمعالق الحذر، تقوى ا لله عز وجل، مستشعرا لها بمراقبته، والاعتصام بطاعته، متبعا لأمره، مجتنبا لسخطه، محتذيا سننه، والتوقى لمعاصيه فى تعطيل حدوده، وتعدى شرائعه، متوكلا عليه فيما صمدت له، واثقا بنصره فيما توجهت نحوه، متبرئا من الحول والقوة فيما نالك من ظفر، وتلقاك من عز، راغبا فيما أهاب بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد، ورمى بك إليه، محمود الصبر فيه عند ا لله عز وجل وقتال عدو ا لله للمسلمين، أكْلبه عليهم، وأظهره عداوة لهم، وأفدحه ثقلا لعامتهم، وآخذه بربقهم، وأعلاه عليهم بغيا، وأظهره فيهم فسقا وجورا، وأشده على فيئهم" .

ويكثر عبد الحميد فى هذه الفقرة من استعمال الحال فى بدايتها، وصيغة التفضيل فى نهايتها، مما يوفر لعبارته كثيرا من الموسيقى .

ويشرع يحدد له سياسة الجيش، فيقول "ثم خذ من معك من تباعك وجندك بكف معرتهم، ورد مستعلى جورهم، وإحكام خللهم، وضم منتشر قواصيهم، ولم شعث أطرافهم .. ثم اصمد لعدوك المتسمى بالإسلام خارجا من جماعة أهله، المنتحل ولاية الدين مستحلا لدماء أوليائه، طاعنا عليهم، راغبا عن سنته، مفارقا لشرائعه".

ويظهر فى هذه الفقرة أيضا ولع عبد الحميد بالمترادفات، واستعمال الحال، وعنايته بتوازن جمله .

ويقول: "حَصِّن جندك واشكم نفسك بطاعة ا لله فى مجاهدة أعدائه، وارج نصره .. فإن طاعتك إياه فيهم، ومراقبتك له، ورجاءك نصره، مُسهل لك نصره مسهل لك وعوره، وعاصمك من كل شبهة، ومنجيك من كل هوة، وناعشك من كل صرعة، ومقيلك من كل كبوة، ودارئ عنك كل شبهة، ومذهب عنك لطخة كل شك، ومقويك بكل أيد ومكيدة، ومعزك فى كل معترك قتال، ومؤيدك فى كل مجمع لقاء، وكالئك عند كل فتنة مغشية، وحافظك من كل شبهة مردية".

وتظهر فى هذه الفقرة صيغة جديدة غير الصيغ السابقة، وهى اسم الفاعل الذى يتردد فى كل جملة من جمل الفقرة .

ويقول: "اعلم أن الظفر ظفران، أحدهما – وهو أعم منفعة، وأبلغ فى حسن الذكر قالة، وأحوطه سلامة، وأتمه عافية، وأعوده عاقبة، وأحسن فى الأمور موردا، وأعلاه فى الفضل شرفا، وأصحه فى الروية حزما، وأسلمه عند العامة مصدرا – ما نيل بسلامة الجنود، وحسن الحيلة، ولطف المكيدة".

ويعود إلى الظهور فى هذه الفقرة صيغة التفضيل التى يليها التمييز. ثم يبين له كيف يحتال على جيش العدو ليهزمه دون إزهاق الأرواح .

وفى آخر هذا الجزء يشرح له ما يجب عليه فى نظام الجواسيس المعقد: "ثم أذك عيونك على عدوك، متطلعا لعلم أحوالهم التى يتقلبون فيها، ومنازلهم التى هم بها، ومطامعهم التى قد مدوا أعناقهم نحوها، وأى الأمور أدعى لهم إلى الصلح وأقودها لرضاهم إلى العافية .. احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك، وإياك ومعاقبة أحد منهم على خبر إن أتاك به اتهمته فيه، أو سؤت به ظنا، وأتاك غيره بخلافه، أو أن تكذبه فيه فترده عليه: ولعله أن يكون قد محضك النصيحة، وصدقك الخبر، وكذبك الأول .. واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما

صدقوك، وربما غشوك، وربما كانوا لك وعليك، فنصحوا لك وغشوا عدوك، وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيرا ما يصدقونك ويصدقونه فلا تبدرن منك فرطة عقوبة إلى أحد منهم . واستنزل نصائحهم بالمياحة والمنالة .. واعلم أن لعدوك فى عسكرك عيونا راصدة، وجواسيس كامنة، وأنه لن يقع رأيه عن مكيدتك بمثل ما تكايده به، وسيحتال لك كاحتيالك له، ويعد لك كإعدادك له فيما تزاوله منه .. واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضا، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك، وممالأتهم عدوك، واجتماعهم على غشك، وتطابقهم على كذبك، وإصفاقهم على خيانتك".

وبانتهاء الكلام عن الجواسيس ينتهى الجزء الأول من القسم الثانى .

ويبدأ عبد الحميد الجزء الثانى من القسم الثانى بقوله: "فإذا أحكمت ذلك وتقدمت فى إتقانه، واستظهرت با لله وعونه، فول شرطتك وأمر عسكرك أوثق قوادك عندك، وأظهرهم نصيحة، وأنفذهم بصيرة فى طاعتك، وأقواهم شكيمة فى أمرك، وأمضاهم صريمة، وأصدقهم عفافا، وأجزأهم غناء، وأكفاهم مثوبة، وأصحهم ضميرا، وأرضاهم فى العامة دينا، وأحمدهم عند الجماعة خلقا، وأعطفهم على كفاتهم رأفة، وأحسنهم لهم نظرا، وأشدهم فى دين ا لله وحقه صلابة .. " .

وبهذه الفقرة التى تكثر فيها صيغة التفضيل مع التمييز يبدأ تنظيم الجيش وهو يبدأ فى هذه الفقرة بالقائد الأعلى .

ثم يتناول الأحراس من الجند، فيقول: "واعلم أن مواضع الأحراس من معسكرك، ومكانها من جندك، بحيث الغناء عنهم، والرد عليهم، والحفظ لهم، والكلاءة لمن بغتهم طارقا، أو أرادهم مخاتلا .." .

ثم يعالج قضاء العسكر، فيقول: "ثم اعلم أن القضاء من ا لله بمكان ليس به

شيء من الأحكام، ولا بمثل محله أحد من الولاة، لما يجرى على يديه من مغاليط الأحكام ومجارى الحدود، فليكن من توليه القضاء فى عسكرك من ذوى الخير فى القناعة والعفاف والبراعة والفهم والوقار والعصمة والورع، والبصر بوجوه القضايا ومواقعها، وقد حنكته السن، وأيدته التجربة، وأحكمته الأمور" .

ثم يتناول الطلائع، فيقول: "ثم تقدم فى طلائعك، فإنها أول مكيدتك. ورأس حربك، ودعامة أمرك، فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوى نجدة وبأس، وصرامة وخبرة، حماة كفاة .. وإياك أن تقبل من دوابهم إلا إناث الخيل ملهوبة، فإنها أسرع طلبا، وأنجى مهربا، وألين معطفا، وأبعد فى اللحوق غاية، وأصبر فى معترك الأبطال إقداما، وخذهم من السلاح بأبدان الدروع، ماذية الحديد، شاكة النسج، متقاربة الحلق، مُتلاحمة المسامير، وأسوق الحديد مموهة الركب، محكمة الطبع، خفيفة الصوغ، وسواعد طبعها هندى، وصوغها فارسى .. ثم انتخب للولاية عليهم رجلا بعيد الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، نبيه الذكر، له فى العدو وقعات معروفات، وأيام طوال، وصولات متقدمات" .

ثم يذكر الشرطة الحربية، فيقول: "ول دراجة عسكرك، وإخراجَ أهله إلى مصافهم ومراكزهم، رجلا من أهل بيوتات الشرف. محمود الخبرة، معروف النجدة، ذا سن وتجربة، لين الطاعة، قديم النصيحة .. واضمم إليه عدة نفر من ثقات جندك وذوى أسنانهم، يكونون شرطة معه، ثم تقدم إليه فى إخراج المصاف، وإقامة الأحراس، وإذكاء العيون، وحفظ الأطراف .. " .

ثم يتناول سلطات القواد: "فوض إلى أمراء أجنادك وقواد خيلك أمور أصحابهم، والأخذ على قافية أيديهم، رياضة منك لهم على السمع والطاعة لأمرائهم .. واعلم أن فى استخفافهم بقوادهم، وتضييعهم أمر رؤسائهم، دخولا

للضياع على أعمالك، واستخفافا بأمرك الذى يأتمرون به .. وأوعز إلى القواد ألا يقدم أحد منهم على عقوبة أحد من أصحابه إلا عقوبة تأديب، وتقويم ميل، وتثقيف أوده .. " .

ثم المؤخرة: "وإياك والمسير إلا فى مقدمة وميمنة وميسرة وساقة، شهروا الأسلحة، ونشروا البنود والأعلام، وعرف جندك مراكزهم؟ سائرين تحت ألويتهم، قد أخذوا أهبة القتال - ثم اجعل ساقتك أوثق أهل عسكرك فى نفسك صرامة ونفاذا، ورضى فى العامة، وإنصافا من نفسه فى الرعية، وأخذا بالحق فى المعدلة ..

ثم اكثف معه الجمع، وأيده بالقوة، وقوه بالظهر، وأعنه بالأموال .. اجعل لخلف ساقتك رجلا من وجوه قوادك. جليدا ماضيا، عفيفا صارما، شهم الرأى شديد الحذر. فى خمسين فارسا من خيلك، يحضر إليك جندك، ويلحق بك من يتخلف عنك، بعد الإبلاغ فى عقوبتهم، والنهك لهم" .

وأخيرا بعض النصائح الحربية العامة: "ليكن رحيلك إبانا واحدا، ووقتا معلوما، لتخف المئونة بذلك على جندك، ويعلمون أوان رحيلهم، فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، وأعلاف دوابهم .. فإذا انتهيت إلى منهل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به، فإياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله، والمعرفة بمرافقه. ومر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله، ويستثير لك علم دفينته، ويستبطن علم أموره .. إياك أن يكون منزلك إلا فى خندق، وحصن تأمن فيه بيات عدوك، وتستنيم فيه إلى الحزم من مكيدتك .. "

ويرجع إلى تنظيم الجيش مرة أخرى، فيقول: "ثم ولِّ على كل مئة رجل منهم رجلا من أهل خاصتك ونصحائك، له صيت فى الرياسة، وقدم فى السابقة وأولية

فى المشايعة" . ويرى بعض النقاد المحدثين[1] أن هذه الفقرة تكشف عن تأثر عبدالحميد بالثقافة الهلينية وتنظيم الجيش البيزنطى، إذ كان يتكون هذا الجيش من وحدتين: اللجيون، وتتكون من ستة آلاف رجل، والسنتريو، وتتكون من مئة رجل، ويعرف رئيس هذه المئة بالسنتر يونس. وليس ذلك بغريب، فقد رأينا سالما وحلقته كلها متأثرة بالثقافة الهلينية. وربما عرف عبد الحميد هذا الجيش عن طريق اتصاله بالروم فى الشام وآسيا الصغرى .

ويقول أيضا: "وكل بخزائنك ودواوينك رجلا ناصحا أمينا ذا ورع حاجز، ودين فاضل، وطاعة خالصة، وأمانة صادقة، واجعل معه خيلا يكون مسيرها ومنزلها وترحلها مع خزائنك وحولها، وتقدم إليه فى حفظها، والتوقى عليها .. "

وينهى الرسالة ببعض النصائح العامة: "اعلم أن أحسن مكيدتك أثرا فى العامة، وأبعدها صيتا فى حسن القالة، ما نلت الظفر فيه بحزم الروية، وحسن السيرة، ولطف الحيلة .. إذا تدانى الصفان، وتواقف الجمعان، واحتضرت الحرب، وعبأت أصحابك لقتال عدوهم، فأكثر من قول "لا حول ولا قوة إلا با لله، والتوكل على ا لله عز وجل .. ومر جندك بالصمت، وقلة التلفت عند المصاولة، وكثرة التكبير فى نفوسهم، والتسبيح بضمائرهم .. "

ويختمها بقوله: "أيدك ا لله بالنصر، وغلب لك على القوة، وأعانك على الرشد، وعصمك من الزيغ، وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء، ومنازل الأصفياء. والسلام عليك ورحمة ا لله وبركاته" .

---

(١) طه حسين: من حديث الشعر والنثر ص٦٧ .

هذه هى رسالة عبد الحميد، بل كتابه إلى ولى العهد، وإنها لذات أهمية كبيرة فى تاريخ حركة الكتابة والتأليف فى الأدب العربى. فهى تبين لنا جميع مزايا عبد الحميد الكتابية. وأول ما يظهر فيها عقله المنطقى الذى يقسم الموضوع إلى أفكار جزئية، ويخص كل فكرة بفقرة خاصة من الكلام. ويظهر فيها تأثر عبد الحميد بالثقافة اليونانية والفارسية. وليس ذلك بالأمر العجيب. فنحن نعرف أن أستاذه كان يترجم من اليونانية، وأنه هو نفسه كان يترجم من الفارسية[1]. فلعل أستاذه علمه يونانيته، أو تأثر بها هو عن طريق فارسيته. وربما كان هذا العقل المنطقى طبيعة فُطر عليها، دون أثر من يونان أو فرس. وإن لم يكن الأمر كذلك، فقد صار طبيعة، صبغت كتابته بخصائص كثيرة، ترجع كلها إلى ذلك العقل المنطقى، الذى يأبى إلا النظام والوضوح والدقة. ومن الأمور التى تضفى على هذه الرسالة أهمية زائدة دلالتها على ثقافة مؤلفها الواسعة الشاملة، المتشعبة الأنحاء، التى توحى إلينا بما كان معروفا فى المجتمع الإسلامى من آداب وثقافات ومعارف، من استنباطهم، أو من الجداول الخارجية التى شرعت تتدفق على العالم الإسلامى، وكانت إرهاصا بالسيول المنهمرة المتدافعة فى العصر العباسى الذهبى .

وفضلا عن هذه الأفكار، يظهر فيها عناية شديدة باختيار الألفاظ والأسلوب، حتى تتوافر الموسيقى فيها توافرا شديدا، آتيا عن توازن الجمل وازدواجها أو سجعها، وعن مراعاة عبد الحميد لبعض الصيغ الخاصة فى الفقرة الواحدة، المفعول به، أو صيغة التفضيل، أو التمييز، أو اسم الفاعل، أو الحال. وكذلك تأتيه الموسيقى من تقابل ألفاظ الجمل المتجاورة وتآلفها. وينتج ذلك عن حبه للترادف وإكثاره منه.

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ٣ : ١٦ .

فعبد الحميد فى هذه الرسالة إمام من أئمة الكتاب، يعنى بأفكاره فيستجلبها من الثقافات المختلفة، ويدقق فيها ويوضحها، بالإضافة إلى ترتيبها. ويعنى بأسلوبه فيوفر له الجمال الموسيقى، الذى يثير اللذة فى القارئ، والإعجاب بالكاتب .

وهذه الرسالة لها أهمية أخرى فى تاريخ الكتابة الفنية العربية، إذ تقف وحدها علما بين العهود التى قبلها، والتى بعدها. ونحن إذا ما جمعنا عهود الصدر الأول من الإسلام مثلا، وأنعمنا النظر فيها، نجدها مختصرة موجزة لا تعدو النصائح الدينية. فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول فى عهده لعمرو بن حزم حين ولاه اليمن(١):

"بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا بيان من الله ورسوله "يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود"، عقد من محمد النبى رسول الله لعمرو بن حزم حين بعثه إلى اليمن. أمره بتقوى الله فى أمره كله، إن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون" وأمره أن يأخذ بالحق كما أمر به الله، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به، ويعلم الناس القرآن، ويفقههم فى الدين، ينهى الناس فلا يمس أحد القرآن إلا وهو طاهر، ويخبر الناس بالذى لهم وبالذى عليهم، ويلين للناس فى الحق، ويشتد عليهم فى الظلم. فإن الله عز وجل كره الظلم ونهى عنه، وقال: "ألا لعنة الله على الظالمين"، ويبشر الناس بالجنة وبعملها، وينذر بالنار وبعملها، ويستألف الناس حتى يتفقهوا فى الدين، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفريضته.."

فهى مجرد نصائح دينية بعضها بجوار بعض. بل العهود الحربية نفسها لم تكن تتعدى هذه النصائح الدينية أيضا. وهذا عهد أبى بكر لأمراء جيوش الردة(٢):

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٦٢ .

(٢) نفس المرجع ١١٧ .

"بسم ا لله الرحمن الرحيم .

هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول ا لله صلى ا لله عليـه وسـلم لفـلان .. حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام، عهد إليه أن يتقـى ا لله مـا استطـاع فـى أمره كله، سره وعلانيته، وأمره بالجد فى أمر ا لله، ومجاهدة من تولى عنه، ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان، بعـد أن يعـذر إليهـم، فيدعوهـم بداعيـة الإسـلام، فـإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرّوا له، ثم ينبههم بالذى عليهم والـذى لهـم، فيـأخذ مـا عليهـم، ويعطيهـم الـذى لهـم، لا ينظرهـم، ولا يـرد المسلمين عن قتال عدوهم، فمن أجاب إلى أمر ا لله عز وجل وأقر له، قبل ذلك منه، وأعانه عليه بالمعروف. وإنما يقاتل من كفر با لله، على الإقرار بما جاء مـن عنـد ا لله. فإذا أجاب الدعوة لم يكن له عليه سبيل، وكـان ا لله حسيبه بعـد فيمـا استسـر بـه. ومن لم يجب داعية ا لله قُتل وقوتل حيث كان، وحيث بلغ مراغمه، لا يقبل من أحـد شيئا أعطاه إلا الإسلام. فمن أجابه وأقر به قبل منـه وعلمـه. ومـن أبـى قاتلـه. فـإن أظهره ا لله عليه قتل فيهم كل قتلة بالسلاح وآلنيران، ثم قسم ما أفـاء ا لله عليـه إلا الخمس فإنه يبلغناه، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وأن لا يدخـل فيهـو حشـوا حتى يعرفهم، ويعلم ما هم، لئلا يكونوا عيونا، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم، وأن يقصد بالمسلمين، ويرفق بهم فى السير والمـنزل، ويتفقدهـم ولا يعجـل بعضهـم عـن بعض، ويستوصى بالمسلمين فى حسـن الصحبـة ولـين القـول .. " فهـذا العهـد وإن كان يحتوى على بعض النصائح غير الدينية إلا أنها قليلة بجانب الدينية .

وهذا عمر يعهد إلى عتبة بن غزوان حين وجهه إلى البصرة، فيقول[1]:

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٢٤٥ .

"واتق ا لله فيما وليت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر يفسد عليك إخوتك، وقد صحبت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، فعززت به بعد الذلة، وقويت به بعد الضعف، حتى صرت أميرا مسلطا، وملكا مطاعا، تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك، فيالها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك، وتبطرك على من دونك، احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، وهي أخوفُهما عندى عليك أن تستدرجك وتخدعك، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم. أعيذك با لله ونفسي من ذلك. إن الناس أسرعوا إلى ا لله حين رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرِد ا لله ولا ترد الدنيا، واتق مصارع الظالمين" .

ولكن عمر كان له نصائح حربية أيضا، يظهر ذلك في رسائله لسعد بن أبى وقاص وهو يحارب الفرس(١) :

"أما بعد؛

فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى ا لله على كل حال، فإن تقوى ا لله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم ا لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم. فإن استوينا فى المعصية، كان لهم الفضل علينا فى القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من ا لله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى ا لله وأنتم فى سبيل ا لله، ولا تقولوا: "إن عدونا شر منا، فلن يسلّط علينا". فرب

---

(١) نفس المرجع ٢٣٣ .

قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بنى إسرائيل - لما عملوا بمساخط الله - كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعد الله مفعولا. واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم..".

ويظهر فى هذه الفقرة الروح الإسلامى، ولكن الروح الحربى يظهر فى الفقرة التالية :

"وترفق بالمسلمين فى مسيرهم، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم، والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامى الأنفس والكراع، وأقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة، حتى تكون لهم راحة يحيون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم. ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحدا من أهلها شيئا، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيرا، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخفَ عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره، وإن صدقك فى بعضه، والغاش عين عليك وليس عينا لك .. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وتنقَّ للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد، ولا تخص بها أحدا بهوى، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعثن طليعة، ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكبة. فإذا عاينت

العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، مالم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها، فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك، ولا تؤتى بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب به عدو الله وعدوك. والله ولى أمرك ومن معك، وولى النصر لكم على عدوكم، والله المستعان" .

وهذا العهد ذو أهمية بالغة، بل هو أهم عهد فى الصدر الأول من الإسلام، فهو يحتوى على جل الأفكار التى عنى عبد الحميد ببسطها والإطناب فى الكلام عنها، من نظام الجيش والجواسيس والطليعة والتحذير من البيات وغيرها. ولا يخامرنا كثير من الشك فى قراءة عبد الحميد لهذا العهد وتأثره به، وإن كان عبد الحميد أدخل أشياء جديدة أتى بها من عصره ومن ثقافته .

أما عثمان فيكتفى فى عهوده إلى عماله بالإشارة إلى عهود عمر ووجوب العمل بها، كتب إلى عماله[1] .

"أما بعد؛

فقوموا على ما فارقتم عليه عمر، ولا تبدلوا؟ ومهما أشكل عليكم فردوه إلينا نجمع عليه الأمة ثم نرده عليكم؟ وإياكم وأن تغيروا، فإنى لست قابلا منكم إلا ما كان عمر يقبل" .

كما كان عثمان يتعهدهم بالنصائح الدينية من عنده أيضا، يقول فى عهد آخر[2] :

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ١ : ٢٩٣ .

(٢) نفس المرجع ٢٩١ .

"أما بعد؛

استعينوا على الناس وكل ما ينوبكم بالصبر والصلاة، وأمر ا لله أقيموه، ولا تُدهنوا فيه، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك. وارضوا من الشر بأيسره، فإن قليل الشر كثير، واعلموا أن الذى ألف بين القلوب هو الذى يفرقها ويباعد بعضها من بعض. سيروا سيرة قوم يريدون ا لله لئلا تكون لهم على ا لله حجة" .

ويقتفى علىّ أثر من قبله في عهوده، ولكنه له عهد مهم إلى زياد بن النضر وشريح بن هانئ فى الحرب يقول(١) :

"واعلما أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فإذا أنتما خرجتما من بلادكما فلا تسأما من توجيه الطلائع، ومن نفض الشعاب والشجر والخمر فى كل جانب، كى لا يغتركما عدو أو يكون لهم كمين، ولا تسيرن الكتاب والقبائل من لدن الصباح إلى المساء إلا على تعبئة. فإن دهمكم عدو أو غشيكم مكروه، كنتم قد تقدمتم فى التعبئة. فإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم فليكن معسكركم فى قُبل الأشراف، وأسفاح الجبال، وأثناء الأنهار، كيما يكون ذلك لكم ردءا، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا رقباء كما فى صياصى الجبال، وبأعالى الأشراف، ومناكب الأنهار، يرون لكم، لا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن. وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعا، وإذا رحلتم فارحلوا جميعا، فإذا غشيكم الليل فنزلتم فحفوا عسكركم بالرماح والترسة، ولتكن رماتكم من وراء تراسكم ورماحكم، يلونهم. وما أقمتم فكذلك فافعلوا، كي لا يصاب لكم غفلة، ولا يلقى لكم غرة، فما قوم يحفون عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار، إلا كانوا

---

(١) نفس المرجع ٤٦٠ .

كأنهم فى حصون، واحرسا عسكركما بأنفسكما. وليكن كل يوم عندى خبركما، ورسول من قبلكما. فإنى - ولا شىء إلا ما شاء الله - حثيث السير فى إثركما. وعليكما فى جريكما بالتؤدة، وإياكما والعجلة إلا أن تمكنكما فرصة بعد الإعذار والحجة. وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما إلا أن تُبدءا، أو يأتيكما أمرى إن شاء الله".

ولا يبلغ هذا العهد مبلغ عهد عمر، إلا أننا نجد فيه قليلا من الأفكار التى وردت فى عهد عبد الحميد، ولا شك أنه أخذ بذرته منه، فإنه كان يحفظ كلام على ابن أبى طالب. وبهذا العهد نرى أن عهود الصدر الأول من الإسلام كانت تغلب عليها الصبغة الدينية ثم الحربية، وأن عمر وعليا كان لهما من العهود ما اشتمل على أصول مجموعة من أفكار عبد الحميد إلا أن هذا استخدم هذه الأصول ونماها، فآتت أكلها على يديه .

وإذا ما انتقلنا إلى العصر الأموى وجدنا نوعا آخر من العهود. ولكننا قبل الكلام عنها نحب أن نشير للمرة الثانية إلى أننا نرفض رسالة معاوية إلى ابنه يزيد، التى يعنفه فيها تعنيفا شديدا يحط قدره، وهى ما يمكن اعتباره من العهود، وبعكس ذلك نقبل رسالة عبد الملك بن مروان إلى ابنه التى يلومه فيها، وقد تكلمنا عنهما من قبل، فلا داعى للتكرار. أما هذا النوع الآخر من العهود فليس بجديد، ولكنه وحيد. وأعنى بذلك أن العهود الدينية تختفى، وتشغل المكان العهود الحربية وحدها، مما يجعلنا نطمئن إلى الرأى القائل بأن العهد الأموى كان كله عهد حروب وفتن وثورات بين المذاهب الإسلامية المختلفة، وبين المسلمين ومن جاورهم من الأمم الأخرى. ويتضح ذلك أبلغ وضوح فى الرسائل بين عبد الملك بن مروان والحجاج

والمهلب بن أبى صفرة. وهاك رسالة من الحجاج إلى المهلب[1] :

"أما بعد؛

فإنك تتراخى عن الحرب، حتى يأتيك رسلى فيرجعون بعذرك، وذلك أنك تمسك حتى تبرأ الجراح، وتُنسى القتلى، ويجم الناس، ثم تلقاهم فتحتمل منهم مثل ما يحتملون منك من وحشة القتل وألم الجراح، ولو كنت تلقاهم بذلك الجد لكان الداء قد حُسم، والقرن قد قصم. ولعمرى ما أنت والقوم سواء، لأن من ورائك رجالا، وأمامك أموالا، وليس للقوم إلا ما معهم، ولا يدرك الوجيف بالدبيب، ولا الظفر بالتعذير" .

ولا تختلف باقى العهود عن هذه الرسالة، فهى موجزة قصيرة وقتية لا ترتفع حتى إلى مرتبة عهدى عمر وعلى لا مرتبة عبد الحميد. ولكن يجب أن يقال إن هذه العهود تختفى فى عهد عمر بن عبد العزيز، وتظهر محلها العهود الدينية التى يرسلها إلى عماله المنتشرين فى أنحاء الدول الإسلامية المختلفة. وهاك كتابه إلى عبد الرحمن ابن نعيم عامله بخراسان[2]:

"أما بعد؛

فكن عبدا ناصحا لله فى عباده، ولا تأخذك فى الله لومة لائم، فإن الله أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم، فلا تولين شيئا من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استرعى. وإياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق، فإن الله لا يخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن الله مذهبا، فإنه لا

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ١٨٥ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ٢٤٠ . وأحمد صفوت: الجمهرة ٣ : ٤٨٥ .

ملجأ من الله إلا إليه" .

وهكذا نخرج من هذا العرض للعهود فى الأوقات المختلفة، قبل عبد الحميد، بأنه كان ينظر فى عهده إلى عهد عمر ثم عهد على. أما غير ذينك فلم يكن يوجد من العهود ما يصح اعتباره أصلا لعهد عبد الحميد. ولكن الفرق شاسع أيضا بين هذين العهدين وعهد عبد الحميد فى الأسلوب، والأفكار، والغرض منه، بحيث يقف عهده وحيدا شامخا بين هذه العهود المتضائلة المتخاذلة بجانبه .

ويشتد وضوح مكانة هذا العهد حين نقارنه بما بعده من عهود، ويكفينا أن نعقد مقارنة سريعة بينه وبين عهد طاهر بن الحسين إلى ابنه عبد الله حين ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما[1]. وكان لعهد عبد الحميد أثر شديد فى عهد طاهر ويتضح هذا منذ البداية، إذ يبدأ العهدان بالنصح بالتقوى، فعبد الحميد يقول بعد ديباجته: "واعلم أن احتواءك على ذلك، وسبقك إليه، بإخلاص تقوى الله فى جميع أمورك مؤثرا بها، وإضمار طاعته منطويا عليها"، وطاهر يقول: "فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له، وخشيته ومراقبته عز وجل، ومزايلة سخطه .." . وإن كنا ينبغى علينا أن نتذكر أن البدء بالتقوى كان أمرا مألوفا فى العهود الإسلامية جميعها. ويظهر هذا الأثر فى الأفكار الأخرى، بل يتعدى ذلك إلى بعض العبارات – على الرغم من اختلاف الأسلوبين – فعبد الحميد يقول "ثم اعلم أن القضاء من الله بمكان ليس به شئ من الأحكام" . وطاهر يقول: "واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس به شىء من الأمور" . وتكاد العبارتان تكونان عبارة واحدة، بل لو أخفينا اسم الكاتبين لظنناهما من قلم واحد. ولكن هذا الأثر لم يجعل العهدين

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ٢٤٠ . وأحمد صفوت: الجمهرة ٣ : ٤٨٥ .

صورة واحدة، بل احتفظ كل منهما بمزاياه، فنجد عهد طاهر أقصر من عهد عبد الحميد، ويميل للترادف اللفظى، ويتكلم عن آداب الوالى وحده، ويكثر من الكلام عن الخراج، وتغلب عليه السنة الدينية، على حين نجد عهد عبد الحميد يميل لترادف الجمل، ويذكر آداب الوالى وآداب البلاط، ويبين نظام الحكم، ونظام الجيش، وسياسة الحروب، ولا يلح على نظام الخراج. فهما ينفرد كل منهما بخصائصه، ولكن لا شك أن عهد طاهر كان يأخذ ويقتبس من عهد عبد الحميد فى أفكاره وألفاظه .

رسالة الصيد

وهذه رسالة أخرى من رسائل عبد الحميد تكشف لنا عن نواح أخرى فيه. كتب يصف رحلة صيد للخليفة[1]:

"أطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيدا بالعز، مخصوصا بالكرامة، ممتعا بالنعمة. إنه لم يلق أحد من المقتنصين، ولا منح متطرف من المتصيدين إلا دون ما لقانا الله به من اليمن والبركة، ومنحنا من الظفر والسعادة فى مسيرنا، من كثرة الصيد، وحسن المقتنص، وتمكين الجاسة، وقرب الغاية، وسهولة المورد .. "

ويظهر فى هذه القرة ميل عبد الحميد للإطناب، وترادف الجمل، وتوازنها.

ويبدأ الموضوع الأساسى فى الرسالة بقوله: "وإنى أخبر أمير المؤمنين أنا خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح، وأثقف الضوارى، أكرمها أجناسا، وأعظمها أجساما، وأحسنها ألوانا، وأحدها أطرافا، وأطولها أعضاء، قد ثقفت بحسن الأدب، وعودت

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٤٤ .

شدة الطلب .. ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة، من الشهرية الموصوفة بالنجابة، والجرى والصلابة .. "

ونراه يلتزم فى هذه الفقرة صيغة التفضيل مع التمييز، مما يكسبها موسيقية متوافرة .

ويظهر فى هذه الرسالة ميزة أخرى، لعلها لا تظهر فى رسائله الأخرى بهذا الوضوح، تلك هى واقعيته، وتحريه الدقة فى وصف الواقع، حتى لنراه يصف رحلة الصيد، وما مر به من أراض فى سيره، والاختلافات التى طرأت على الجو فى أثناء طرده، فيقول:

"فلم نزل بأخفض سير، وأثقف طلب، وقد أمطرتنا السماء مطرا متداركا، فربت منه الأرض، وأزهر البقل، وسكن القتام من مثار السنابك، ومتشعبات الأعاصير، مهلة أن سرنا غلوات، ثم برزت الشمس طالعة، وانكشفت من السحاب مسفرة، فتلألأت الأشجار، وضحك النوار، وانجلت الأبصار، فلم نر منظرا أحسن حسنا، ولا مرموقا أشبه شكلا، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهر الرياض، والخيل تمرح بنا نشاطا، وتجتذبنا أعنتها انبساطا. ثم لم نلبث أن علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر، وتخفى سبل السلام، تغشانا تارة، وتنكشف أخرى، ونحن بأرض دمثة التراب أشبة الأطراف، مغدقة الفجاج، مملوءة صيدا من الظباء والثعالب والأرانب .. "

فهذا إحساس مرهف من الكاتب بالطبيعة حوله، فى حالاتها المختلفة، وهذا تصوير واقعى صادق، لما يحس به الكاتب. ويستخدم عبد الحميد هذا الجو الطبيعى ليبرز لنا صورة الطرد والصيد، ويساعدنا على تمثل المنظر كاملا واضحا .

وها هم أولاء قد وجدوا الصيد: "فأدانا المسير إلى غابة دونها مألف الصيد، ومجتمع الوحش، ونهاية الطلب .. فإذا نحن برعلة من ظباء، وخلفة آرام يرتعن آنسات، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسنا، فلم نعج إلا والضوارى لائحة لهن من بعد الغابة، ومنتهى نظر الشاخص، ثم مدت الجوارح أعنتها، واجتذبت الضوارى مقاودها، فأمرتُ بإرسالها عن الثقة بمحضرها، وسرعة الجوارح فى طلبها، فمرت تخف حفيفِ الريح عند هبوبها، تسف الأرض سفا، كاشفة عن آثارها، طالبة لخيارها، حارشة بأظفارها، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد، فمن صائح بها وناعر، وهاتف بها وناعق، يدعو الكلب باسمه، ويفديه بأبيه وأمه، وراكض تحت مُفره، وخافق يطلبه الرمح، وطامح يمنعه، وسانح قد عارضه بارح، قد حيرتنا الكثرة، وألهجتنا القدرة، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد وا لله المنعم الوهاب" .

فما أصدق الصورة وما أجل المنظر، وما أبلغ عبد الحميد الذى يكشف لنا عن ثقافة ومعرفة بالشعر فى لفظة واحدة "خلفة آرام" فلعله أتى بها من معلقة زهير من قبيل التظرف والتملح باستخدام الألفاظ الشعرية .

ولم تنته الرحلة بعد، فإن هناك منظرا آخر ينتظرنا: "ثم ملنا، يا أمير المؤمنين بهداية دليل قد أحكمته التجارب، وخبر أعلام المذانب، إلى غدير أفيح، وروضة خضرة، مستأجمة بتلاوين الشجر، ملتفة بصنوف الخمر، مملوءة من أنواع الطير. لم يذعرهن صائد، ولا اقتنصهن قانص، فخُفق لها بطبول وصفر بنفير الحتف. فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها. ثم انبرت البزاة لها صائدة، والصقور كاسرة، والشواهين ضاربة، يرفعن الطلب لها، ويخفضن الظفر بها. حتى سئمنا من الذبح، وامتلأنا من النضيح، كأنا كتيبة ظفرت ببغيتها، وسرية نصرت

على عدوها، وألحقت ضعيفها بقويها، وغلبت محسنها بمسيئها، لا نملك أنفسنا مرحا، ولا نستفيق من الجذل بها فرحا، بقية يومنا، وا لله المنعم الوهاب" .

وهذا منظر ثالث: "ثم غدونا يا أمير المؤمنين، إلى أرض وصف لنا صيدها بالكثرة، ورياضها بالنزهة، فزل واصفها عن الطريقة، واعتمد بنا إلى غير الحقيقة، فأتيناها فلم نر صيدا ولا عشبا، ولا نزهة ولا حسنا. فجعلنا نسلك منها حزونا ووعورا وجدويا وفقرا، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب، وقطع بنا عن الطمع النصب. فبينا نحن كذلك إذ بدا لنا جأب قد أوفى بنا على حائل بهادل غابة، من ورائها حمير وحش كثيرة. فأمعناها، فلما تطرفنا مشيا وتقريبا إلى عاناته، توالى نهيقه وكثر شهيقه، فالتفتن إليه، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه، واستهولن أمره، حتى إذا كنا بمرأى ومسمَع انجذبن موليات، وهربن مسيبات. فأجهدنا الركض في طلبهن، نتبع آثارهن، ونستشف بلاء بين أحفار ودكادك وخناذيذ، حتى أشفى بنا الطلب على واد هائل سائل بجنبته غابة أَشِبة قد سبقن إليها، واستخفين فيها، فنظمناها بالخيل نظم الخرز، ثم أوغلت عدة فرسان في نفضها ومعرفة أحوالها، والطبول خافقة، والأصوات شاهقة، فكان وكان، والحمد لله على كل حال" .

وهذه الرسالة في نظري من أهم رسائل عبد الحميد، فهي تكشف عن خصائصه في الأسلوب من إطناب، وترادف جمل، وتوازنها، ومن ازدواج، وسجع منتثر، والتزام لبعض الصيغ للموسيقى والإيضاح مثل صيغة التفضيل والحال. ولكن أهم من كل ذلك أن تكشف لنا عن إحساس مرهف عند عبد الحميد، فنراه يحس بالطبيعة إحساسا شديدا، ويحاول أن يرسمها كما يراها ويحس بها فهو رسم واقعي صادق شامل ملم للأطراف والتفاصيل. وذلك من شأن العقول المنطقية التي رأينا أن عبد الحميد لم يكن غريبا عنها. وهكذا نعرف من هذه الرسالة عبد الحميد

الواقعى المصور الطبيعى المرهف الإحساس بالطبيعة ومفاتنها .

وقد رأينا أن من أسباب أهمية كتاب عبد الحميد السابق دلالته على ثقافته العامة، ومن العوامل التى تجعل هذه الرسالة الراهنة مهمة فى نظر دارسى الأدب العربى وعبد الحميد خاصة، دلالتها على ثقافته العربية. فهى تدل دلالة واضحة على اطلاع واسع على الشعر العربى القديم وطردياته خاصة، وهضم لأوصاف هؤلاء الشعراء. ثم مشاركة من عبد الحميد للمطاردين والصيادين. فهذه الرسالة لا يستطيع أن يخرجها إلا من أكثر قراءة الطرديات القديمة، ولا يستطيع أن يخرجها بهذه الحياة وهذه القوة إلا من عانى الصيد، ولاقى متاعبه وأهواله، وملاذه ومتعه.

رسالة إلى العصاة :

ولدينا رسالة أخرى لعبد الحميد تظهر فيها خاصة لم تظهر فى رسائله الباقية، تلك الرسالة التى كتبها إلى بعض من خرج عن الطاعة[1]:

"أما بعد؛

فقد بلغنى كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد، فسترد عليك جنود الله المقربون، وأولياؤه الغالبون، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول، على الفحول، كأنها الوعول، تخوض الوحول، طوال السبال، تختضب بالجريال، رجال هم الرجال، بين رمح وناشب، ليس معهم إلا كلب محارب، ولا ينكلون عن الأصحاب، فقد ضروا بضرب الهام، واعتادوا الكر والإقدام، ليسوا بذى هينة ولا إحجام، يقضون بالسيوف، ويخالطون الزحوف، فى أعنتهم الحتوف" .

فنجد عبد الحميد فى الفقرة السابقة يلتزم السجع التزاما شديدا، لم نره عنده

---

(١) محمد كرد على: أمراء البيان ص٥٥ . وأحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٤٧١ .

فى رسائله الأخرى، مما قد يجعل شيئا من الشك يتسرب إلى نفوسنا فى صحة نسبة هذه الرسالة إليه، غير أن هناك بعض الفقرات من الرسائل الأخرى تحد من ازدياد هذا الشك. فإننا نرى هذا السجع الملتزم أو ما يقاربه فى رسالته إلى العرب حين فاض العجم من خراسان بشعار العباسيين الأسود[1]:

"فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية، من يد الفئة العجمية، واثبتوا ريثما تنجلى هذه الغمرة، ونصحو من هذه السكرة. فسينضب السيل، وتمحى آية الليل، وا لله مع الصابرين، والعاقبة للمتقين" .

بل نجد السجع فى القطعة التى يقال إن كتابه إلى أبى مسلم الخراسانى بدأ بها[2]: "لو أراد ا لله بالنملة صلاحا، لما أنبت لها جناحا". فإن هذه القطعة لو كانت صحيحة تدلنا على أن عبد الحميد كان يولع بالسجع أحيانا، وخاصة فى كتبه إلى الثوار والخارجين عن الطاعة. أما إذا كانت موضوعة، فإنها تدلنا على أن واضعها كان يشعر بأن عبد الحميد كان يغرم بالسجع أحيانا، وذلك مما يجعلنا نطمئن إلى الرسائل المسجوعة المنسوبة إليه. كما نراه يسجع فى بعض تحميداته[3]: "الحمد لله العلى مكانه، المنير برهانه، العزيز سلطانه، الثابتة كلماته، الشافية آياته، النافذ قضاؤه، الصادق وعده .. " .

مجمل خصائص عبد الحميد

نخرج من هذه الرسائل، التى حللناها، وغيرها من الرسائل التى لم نحللها هنا، بمجموعة من الخصائص كان يتحلى بها عبد الحميد. ولعل أول ما نخرج به أنه كان

---

(١) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٦٩ .

(٢) أحمد صفوت: الجمهرة ٢ : ٥٦٨ .

(٣) نفس المرجع ٥٥١ .

ذا عقل منطقى، متسلسل الأفكار، منتظم الخطوات. يظهر هذا فى تقسيمه رسائله إلى فقرات، تتآلف كل واحدة منها من فكرة خاصة لا تتعداها إلى الفقرة الأخرى. وتتآلف هذه الأفكار الخاصة فى الفقرات المنفصلة، وتترابط، فيتكون منها الموضوع العام أو الرسالة. ويظهر هذا التقسيم أوضح ما يظهر فى رسالته إلى ولى العهد. ولذلك يقول عنه الدكتور طه حسين. إن قارئه يستطيع أن يقرأ الفقرة ثم يقف ويستريح عند آخرها، بل يستطيع أن يطوى الكتاب يوما أو أكثر ثم يعود إلى القراءة دون أن يشعر بانقطاع المعنى[1]، وهذا التقسيم للموضوع غريب عن العقل العربى، لم نعهده فيمن قبل عبد الحميد، وإنما عهدنا منهم وممن بعدهم استطرادا وخروجا عن الموضوع إلى اليمين والشمال، ورجوعا إليه متى أحبوا، بل قد لا يرجعون إليه أبدا فهذا التقسيم وليد هذا العقل المنطقى .

وظهر تفكيره المنطقى أيضا فى ميله إلى الواقعية فى التصوير، فإن هذا اللون من التصوير أشبه ما يكون بذلك التفكير. وقد اتضح لنا هذا فى رسالته فى الصيد التى نعرف منها أيضا حبه فى تصوير المناظر الطبيعية، بل حبه فى التصوير عامة. وقد ظهر لنا ذلك أيضا فى رسائله الإخوانية، وخاصة رسالته عند ما أنجب ابنه، وفى رسالته إلى الكتاب أيضا. وكان من آثار حاسته المصورة هذه استعمال التشبيه والاستعارة والتشخيص، وتظهر هذه الخاصة فى رسالته التى يقول فيها[2]: "الناس أصناف مختلفون، وأطوار متباينون، منهم علق مضنة لا يباع، ومنهم غل مظنة لا يبتاع".

وقد دفعه تفكيره المنطقى أيضا إلى تحرى الدقة فى عباراته، وتوضيح ما يقصده

---

(١) طه حسين: من حديث الشعر والنثر ٦٨ .

(٢) الجهشيارى: الوزراء والكتاب ٨٢ .

من معان، فأدى به ذلك إلى الإكثار من استعمال الحال كثرة ملحوظة، لا نجدها عند غير مدرسة عبد الحميد وأستاذه من الأدباء. وهي على غرابتها عن اللغة العربية مألوفة في اللغة اليونانية، مما جعل بعض المحدثين يربطون بين هذه المدرسة وهذه اللغة التى نعرف أن سالما كان يعرفها ويترجم منها، والتى ربما عرفها عبد الحميد، وإن لم يصرحوا لنا بذلك. ولكنه - إن لمن يكن عرفها مباشرة - فقد عرفها بطريق غير مباشر، أعنى كتابات أستاذه، التى تأثر بها، وتطبع ببعض خصائصها ولكننا نحب ألا نعطى هذه الظاهرة أكثر مما تستحق، فإن عبد الحميد لا يكثر منها وحدها، بل لعله يأتى ببعض الصيغ الأخرى أكثر مما يأتى بها. فنراه يكثر من التفضيل والتمييز والمفعول المطلق، والمفعول لأجله، وأساليب العلة. ومما لا شك فيه أن صيغ التفضيل مع التمييز أكثر دورانا فى كتابته من الحال. ولعل تحريه الوضوح هو ما دعاه إلى الاتيان بالطباق فى كتابته أحيانا، إذ من المعروف أن الطباق والمقابلة يساعدان على إبراز الفكرة وإيضاحها. ولكن إكثار عبد الحميد من هذه الصيغ فى العبارات المتجاورة لم يكن يرجع إلى تفكيره المنطقى وحده، بل يرجع إلى مراعاته للموسيقى، وحبه توفير أكبر قسط منها لكتابته .

وليس من الغريب أن نقول عن عبد الحميد إنه كان منطقى التفكير، ما دمنا قد عرفنا أن أستاذه قد ترجم بعض رسائل أرسطو، وربما كان مطلعا على منطقه، ولعله لقنه تلاميذه أيضا، كما أننا رأينا عبد الحميد متأثرا بالثقافة اليونانية فى كثير من خصائصه، وخاصة فى رسالته لولى العهد . وقد قلنا قبل إن ذلك العقل المنطقى لا يبعد أن يكون طبيعة فُطر عليها، وترعرعت معه، فسادت على جميع كتاباته .

الجزء الثانى

الكتابة التاريخية

الكتابة التاريخية

تعريف

التاريخ: تعريف الوقت، والتوريخ مثله. أرخ الكتاب ليوم كذا: وقّته، والواو فيه لغة. وزعم يعقوب أن الواو بدل من الهمزة[1]. وقد اختلف العلماء في أصل هذا اللفظ، فذهب به بعضهم إلى العربية الخالصة، فقال: إن التاريخ مأخوذ من لفظ الأرخ، بمعنى ولد البقرة الصغير، لأنه يشبه الشيء الحادث كما يحدث الولد، فهو حدث جديد[2]. وعزاه بعضهم الآخر إلى الفارسية، فقال: إن أصله "ماه روز" بمعنى "يوم الشهر" فعربوها، فقالوا "مؤرخ" وجعلوا المصدر منها "التاريخ"[3]. وهو اشتقاق بعيد، لا يظهر فيه تقارب بين اللفظين العربي والفارسي .

ويتصل هذا القول – دون شك – بالخبر القائل بأن المسلمين تأثروا بالفرس في أخذهم تاريخ الهجرة تقويما لهم، إذ أشار الهرمزان الفارسي على عمر بن الخطاب بذلك[4]. ولكننا نرجح الرأي القائل بعربية الكلمة، وإن كنا لا نشاركهم في أنها مأخوذة من الأرخ، وإنما هي كلمة عربية قديمة مشتركة في اللغات السامية، تلوح القرابة بينها وبين كلمتي "يرح" التي معناها "القمر" و"الشهر" في العبرية[5]. ومن المعروف أن الساميين كانوا يحددون شهورهم بالقمر لا بالشمس، ولذلك كانوا يبنون تاريخهم على الليالي دون الأيام، كما هو الحال في التقويم الهجري الآن.

---

(١) لسان العرب، مادة "أرخ" .

(٢) المصدر السابق .

(٣) البيروني: الآثار الباقية ٢٩، والخوارزمي: مفاتيح العلوم ٧٩ .

(٤) نفس المرجعين .

(٥) جب : دائرة المعارف الإسلامية، مادة "تاريخ" .

وعلى هذا الرأى نرى أن معنى كلمة "التاريخ" فى مبدأ أمرها كان "تحديد الشهر"، ثم اتسع فصار التوقيت العام أى تحديد عهد أى حادث من الحوادث. ولا زالت اللغة فى تطورها حتى شمل هذا اللفظ رواية الحادث نفسه من جهة، وتحديده من جهة أخرى، وكانت هذه الخطوة الأخيرة فى سبيل بزوغ كلمة التاريخ بالمعنى الاصطلاحى المعروف .

وأطلق لفظ التاريخ فى عهده الأخير على عدة معان متقاربة. فهو بمعنى التاريخ العام، أى تسجيل أهم الحوادث كما يظهر فى تاريخ الطبرى قبل الإسلام والكتب الأخرى؛ وهو بمعنى الحوليات، أى تدوين الحوادث عاما فعاما مثل تاريخ الطبرى بعد الإسلام وتاريخ ابن الأثير وغيرهما؛ وهو بمعنى تدوين الأخبار مرتبة بحسب العصور، مثل سيرة معاوية وبنى أمية لعوانة بن الحكم؛ وهو بمعنى التراجم، كما نرى فى كتاب "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" لابن القفطى ومعجم ابن خلكان وغيرهما. وأطلق أيضا على مصنفات تختلف عن المصنفات التاريخية اختلافا كبيرا، مثل "تاريخ الهند" للبيرونى، إذ هو أقرب إلى مصنفات البحوث العقلية منه إلى المصنفات التاريخية. ويعنى إلى جانب هذه المعانى، المعنى اللغوى الأول، أعنى تحديد بداية الأخبار الخاصة بعصر من العصور، أو حساب الأزمان وحصرها، أو تحديد زمن وقوع الحوادث تحديدا دقيقا.

الفصل الأول

ظهور الكتابة التاريخية

العصر الجاهلى

تكلمنا – قبل – عن العصر الجاهلى، وما عرف فيه من كتابة. ولكننا إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية، لم نكد نظفر بشىء، حتى البلدان المتحضرة التى كنا نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها ورقيها، مثل اليمن والحيرة وغسان، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضا، وكان تاريخها نسيا منسيا لدى العرب، سكانها أو غير سكانها، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عندما أرادوا الكتابة عنها بعد ظهور الإسلام، وحلق بهم الخيال فى الأجواء، ما نستطيع أن نركن إلى حقيقة مما يقولون، على الرغم من النقوش الموجودة حتى اليوم على الآثار الباقية فى اليمن وشمال بلاد الحجاز وجنوبى الشام، مما يدل على جهل المؤرخين العرب بالخط الحميرى والخطوط الأخرى فى بلاد العرب القديمة. والشىء الوحيد الذى نسمع عنه هو المدونات التاريخية المودعة فى أديار الحيرة وكنائسها والتى اطلع عليها الكلبى فيما بعد، وإن كنا لا نعرف عنها شيئا فيما عدا ذلك[1].

ولا يمكننا الركون كثيرا إلى الوثائق التى تروى فى كتب التاريخ الإسلامى عن هذا العصر، وإنما نقابلها بالشك الشديد الذى تثيره فينا ظروف هذه الوثائق ومثالها الواضح تلك الوثيقة التى يذكرها أبو حنيفة الدينورى فى تاريخه أن عمر

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٣٧ .

ابن إبراهيم من ولد أبرهة بن الصباح آخر ملوك اليمن أرسلها إلى الكرنى حسب طلب الأخير[1]. وكانت هذه الوثيقة عبارة عن حلف عقد بين ربيعة واليمن أيام تبع ابن ملكيكرب. وعبارة الوثيقة مسجوعة، وفيها عدة إشارات إلى ضروب النسك الوثنى، وإن كانت تبدأ بعبارة إسلامية تقول: "بسم الله العلى الأعظم، الماجد المنعم"، وتنتهى بذكر الله وشهادته على الحلف كما كان يفعل المسلمون، إذ تقول: "وشهد الله الأجل، الذى ما شاء فعل" . ولا شك أن المرء حين يقع نظره على الرسالة يغمره الشك فيها من جميع الأنحاء .

الأيام

ولكن العرب – على الرغم من كل ذلك – عرفت نوعا من التاريخ الشفهى، فقد كانت القبائل تروى أيامها: حروبها وانتصاراتها، لتفخر بها على القبائل الأخرى، سواء كان ذلك شعرا خالصا أو نثرا تتخلله الأشعار. ولم تكن الصلة واحدة دواما بين الشعر والنثر فى الأخبار، فأحيانا يكون النثر شرحا للقصيدة، وأحيانا يكون الشعر مرتجلا على لسان أحد أبطال الخبر دون أن تربطه صلة بالخبر المنثور. وكان الشعر فى كلتا الحالتين هو الذى يحافظ على تناقل الخبر وانتشاره فلما نسيت هذه الاشعار نسيت الروايات القديمة، وابتكرت أشعار جديدة للتنويه بمآثر القبيلة. وعلى الرغم من كل ذلك فإننا نستطيع أن نطمئن إليها بعض الاطمئنان إذ لابد أنها تقوم على أساس واقعى، وإن اصطبغت بالتحيز والمغالاة .

الأنساب

وكانت كل قبيلة تحفظ نسبها، وتحفظه أبناءها، لتظل نقية بعيدة عن الشوائب

---

(١) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى: الأخبار الطوال ٣٥٢ .

ولتستطيع أن تفخر به على القبائل الأخرى وسيكون لهذا الفرع من التاريخ مكانتـه بعد الإسلام .

وهكذا وجدت هذه القصـص التاريخيـة المصبوغـة بالخرافـات والأسـاطير لـدى القبائل، وكانت كل قبيلة تعنى بما تعتبره تاريخهـا، وترويـه لأجيالهـا القادمـة. ولكـن عرب الشمال لم يصلوا بعد إلى تاريخ عام لهم، يشمل كل قبائلهم، إذ لم يكونوا قـد أدركوا معنى الوطن، ولم تكن وحَّدتهم الظروف في أمة واحدة .

تاريخ الأمم المجاورة

وعرف العرب تاريخ من جاورهم من الأمم، مثل الفرس والرومان، حتى ليقال إن النضر بن الحارث كان ينافس الرسول، ويُدل عليـه بمعارفـه عـن الفـرس. ولكـن ذلك التاريخ كان قصصا وخرافات، لا تختلف عما عند عرب الجنوب والشمال في أغلب الظن .

ظهور الإسلام

لما جاء الإسلام انتشرت في المملكة الإسـلامية فـي هـذا العهـد حركـة تاريخيـة أخذت تتسع وتنتظم شيئا فشيئا، حتى خلفت لنا ثروة أدبية من أغنى ثروات الأدب العربى، وكانت أهم العوامل التى بعثت تلك الحركة هى:

(١) احتاج المسلمون فى تفسير الآيات القرآنية إلى معرفـة مناسـباتها، أعنـى سـبب نزولها، والموضع الذى نزلت فيه، والحادثة التى تشير إليها، وما إلى ذلك ممـا يسـمى ما حول النص. ومن الواضـح أن معرفـة هـذه الأشـياء تحتـاج إلى بحـث تـاريخى فـى حوادث الإسلام، وهكذا كان التفسير من العوامل التى دعت إلى الكتابة التاريخية.

وقد أكثر القرآن أيضا من الإشارات إلى الأمم والقبـائل والأنبيـاء فـى قصصـه

عن الغابرين، فرغب علماء المسلمين فى فهم هذه الإشارات وتوضيحها. وكان الإسلام قد أظل كثيرا من اليهود والنصارى، فلجأ اليهم المسلمون ليعرفوهم بتلك الإشارات، فأخذ هؤلاء يحدثونهم بقصص التوراة والإنجيل وشروحهما، فربطها المسلمون بالتفسير والتاريخ، واشتهرت هذه الأخبار فى العلمين باسم "الإسرائيليات" . ويتمثل لنا ذلك فى كعب الأحبار (المتوفى عام ٣٤هـ) ووهب بن منبه (المتوفى عام ١١٠هـ) ولا تزال آثارهما فى كتب التاريخ والتفسير التى وصلت إلينا .

(٢) كان الحديث أيضا من عوامل ظهور الكتابة التاريخية، إذ عنى المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن، ويستنبطوا منها أحكام الدين. وكان من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة النبى والصحابة، فجُمعت فيما جمع، وكانت أساس كتب السيرة والمغازى فيما بعد .

(٣) شعر بعض الخلفاء أنهم محتاجون إلى نبراس يهتدون بهديه فى سلوكهم إذ لم يكن لهم تراث عربى يقتدون به، كما أنهم رأوا ممالك أجنبية بهرتهم حضارتها، فأحبوا أن يعرفوا كيفية سياستها ونظامها. فقد كثرت المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حتى هدمت نظام الخلافة، وأقامت نظام الملك. وواجه العقل العربى الذى كان ساذجا فى جاهليته، مشكلات حقيقة، منها ما يمس الدين والحضارة، ومنها ما يمس الحياة المادية والاجتماعية، فرأى ألا بد من الاستعانة بأخبار من سبقه من العقول ليستنير بها. روى المسعودى[١] عن معاوية أنه كان بعد أن يفرغ من عمله "يستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها، والعجم

---

(١) المسعودى: مروج الذهب ٢ : ٥١ .

وملوكها، وسياستها لرعيتها، وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة. ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها، والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وُكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات" .

(٤) كان الأجانب الذين أظلهم الإسلام يفخرون على العرب بتاريخهم وحضارتهم، ويروون لهم أفعالهم المجيدة في ماضيهم فاضطر العرب إلى ابتكار تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف بإزاء هذا الفخر الأجنبي، ويظهرون لأبنائهم الأخرى مجدا ومكانة. وكان هذا من دواعي ظهور الكتابة التاريخية في الأمة اليونانية أيضا .

(٥) كان نظام الحكومة الإسلامية، وخاصة النظام المالي، من العوامل التي أدت إلى قيام الحركة التاريخية وانتشارها، لأن الضرائب على البلدان المختلفة تتباين حسب فتحها صلحا، أو عنوة، أو بعهد، وكانت المعاملة السياسية والاجتماعية نفسها تختلف في بعض البلدان تبعا لما حدث في أثناء فتحها، فدعا كل ذلك، والنظام المالي خاصة، إلى بحث تاريخ الفتوح، والاهتمام بهذا الفرع من التاريخ .

ودعا النظام المالي إلى نشوء فرع آخر من التاريخ، وذلك لأن نظام العطاء تغير منذ عهد عمر، فصار بحسب الأسبقية إلى الإسلام، أي أن الذين أسلموا في أول الدعوة يأخذون من العطاء أكثر مما يأخذ من أسلم بعدهم، ومن أسلم وهاجر يأخذ أكثر من المسلم بعد الهجرة، ومن أسلم وشهد بدرا يأخذ أكثر ممن لم يشهدها من الذين أسلموا بعدها، وهلم جرا. وكان هذا النظام سببا في البحث الدقيق في الدعوة الإسلامية وانتشارها. كما كان العطاء مرتبا أيضا حسب الأنساب، أي يبدأ بقرابة النبي صلى الله عليه وسلم الأقرب، ثم قرابة أبي بكر، ثم عمر .. وهكذا في الأنصار، وفي جميع المسلمين. ومن الواضح أن هذا النظام يدعو إلى البحث في

الأنساب، وظهور هذا النوع من التاريخ، وظهور كتب الطبقات أيضا .

(٦) ابتداء حركة التأليف فى العلوم الأخرى المعروفة بين العرب فى ذلك الوقت، حتى إننا نجد صحارا العبدى يؤلف كتابا فى الأمثال. ثم يتطور الأمر بمرور الزمن فتترجم بعض كتب الكيمياء فى عهد خالد بن يزيد بن معاوية، ويأمر عمر بن عبد العزيز بجميع الحديث، وترجمة كتاب فى الطب، ويقول بعض الرواة إن عروة بن الزبير أحرق بعض كتب ألفها فى الفقه فى يوم الحرة[1]. كل هذه الحركة التأليفية تدل على أن العقل العربى كان يعانى تحولا خطيرا، وأنه آخذ فى التمدن السريع، والمشاركة فى التدوين والتأليف .

(٧) وآخر الأمر لا ننسى استمرار ما كان فى الجاهلية من عناية بالأنساب والأيام، ازدادت فى العهد الإسلامى، لأنها تغذى الشعراء فى ميدان الفخر والهجاء والنقائض التى شاعت فى هذا العصر، وكان لها المقام الأول فى شعر الفحول واتخذ هذا النوع من التاريخ لونا جديدا أيضا، هو العناية بغزوات الرسول. فما كان ذلك النوع من التاريخ إلا استمرارا لما عهد عند الجاهليين، إلا أن الإسلاميين قيدوا، والجاهليين حفظوا ورووا .

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٥ : ١٣٣ .

الباب الثالث

الفصل الثانى

المؤرخون وكتبهم

الكتاب الأول

اجتمعت العوامل السابقة فأشعلت الروح التاريخى فى المسلمين، فأخذوا ينظرون في هذا الفن، باحثين منقبين، وشرعوا يروون الأخبار التى يستطيعون الوصول إليها. ولكننا لا نلبث أن نرى هذه الأخبار الشفوية تدوّن فى عهد معاوية، فى رسائل صغيرة تسمى كتبا. وكان هذا تحولا خطيرا، يبشر بما سيتلوه من تقدم ورقى فى الدراسة التاريخية. ولا ندرى بالتحقيق ما أول كتاب ظهر فى التاريخ عند العرب. ولكن يتنازع الأسبقية زياد ابن أبيه (المتوفى عام ٥٣هـ) ودغفل النسابة البكرى (المتوفى عام ٦٠هـ) وعبد الله بن عباس (المتوفى عام ٦٨هـ) وعبيد ابن شرية الجرهمى (المتوفى عام ٧٠هـ تقريبا) .

زياد ابن أبيه

أما زياد ابن أبيه فقد ألف كتابا في مثالب العرب[1]. ولا يدهشنا ذلك كثيرا، إذ نعرف قصة نسب زياد، واستلحاق معاوية إياه، وكراهية المسلمين لذلك، بل

---

(١) ابن النديم: الفهرست ٨٩ .

سخرية بعض الشعراء من هذا الاستلحاق. ولذلك أراد أن يزود نفسه وأبناءه بسلاح يخيف به المتعرضين له، ويشعرهم بعدم نقصه، بل بنقص الآخرين فى هذه الناحية. ولذلك أرجح أنه كتاب فى الأنساب خاصة، وأنه ألفه بعد استلحاق معاوية إياه، وتعيير الناس له. ويؤسفنا أن هذا الكتاب فقد، ولم يبق لنا منه شىء، وإن كنا نرجح أن كتب الأنساب والشعوبيين المتأخرين أخذت عنه .

دغفل النسابة

أما كتاب دغفل النسابة فمجالس وأسمار، فى بلاط الخليفة معاوية بن أبى سفيان الذى كان محبا للمسامرة وأحاديث من مضى. ويسمى هذا الكتاب "التظافر والتناصر" . ويروى كتاب "التحفة البهية والطرفة الشهية"[١] المجلس الثامن عشر منه، فيقول: "ذكر فى كتاب التظافر والتناصر، وهو مجالس دغفل النسابة البكرى عند معاوية، وأنه سأله فى الثامن عشر من مجالسه، فقال: "من أبلغ العرب فى ثنائه؟" فقال دغفل: "ذاك النابغة الذبيانى حين دخل على الحارث بن أبى شمر الغسانى، يطلب إليه فى أسارى قومه، فقال: "ألا أنعم صباحا أيها الملك المبارك، السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك، وولدى فداؤك، والعرب وقاؤك، والعجم حماؤك، والحكماء وزراؤك، والعلماء جلساؤك، والمقاول إخوانك، والعقل شعارك، والحلم دثارك، والسكينة مهادك، والوقار غشاؤك، والبر وسادك، والصدق رداؤك، واليمن حذاؤك، والسخاء ظهارتك، والحياء بطانتك، والعلاء غايتك، وأكرم الأحياء أحياؤك، وأشرف الأجداد أجدادك، وخير الآباء آباؤك، وأفضل الأعمام أعمامك، وأسرى الأخوال أخوالك، وأعف النساء حلائلك .. " .

---

(١) ص٣٨ .

ونحن إذا صدقنا هذا القول ولم نذهب مع ابن النديم الذى ينص على أنه لم يصنف شيئا[1]، لا نستطيع أن نأخذ هذا المجلس حقيقة لا شك فيها. فإننا نرى الكلام ملازما للسجع، وفيه أشياء منافية لذلك العصر، ولم نعثر عليها فيه. كما نرى فيه نزعة إسلامية تسير مع قول القائلين بالتبشير بمحمد قبل ظهوره. ونحن إذا لم نشك فى هذا التكهن، فإننا نشك فى تكهن النابغة بإسلام الحارث. وإنه لم يسلم فعلا، وما أظن أنه كان يعد الإسلام فخرا له، فى عصره ذلك. ولكن هذا المجلس على كل حال، يبين لنا أن كتاب "التظافر والتناصر، إن كان وجد على الإطلاق، كان يعالج التاريخ الأدبى، ويبين مقدار عنايتهم بالسمر، وأثر هذا السمر فى تجويد العبارة وتحسينها .

ابن عباس

أما ابن عباس فقد نسب إليه بعض الرواة[2] مدونات استقى منها من بعده من المؤرخين. ولا يذكرون أن ابن عباس جعل من هذه المدونات كتابا خاصا أعطاه اسما معينا. وهى فى غالب الظن بعض مجالسه التى كان يفسر فيها القرآن، ويتعرض لمختلف المعارف العربية، دونها أحد تلاميذه أو أبنائه. ونحن لا نستطيع أن نتكلم عنها أكثر من ذلك، لأن ابن عباس من الذين حمل عليهم كثير من الأخبار فى كل فن .

عبيد بن شرية

أنتجت لنا مجالس معاوية الكتاب الرابع أيضا، إذ أشار عمرو بن العاص على معاوية باستدعاء عبيد، وسؤاله عن الأخبار المتقدمة، لما رآه فيه من حب المسامرة

(١) ابن النديم: الفهرست ٨٩ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٥ : ٢١٦.

والأخبار السالفة فأحضره واتخذه سميرا له، وأمر كتابه بتدوين أحاديثه ونسبتها إليه. فدونت تحت عنوان "كتاب الملوك وأخبار الماضين". كما يقول صاحب الفهرست[1] وقد طبع الجزء الذى وجد من الكتاب فى حيدر آباد باسم "أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها" ولا يزعجنا هذا الاختلاف كثيرا، لأن عبيدا نفسه لم يدونه، ولا عنونه كتاب معاوية، بل نسبوه إليه دون عنونة، كما يبدو. ومن ثم اختلف النساخ المختلفون فى عنوانه. ولا يبعد أن يكون لهذا الاختلاف أسباب أخرى غابت عنا. ويؤكد لنا العنوان نفسه أنه من وضع أناس غير عبيد، إذ تقول النسخة المطبوعة: "أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها على الوفاء والكمال، والحمد لله على كل حال". فتصريحه باسم عبيد، وقوله "على الوفاء والكمال"، يشعران بأن هذه العبارة كلها من كتابة شخص آخر غير المؤلف .

وحين نقلب صفحة العنوان نرى الكتاب يبدأ بالبسملة والحمد، ثم سند روايته: "حدثنا عبيد بن شرية الجرهمى، عن البرقى يرفع الحديث أن معاوية .. " وإذن فالكتاب من رواية البرقى، وهو تلميذ لابن هشام. وإذن فالمستر كرنكو J, Krenkow له دعامته التى يتكئ عليها، حين يستنتج من ذلك أن جامع الكتاب هو ابن هشام، وأن القائل "عن البرقى" أحد تلامذته. ولسنا نستبعد ذلك، ولكن نحب أن نتصفح الكتاب قبل الإدلاء برأينا .

يقدم الكاتب بين يدى الكتاب مقدمة، يشرح فيها ولاية معاوية وخلافته وحبه للسمر، وإشارة عمرو باستدعاء عبيد، وكبر سنه، وعلمه، وسمره، وسيطرته على قلب معاوية، وأمر الأخير بتدوين أقواله .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ٨٩ .

ويتناول عبيد فى هذا الكتاب تاريخ موطنه اليمن، بادئا باجتماع البشر فى بابل، ثم تفرقهم شيعا، وخروج بعض بنى سام إلى اليمن. ثم يأخذ فى سرد تاريخ هؤلاء اليمنيين، معتنيا بمن أرسل إليهم من أنبياء، وإن كان همه كله موجها للوكهم وغزواتهم فى بطون الأرض .

وينتهى الجزء الذى وصل إلينا بمقتل طسم وما قيل فيها من شعر. ويصرح الناسخ بأن الكتاب قد تم، ولكنه يعنى أنه كتب النسخة التى أمامه كلها فحسب، إذ الكتاب لم يتم، ولم تكمل أحبار عبيد، ولم تكمل أخبار طسم نفسها. ولعل مما يؤيدنا فى ذلك، أننا كنا ننتظر من كتبة معاوية إشارة إلى ما حدث لعبيد فى نهاية مجالس سمره .

وأول ما يلاحظ على الكتاب أنه ليس كتابا تاريخيا بالمعنى المصطلح عليه، وإنما هو مجالس سمر تاريخية مدونة. ولذلك يغلب عليه مايغلب على تلك المجالس من خصائص. فنرى الأسلوب الحوارى يشيع فيه[1]:

"قال معاوية: وما كان اللسان يومئذ؟

قال عبيد: سريانى أوله وآخره، وهو لسان أبينا آدم عليه السلام ونوح وإدريس.

قال معاوية: كيف اختصت أرض بابل باجتماع الناس فيها ؟

قال عبيد: هى سرة الأرض فى فضلها، وأراد الله ذلك بها .

ولكن الأمر الجميل الذى نحسبه لمعاوية أو لكاتبه، أنه كان لا يتدخل بالأسئلة فى بعض الفصول، ولذلك نراها تجرى دون أية مقاطعة، أو بمقاطعة لا تكاد تذكر.

---

(١) ص٣١٦ .

ومما يتصل بهـذا ويحسب للكـاتب، أنـه لم يفصـل بـين المجـالس المختلفـة، فاكتسب الكتاب ميزة حسنة، وهى الاتساق وعدم التقطع، كما نرى فى مجالس قصص ألـف ليلة وليلة مثلا. ولكننا خسرنا ميزة أخرى، هى عدم معرفتنا القدر الذى كان يقصه عبيد على معاوية، والمدة التى قضاها الاثنان فى سمرهما. ومما يتصل بهذا أيضا، أننا لا نرى أحدا من جلساء معاوية يظهر فى الكتاب، سائلا أو مجيبا إلا مرتين فى صدر الكتاب[1] .

ونحن نذكر – ولا شـك – تلـك المجـالس الأدبيـة التى كـانت تعقـد فـى بـلاد الأمويين، وخاصة بلاط معاويـة وعبـد الملـك، وكـانت مـن الأسـباب التـى طـورت الأدب والنقد الأدبى. ونذكر أيضا عناية هذه المجالس بالشعر، إذا كنا نذكـر ذلـك، فإننا لن ندهش حين نرى عبيدا يُعنى عناية شـديدة بالشـعر. ونـرى معاويـة – علـى الرغم من هذه العناية الشديدة – يلتمس منه الأشعار، فيقـول[2]: "وسـألتك ألا تمـر بشعر تحفظه فيما قاله أحـد إلا ذكرتـه"، ويقـول[3]: "فحدثنـى عـن لقمـان بـن عـاد صاحب النسور .. وما قيل فى ذلك من الشعر"، ويقول بعد أن يسـرد عبيـد بعـض الأخبار[4]: "فهل قيل فى ذلك شعر؟" وكان معاوية يطلـب منـه الشـعر للمسـامرة، ولسـبب آخـر غيرهـا، إذ كـان يعتـبر الشـعر الدليـل علـى صـدق الخبر، يقـول[5]: "وأبيك، لقد أتيت وذكرت عجبـا مـن حديثـك عـن عـاد، وقـد علمـت أن الشـعر ديوان العرب، والدليل علـى أحاديثهـا وأفعالهـا، والحـاكم بينهـم فـى الجاهليـة وقـد

---

(١) ٣١٣ ، ٣١٤ .

(٢) ٣١٤ .

(٣) ٣٥٦ .

(٤) ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤٢٣ ، وغيرها .

(٥) ٣٥٢ .

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم آله وسلم يقول: "إن من الشعر لحكما". ويقول[1]: "سألتك ألا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر، ولو ثلاثة أبيات". وكثيرا ما كان يقول لعبيد بعد أن يذكر ما طلب من الشعر[2]: "لقد جئت بالبرهان في حديثك".

والشعر الذى جاء به عبيد يمكن تقسيمه إلى أقسام ثلاثة: قسم ضعيف سخيف ركيك، ليس من الشعر الحق فى شيء، وهو موضوع على من نسب إليهم، وهو الغالب على الكتاب. ومن أمثلته ما ينسب لطسم بن لاوذ بن إرم، حين انتقل من بابل إلى بلاد العرب[3]:

إنى أنا طسم شبيه سام ووالدى لاوذ بن رام
لما رأيت من بنى أعمامى وإخوتى الرحيل باعتزام
قد اقتدوا بيعرب الهمام كرهت بعد إخوتى مقامى

وقسم آخر أجود من السابق، ولكنه من الموضوعات أيضا، ومن أمثلته ما ينسب لتبع[4]:

سيذكر قومى بعد موتى وقائعى وما فعلت قومى بقيس أفاعلا
فكم من ملوك قد قتلنا رجالهم وكم من نساء قد تركنا ثواكلا
وكم من أسير ظل فى القيد ساقه يبيت يراعى غله والسلاسلا
سيذكر قومى نجدتى ومكارمى وَيدخل باب العز من كان جاهلا
بنيت لهم مجدا مع النجم سمكه وصيرته للعالمين معاقلا

---

(١) ٣١٨ .
(٢) ٣٣٠ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، وغيرها .
(٣) ٣١٩ .
(٤) ٤٤٠ .

أما القسم الثالث فأشعار تنسب إلى شعراء معروفين، مثل العباس بن مرداس، وأعشى بنى وائل، وحسان بن ثابت، وأمية بن أبى الصلت، وامرئ القيس، وعبيد ابن الأبرص. والنابغة الذبيانى[1]. وقد وجدت هذه الأشعار فى دواوين أصحابها، وإن كانت قد تختلف فى بعض الألفاظ أو العبارات .

وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل فى عداد عبيد، إذ نراه يعنى فى بعض الأحيان بإيراد جملة من الأشعار بعد سرده الأخبار التى يعالجها، كما فعل بعد تناوله أخبار عاد وثمود. وكان عبيد يشعر بأن هذا هو المنهج الأكمل. قال له معاوية ذات مرة[2]. "أقيل فى ذلك شعر؟" فى أثناء كلامه، فقال: "نعم يا معاوية، قد قالت العرب فى ذلك شعر، فإن أحببت أنشدتكها، وإن شئت فى آخر الحديث، فإنه أصلح لحديثك" فقال معاوية: "أسمعنيها فى آخر الحديث فهو أحسن" .

ومن أجل السمر أيضا عنى عبيد ببعض القطع النثرية وجودها وهذبها، حتى لتلفت النظر من بين باقى الأخبار. وصارت شبيهة بما يسمى فى الأدب الغربى "القطع الأرجوانية"، يعنون بذلك الفقرات التى تلقى العناية التامة، على حين يهمل ما حولها من كلام. وتظهر هذه الفقرات أوضح ظهورها فى بعض الأحاديث، التى ينسبها عبيد لأبطال تاريخه، وفى بعض أوصافه للأجناس. فها هى ذى جارية من عاد تقول حين رأت ريح العقوبة[3]: "الويل لعاد، التى طغت فى البلاد، فأكثروا فيها الفساد. أرى رياحا كأمثال الجبال، لها لجم بأيدى رجال، كأن فى وجوهم شهب النار" . وهذا رجل وامرأته يتخاصمان أمام عمليق فى ابنهما، فتقول[4]: "إنى امرأة

---

(١) ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٧ ، ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، ٤٠٥ .
(٢) ٣٣٥ .
(٣) ٣٣٧ .
(٤) ٤٨٣ .

حملته تسعا، وأرضعته سبعا، ولم أر منه نفعا، حتى إذا تمت أوصاله، واستوى وصاله، أراد أن يأخذه كرها، ويتركنى ورها". فيقول زوجها: "أخذت المهر كاملا، ولم أصب منها طائلا، إلا وليدا جاهلا، فافعل ما كنت فاعلا" .

والكاتب فى هذه الفقرات لا يعرف من التجويد والزخرف غير السجع، بل إنه لسجع ضعيف غير جميل فى الغالب. ولا أدرى أذلك من التحريف الذى أصاب الكتاب أم من الكاتب نفسه. أما الأسلوب الغالب على الكتاب فبسيط عادى صريح، عاطل عن كل الحلى .

وظهرت فى الكتاب خاصة أخرى تظهر فى المسامرات، تلك هى الاستطراد. فكثيرا ما يذكر عبيد عرضا فى أثناء حديثه بعض الأشياء أو الأشخاص، فيسأله معاوية عنهم، فيضطر إلى الخروج إليهم، ثم يرجع إلى السياق الأصلى. وكان معاوية يشير عليه أحيانا بالرجوع إلى السياق قائلا: خذ فى حديثك"[1] أو "خذ فى حديثك الأول"[2] أو "دع هذا وخذ فى حديثك الأول"[3]. وكان معاوية يستعجل أحيانا بعض الحوادث، فيشير عليه عبيد بالتمهل[4] .

وكانت مجالس معاوية هذه استمرارا لمجالس السمر الجاهلية، ولذلك نرى موضوعات عبيد تغلب عليها الصبغة التى كانت تغلب على تلك المجالس. فغلب على أخباره الخيال البدائى المبالغ، بل المغرق فى المبالغة، وخرجت أخباره قصصا وخرافات وأساطير، عن ملوك اليمن، لا تختلف فى شىء عما كان فى الجاهلية، فى

---

(١) ٣٣٧ ، ٣٦٥ ، ٤٠٠ ، وغيرها .

(٢) ٤٠٨ .

(٣) ٤٥١ .

(٤) ٤١٣ .

غالب الظن. بل يمكننا أن نعتبر كتابه تدوينا للقصص التاريخية التى كانت شائعة فى الجاهلية، وخاصة في جنوب بلاد العرب. وهى قصص تاريخية، لا أخبار تاريخية، فلا نستطيع أن نخرج منها بأخبار تاريخية علمية، وإنما نظفر بأدب شعبى خيالى. ومما يكمل صورتها، ويقرب بينها وبين الجاهلية، تلك الأنساب التى تشيع فيها، حتى قلما يظهر شخص، دون أن تورد سلسلة نسبه، حقا كانت أو باطلة. وإذن نحن لا نبعد كثيرا عن الصواب، إذا عددنا كتاب عبيد مدونة تحوى الأخبار التاريخية، معالجة كما كان يعالجها الجاهليون، ولا يختلف عنهم إلا فى اعتمادها على القرآن في قصص الأنبياء والشعوب التى تعرض لها القرآن. ولعل عبيدا كان يضيق بالأخبار التى تناولها القرآن، لأنه لا يستطيع أن يتصرف فيها، أو يترك لخياله الحرية فى تناولها، أو يرويها كما وصلته عن الجاهلية، حتى ليقول لمعاوية حين سأله عن بلقيس والهدهد[1]: "قول ا لله أصدق، وقد أعلمتك لست بمحدث بشىء ليس فى القرآن، ولست بواصف خبرا بلغنى بعد ما قال ا لله تبارك وتعالى" واعتمد عبيد فى القصص القرآنية على ابن عباس كثيرا، فكان يقول لمعاوية: "سمعت ابن عمك"[2]، قاصدا عبد ا لله، وكان يصرح باسمه أحيانا[3] .

وكتاب عبيد ذو أهمية كبيرة، لا فى تطور حركة التأليف التاريخى فحسب، وإنما لأنه يكشف لنا النقاب عن الثقافات التى كان يعرفها العرب فى الصدر الأول من الإسلام، وربما التى كان يعرفها العرب فى الجاهلية، وخاصة فى اليمن، وأوضح ما تجده الثقافة الإسرائيلية التى تظهر بارزة في الكتاب كله. يظهر هذا فى الأخبار

---

(١) ٤٢٤ .

(٢) ٣٢٧ .

(٣) ٣٢٦ ، ٣٣٦ ، ٣٦٥ ، ٤١٥ ، وغيرها .

والأشخاص والأنساب والأسماء وغيرها، بل نراه أحيانا يذكر اسم أحد الأشخاص ثم يورد اسمه فى العبرية، فأبو إبراهيم آزر واسمه تارخ[1]، وعابر هو هود[2] .

هذا هو كتاب "أخبار عبيد بن شرية"؟، ملحمة من أجمل الملاحم العربية النثرية التى تتناول تاريخ العرب الجنوبيين، يلعب فيها الخيال دورا كبيرا، ويحليها الشعر والقطع النثرية الأرجوانية، والقصص الإسرائيلية المأخوذة من التوراة وأخبار الإسرائيليين، ملحمة تشبه الملاحم التى ستظهر فى العصور الإسلامية المتأخرة، من أمثال ملاحم عنترة والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة، ولكنها تمتاز عنها بسمو أسلوبها، وفصاحته العربية. ولعلنا لا نشتط كثيرا حين نقارنها بشاهنامة الفردوسى الشعرية، التى تتناول تاريخ الفرس منذ أقدم العصور حتى الفتح الإسلامى. ويؤسفنا كل الأسف ضياع الجزء الأخير منها .

وفى ختام الكلام عن أخبار عبيد نذكر أمرا كبير الأهمية، ذلك هو دخول بعض العناصر العريبة فيه. فهذا خبر يصدر بالإسناد التالى[3]: وذكر بعض أصحاب السير عن عبيد بن شرية بأمر هود (؟)، قال أخبرنى البحترى عن محمد بن إسحاق عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن وائلة الكنانى عن على بن أبى طالب صلوات الله عليه .. " وليس هذا بإسناد الكتاب، والخبر ليس منه، حتى ليقال بعد "رجع الحديث إلى عبيد بن شرية ومعاوية" ويعلق الناشر على هذا الخبر قائلا: "لعل هذه العبارة كانت حاشية، فأدمجها بعض النساخ فى الأصل، ومع ذلك فهذا عبيد بن شرية ليس له دخل فى هذه القصة" ولكنه ليس

---

(١) ٣١٥ .

(٢) ٣١٣ ، ٣١٥ .

(٣) ٣٥٠ .

خبرا واحدا. وإنما هى أخبار كثيرة من رواية محمد بن إسحاق وغيره، مثل وهب بن منبه[1]. ونحن لا نرى أن هذه الأخبار حواش، وأدخلها النساخ فى الكتاب، فإننا لا نستطيع أن نقول ذلك عن الخبر الآتى[2]: "ذكر عبيد أن شمر يرعش بنى نصبا فى السغد وكتب عليه "من بلغ هذا المكان فهو مثلى، ومن جاوزه فهو أفضل منى"، ثم قال عبيد: "وأنا أرجو أن يظهر ا لله أمير المؤمنين بذلك الموضع من الأرض، فيعلم أنى قد أديت إليه من حديثى علما" قال معاوية: "اللهم أرنا تصديق قول ابن شرية، فإنه يذكر عجبا، وإن شاء ربى فعل ذلك" فبلغنى عن الشعبى أنه ذكر عن رجل من خيوان همدان يقال له عبد ا لله، قال: "بينما نحن بالسغد مع قتيبة بن مسلم الباهلى، وافتتح سمرقند، إذ نظر إلى حجر ملصق على الباب فيه خطوط كأنها بالعربية وليست بها .. فقرأه على مثل ما ذكره عبيد لمعاوية، ورواه عنه من رواه". فهذا الخبر ليس من رواية عبيد، ولا ندرى منه من الذى يرويه عن الشعبى ولكننا نجد الخبر نفسه فى كتاب التيجان لوهب بن منبه مرويا عن ابن هشام[3]: "قال أبو محمد (بن هشام) حدثنى عامر بن جرهم الأنصارى، عن مكحول، عن الشعبى، قال: "حدثنى رجل من خيوان همدان .. الخ" إذن فهذا الخبر ليس من رواية عبيد، بل حدث بعد موته، وهو من صلب الكتاب، ولا يظهر عليه أنه مقحم فى هذا الموضوع. وكذلك نرى بعض الأسماء والأنساب والأشعار تختلف روايتها باختلاف المواضع، حتى أكثر الناشر من الإشارة إلى ذلك[4]، مما يجعلنا نظن أن هذه الاختلافات ترجع إل رواة مختلفين، لا عبيد وحده .

---

(١) ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ .
(٢) ٤٢٩ .
(٣) وهب بن منبه: التيجان ٢٣٧ .
(٤) ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، وغيرها .

وهناك أخبار أخرى منسوبة لعبيد، ولكننا لا نستطيع أن نصدق أنه يتفوه بها أمام معاوية. يقول[1]: "وبلغني أن أولاد بربر بن كنعان بن كوش بن حام الذين يزحفون لرجل من ولد فاطمة حتى يردوه إلى مكة، وهو صاحب العدل في آخر الزمان، وأصحابه يقال لهم: الغرباء" . قال له معاوية: "قلت الصواب إن شاء الله، وإن كلامك طيب وشفاء لما في الصدور". ولا شك أن هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن عبيد أمام معاوية. أما تعليق معاوية على كلامه فلا يحتاج إلى إنكار من أحد، فإنه أوهى مما يحتاج إلى الإنكار .

وينسب إلى عبيد أيضا أنه قال[2]: "وقد ذكرناها في كتابنا هذا". وهذه العبارة كبيرة الأهمية، لأنها تدل على أن القائل كان يتصور هذه الأخبار كتابا لا مجالس سمر، مما قد نستنتج منه أن الكتاب لم يكن مجالس حقيقة، وإنما مؤلف على نهج المجالس. لو أضفنا كل هذا إلى ما لاحظناه على العنوان والمقدمة، لخرجنا بأن الكتاب من جمع ابن هشام، وأنه عمل فيه ما عمل في سيرة ابن اسحاق، أو أنه دخلته عناصر غريبة كثيرة، بعضها مصرح بنسبتها، وبعضها غير مصرح .

ولكن الأستاذ كرنكو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيصرح بأن عبيد بن شرية شخص خيالي لا وجود له، وأن الكتاب من تأليف ابن هشام أو البرقي أو محمد بن إسحاق، مكملا به المؤلف ما ينقص كتاب وهب بن منبه من أخبار. ويستدل على ذلك بتلك الأخبار التي سميناها غريبة عن الكتاب، وبغيرها من الأدلة. ومنها عدم ورود ذكر لعبيد في كتب الرجال. ونحن لا نستطيع أن نذهب معه إلى هذا الحد،

---

(1) ٣٢٣ .

(2) ٣٦٧ .

كما لا نستطيع أن نرفض رأيه يقينا. فعدم ورود اسم عبيد فى كتب المحدثين دليل على أنه لم يرو الحديث، وليس بدليل على عدم وجوده. ولعل هذا الرأى غريب لأنه كان من المنتظر من رجل مثل عبيد، عنى بالتاريخ الجاهلى، أن يعنى كذلك بالتاريخ الإسلامى، فيؤدى ذلك بالمحدثين إلى الكلام عنه، ولو فى باب الضعفاء من المحدثين. كما أننا لو قلبنا صفحات كتاب المعمرين[1] نجد القصة التي يروون أنها جرت بينه وبين معاوية، تروى بأشكال مختلفة، ولكن متقاربة، على أنها حدثت لأفراد آخرين غيره من المعمرين. فهذه الدلائل تغرينا على السير إلى جانب الأستاذ كرنكو. ولكن الأمر اليقينى الذى لا يخامرنا فيه شك، أن الكتاب، بهذه الصورة الراهنة، ليس من تأليف عبيد بن شرية .

وهذه فقرة من الكتاب تبين لنا أسلوب عبيد، قال:[2]

"قال معاوية: فمن ملك بعده (بعد ذى القرنين) ؟

قال: "ملك بعده ملكى كرب بن أسعد بن تبع الأكبر بعد أبيه. وكان رجلا ضعيفا، لم يكن يغزو أحدا حتى مات ولم يبعث جيشا. فأما أهل اليمن فيزعمون أنه كان يتحرج من الدماء. وأما أهل الرأى والمعرفة والبصر بالأمور، فإنهم يقولون لم يكن ذلك منه إلا عن قلة التجربة وقلة الأنفة وصغر الهمة، لأنه لم يحدث دعوة فى ملكه، ولم يعبر عن دين ولا طريقة أحد ممن قبله .

قال معاوية : "وما تعبير حال الملك؟"

قال عبيد: "يا أمير المؤمنين. لم يكن يغير من شيء يفعله آباؤه، ولا أزال شيئا

---

(١) أبو حاتم السجستاني: كتاب المعمرين ٧ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ٨٧ .

(٢) ٤٣٩ .

من جبروت الملك، ولا أحدث تواضعا ولا قربا من الناس، ولا زال عن تجبره وعتوه، وأشد أمره باليمن لا يجاوز أرض اليمن إلى غيرها، "بلد عرب أو عجم" .

قال معاوية: "فكيف ملكهم يا عبيد، وكيف استقام لهم أمرهم على تلك الحال؟".

قال عبيد: "لأنهم أحبوا الدعة والسكون، وكانوا قد ملوا الغزو والحروب، وكثرة المسير فى البلدان" .

قال معاوية: "فكم ملكهم على هذا الحال؟"

قال: "ملكهم خمسا وثمانين سنة" .

قال معاوية: "فمن ملك بعده؟"

قال عبيد: "ملك ابنه تبع أسعد بن ملكيكرب" .

هذه هى الكتب التى ترجّح بينها الرأى فى اختيار الأول فى الظهور. ثم ظهرت كتب السير والمغازى التى تتناول حياة الرسول بالدرس. وقد رأينا أن من عوامل ظهور هذه الدراسة جمع الأحاديث، سواء ما تناول الناحية الفقهية، وما تناول الناحية التاريخية من حياته، بدافع من الرغبة الدينية. وكذلك كان العرب ينظرون إلى النبى نظرتهم إلى بطل من الأبطال وحّدهم وهيأهم لفتح الأمم، فعنوا بتاريخه كما عنوا بتاريخ أبطالهم فى الجاهلية. ولا ننسى مع ذلك أنهم أرادوا أن يضعوا الرسول صلى ا لله عليه وسلم بإزاء موسى وعيسى اللذين فخر بهما أهل الكتاب وألفوا عنهما الكتب، وأحاطوهما بالقصص الصحيحة وغير الصحيحة. كل أولئك وغيره اجتمع فأثمر كتب المغازى والسير، التى تعتبر بداية التأليف العلمى فى التاريخ لأنها كانت تستند إلى الأحاديث التى كان يراعى فيها الدقة إلى أبعد غاية، فأسبغت الأحاديث دقتها على التاريخ. ولذلك نشعر للوهلة الأولى بأنا نستند إلى

أساس علمي وثيق، حتى لو سلمنا في نفس الوقت بشيء من الشك في الأحاديث التي تناولت العهد المكي خاصة من حياة الرسول. وقد ترك هذا الارتباط بالأحاديث أثرا لا يمحى في أسلوب التأليف التاريخي، إذ كثرت مواطن التشابه بين النوعين. وكانت المدينة موطن هذه الدراسة، فلم يختص أحد بالتأليف في المغازي والسير قبل القرن الثاني من الهجرة خارجها .

أبان بن عثمان

أول من اشتهر بالتأليف في المغازي أبان بن عثمان بن عفان المتوفى عام ١٠٥هـ أو قبله. وكان أبان من علماء الحديث والفقه أيضا. يقول ابن سعد في أثناء حديثه عن المغيرة بن عبد الرحمن[1]: ".. وكان ثقة قليل الحديث، إلا مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أخذها من أبان بن عثمان، فكان كثيرا ما تقرأ عليه ويأمرنا بتعلمها" وكان المغيرة هذا في جيش مسلمة بن عبد الملك الذى توجه لحرب الروم عام ٩٦هـ، واسترجعه عمر بن عبد العزيز في عام ٩٩هـ[2]. ولذلك لا يمكن المغيرة أن يأخذ المغازى إلا عن أبان بن الخليفة عثمان، وليس عن أبان بن عثمان البجلي الشيعي، الذىعاش بعد ذلك التاريخ بجيل أو اثنين[3] .

ويبدو أن هذه المغازى التي رواها المغيرة عن أبان ليست كتابا بالمعنى الدقيق، وإنما هي مجموعة من المواد المتعلقة بحياة النبي. ويظهر أن هذه الأخبار ضاعت، ولم يأخذ عنها أحد من كتاب السير المتأخرين. فلم يأخذ عنه ابن إسحاق ولا ابن سعد (الجزء المخصص للسيرة من طبقاته). أما خبر أسر العباس وبعض بني هاشم

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٥ : ١٥٦ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٣٠٥ ، ١٣٤٦ .

(٣) هو روفلس: المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ص١٩ - ٢٦ .

الذى يرويه ابن سعد[1] عن أبان، عن معاية بن عمار، عن جعفر بن محمد (المتوفى عام ١٤٨هـ) فإنه يتضح من الإسناد أنه لا يقصد أباننا هذا، وإنما يقصد أبانا البجليّ الشيعى .

ولكن ابن سعد يذكر أبان بن الخليفة عثمان خارج السيرة، حين يروى الكلمات الأخيرة التى تفوه بها عمر بن الخطاب عند وفاته، وقد سمعها أبان من والده[2]. ويذكره ابن قتيبة أيضا فى الشعر والشعراء[3]، على أنه راوى الخبر القائل بأن معاوية اشترى البردة، التى أعطاها النبى لكعب بن زهير، مكافأة له عن قصيدته: بانت سعاد .. وأن الحكام كانوا يلبسونها فى الأعياد. وفيما عدا ذلك لا يوجد لأبان ذكر فى كتب التاريخ، وإن كانت كتب الحديث تكثر من ذكره .

عروة بن الزبير

عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤هـ من معاصرى أبان، الذين ألفوا فى التاريخ، ولم يقتصر عروة على الروايات الشفوية، بل دون بعض الأحداث التى طلبها منه عبد الملك بن مروان، أو ابن أبى هنيدة، الذى كان فى بلاط الوليد، فى رسائل بعثها إليهما. وقد وصل إلينا بعض هذه الرسائل فى صفحات ابن إسحاق، والواقدى، والطبرى .

تتناول رسالة عروة الأولى إلى عبد الملك هجرة الحبشة[4] . وتتناول الثانية

---

(١) ابن سعد: الطبقات ٤ : ٢٩ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ٣ : ٢٦٢ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١٠٦ .

(٤) نفس المرجع ١ : ١١٨٠ .

موقعة بدر[١] ، والثالثة تتناول فتح مكة[٢] . وتناول عروة أيضا وفاة خديجة، وهجرة النبى والصحابة إلى المدينة، وخبر زواج النبى من أخت الأشعث بن قيس. وقد روى هذه الأخبار عنه ابنه هشام. أما رسالته لابن أبى هنيدة فرواها الزهرى، وتتناول المناسبة التاريخية للآية العاشرة من السورة الستين[٣] .

وتمثل كتابات عروة المشار إليها أقدم المدونات التى وصلت إلينا عن بعض الحوادث الخاصة فى حياة النبى، كما تمثل أقدم آثار الكتابة التاريخية العربية. ولا تذكر المراجع القديمة أى كتاب ألفه عروة عن المغازى، ولكن حاجى خليفة يقول إنه أول من صنف فى المغازى[٤] . ولم يعن عروة بجمع الأخبار عن جميع فترات حياة النبى فحسب، بل عنى أيضا بحوادث الخلفاء الأولين أيضا، فنراه يعالج وقعتى القادسية واليرموك وبعض حوادث فتوح الشام[٥] . ويعنى أيضا بتاريخ الزبيريين، ولذلك نرى أكثر أخبار الحزب الزبيرى وحروبه وفتنه مروية عنه فى الكتب التاريخية مثل الطبرى وحلية الأولياء أو الكتب الأدبية مثل الأغانى[٦] .

وتمتاز كتابات عروة بأنها لا تهمل الإسناد إهمالا تاما، كما أنها لا تعنى به عناية متشددة. فهو أحيانا لا يذكره وأحيانا يذكره[٧] . ولذلك يكون من الخطأ أن نتهم عروة بتهمة إغفال الأسانيد، وإنما نقول إن الإسناد أصبح عادة فى ذلك

---

(١) نفس المرجع ١٢٨٤ .

(٢) الطبرى: تاريخ ١ : ١٦٣٤ .

(٣) ابن هشام: السيرة ٣ : ٣٤٠ . والطبرى: التفسير ٨ : ٤٢ .

(٤) كشف الظنون ٥ ٦٤٦ .

(٥) الطبرى: تاريخ ١ : ١١٨٥ ، ١١٩٩ ، ١٢٤٢ وغيرها .

(٦) انظر فهرست الطبرى والأغانى والفصل المخصص لعبد الله بن الزبير فى الحلية .

(٧) الطبرى : تاريخ ١ : ١١٤٠ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٥٤ ، ١١٦٧ وغيرها .

الوقت، ولكنه لم يصبح بعد ضربة لازب على كل مؤلف فى التاريخ. وتمتاز كتاباته أيضا بأنها تعنى بالإشارات القرآنية إلى الحوادث الإسلامية، فتحاول شرحها، كما أشرنا من قبل. بل إنه يتجاوز ذلك إلى استعمال الألفاظ القرآنية فى كتاباته، لتشير إلى مدلولها القرآنى، مثل استعماله لكلمة "الفتنة" فى حديثه عن الهجرتين الحبشية والمدنية، متبعا الآية الأربعين من السورة الثامنة. ولا يعنى عروة بالأحاديث وحدها، وإنما يعنى أيضا بالوثائق المكتوبة، مثل رسالة النبى إلى أهل هجر، وإلى زرعة بن ذى يزن، وإلى عبد الله بن جحش[1]. وعلى الرغم من فقه عروة ودينه لم يكن خصما للشعر، ينثره فى الحوادث على لسان المشتركين فيها، مثله فى ذلك مثل النموذج المعروف عن التاريخ الجاهلى. ولكن يبدو أن هذا الدين كان له أثره فى ناحية أخرى، تلك هو خوفه من إبداء رأيه فى الحوادث، وإنما يتبع المأثور والحديث، كما يقول ابنه هشام[2] . ولعل ذلك هو الذى جعله يروى فى تاريخه بعض الأخبار التى لا نستطيع تصديقها بسهولة، وربما كانت هذه الأخبار من أثر أجنبى، يهودى أو حبشى أو نصرانى .

وهذه إحدى رسائل عروة التى أرسلها إلى عبد الملك بن مروان[3] :

"ثنا أبان العطار قال، ثنا هشام بن عروة، عن عروة، أنه كتب إلى عبد الملك".

"أما بعد؛

"فإنك كتبت إلىّ فى أبى سفيان ومخرجه، تسألنى كيف كان شأنه؟ كان من شأنه أن أبا سفيان بن حرب أقبل من الشام فى قريب من سبعين راكبا من قبائل

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ٦٩ ، ٧٩ . والطبرى : تاريخ ١ : ١٢٧٣ .

(٢) ابن حجر: تهذيب ٧ : ١٨٣ .

(٣) الطبرى: تاريخ ١ : ١٢٨٤ .

قريش كلها، كانوا تجارا بالشام، فأقبلوا جميعا معهم أموالهم وتجارتهم. فذكروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد كانت الحرب بينهم قبل ذلك، فقتلت قتلى وقتل ابن الحضرمى فى ناس بنخلة، وأسرت أسارى من قريش فيهم بعض بنى المغيرة، وفيهم ابن كيسان مولاهم، أصابهم عبد الله بن جحش وواقد حليف بنى عدى بن كعب فى ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعثهم مع عبد الله بن جحش. وكانت تلك الوقعة هاجت الحرب بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش، وأول ما أصاب بعضهم بعضا من الحرب، وذلك قبل مخرج أبى سفيان وأصحابه إلى الشام.

ثم إن أبا سفيان أقبل بعد ذلك ومن معه من ركبان قريش مقبلين من الشام، فسلكوا طريق الساحل. فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ندب أصحابه، وحدثهم بما معهم من الأموال، وبقلة عددهم فخرجوا لا يريدون إلا أبا سفيان والركب معه، لا يرونها إلا غنيمة لهم، لا يظنون أن يكون كبير قتال إذا لقوهم. وهى التى أنزل الله عز وجل فيها "وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم" فلما سمع أبو سفيان أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معترضون له، بعث إلى قريش أن محمدا وأصحابه معترضون لكم، فأجيروا تجارتكم. فلما أتى قريشا الخبر، وفى عير أبى سفيان من بطون كعب بن لؤى كلها، نفر لها أهل مكة. وهى نفرة بنى كعب بن لؤى، ليس فيها من بنى عامر أحد إلا ما كان من بنى مالك ابن حسل. ولم يسمع بنفرة قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه، حتى قدم النبى صلى الله عليه وسلم بدرا. وكان طريق ركبان قريش من أخذ منهم طريق الساحل إلى الشام، فخفض أبو سفيان عن بدر، ولزم طريق الساحل، وخاف الرصد على بدر، وسار النبى صلى الله عليه وسلم حتى عرس قريبا من بدر. وبعث

النبى صلى ا لله عليه وسلم الزبير بن العوام فـى عصابة من أصحابه إلى ماء بدر، وليسوا يحسبون أن قريشا خرجت لهم. فبينما النبى صلى ا لله عليه وسلم قائم يصلى، إذ ورد بعض روايا قريش ماء بدر، وفيمن ورد من الروايا غلام لبنى الحجاج أسود. فأخذه النفر الذين بعثهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم مع الزبير إلى الماء، وأفلت بعض أصحاب العبد نحو قريش فأقبلوا به حتى أتوا به رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، وهو فى معرسه. فسألوه عن أبى سفيان وأصحابه، لا يحسبون إلا أنه معهم. وطفق العبد يحدثهم عن قريش ومن خرج منها، وعن رؤوسهم ويصدقهم الخبر، وهم أكره شيء إليهم الخبر الذى يخبرهم، وإنما يطلبون حينئذ بالركب أبا سفيان وأصحابه، والنبى صلى ا لله عليه وسلم، يركع ويسجد ويسمع ما يصنَع بالعبد. فطفقوا إذا ذكر لهم أنها قريش جاءتهم ضربوه وكذبوه وقالوا: إنما تكتمنا أبا سفيان وأصحابه. فجعل العبد إذا أذلقوه بالضرب، وسألوه عن أبى سفيان وأصحابه، وليس له بهم علم، إنما هو من روايا قريش، قال: "نعم هذا أبو سفيان" والركب حينئذ أسفل منهم، كما قال ا لله عز وجل "إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم" حتى بلغ "أمرا كان مفعولا" فطفقوا إذا قال لهم العبد: هذه قريش قد أتتكم، ضربوه. وإذا قال لهم، هذا أبو سفيان: تركوه. فلما رأى صنيعهم النبى صلى ا لله عليه وسلم انصرف من صلاته، وقد سمع الذى أخبرهم، فزعموا أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال: والذى نفسى بيده، إنكم لتضربونه إذا صدق، وتتركونه إذا كذب. قالوا: فإنه يحدثنا أن قريشا قد جاءت. قال: فإنه قد صدق، قد خرجت قريش تجير ركابها. فدعا الغلام فسأله، فأخبره بقريش، وقال: لا علم لى بأبى سفيان. فسأله "كم القوم"؟ فقال: "لا أدرى وا لله هم كثير عددهم". فزعموا أن النبى صلى ا لله عليه

وسلم قال: "من أطعمهم أول من أمس"؟ فسمى رجلا أطعمهم فقال: "كم جزائر نحر لهم" قال: "تسع جزائر" قال: "فمن أطعمهم أمس". فسمى رجلا. فقال: "كم نحر لهم" قال:"عشر جزائر" فزعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال "القوم ما بين التسعمئة إلى الألف" فكان نفرة قريش يومئذ خمسين وتسعمئة. فانطلق النبى صلى الله عليه وسلم فنزل الماء، وملأ الحياض، وصف عليها أصحابه حتى قدم عليه القوم. فلما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرا، قال: هذه مصارعهم. فوجدوا النبى صلى الله عليه وسلم قد سبقهم إليه ونزل عليه، فلما طلعوا عليه زعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: هذه قريش قد جاءت بجلبتها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى. فلما أقبلوا استقبلهم فحثا فى وجوهم التراب فهزمهم الله. وكانوا قبل أن يلقاهم النبى صلى الله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبى سفيان، والركب الذين معه: أن ارجعوا، ويأمرون قريشا بالجحفة، فقالوا: والله لا نرجع حتى ننزل بدرا فنقيم به ثلاث ليال، ويرانا من غشيناه من أهل الحجاز. فإنه لن يرانا أحد من العرب وما جمعنا فيقاتلنا. وهم الذين قال الله عز وجل "الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس" فالتقوا هم والنبى صلى الله عليه وسلم ففتح الله على رسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المسلمين منهم".

وإذا أحببنا أن نعرف طريقة عروة فى التأليف من هذه الرسالة، نجده يعنى فى سرده الغزوة بالمقدمات التى سبقتها وأدت إلى وقوعها، ويعنى فى أثناء السرد بإقامة الأدلة على صحة ما يقول من الآيات القرآنية، ونجده يشير إلى الأشياء التى لا يطمئن إليها، أو يخاف أن يتحمل مسئوليتها بكلمة "زعموا"، كما حدث فى روايته عدد قريش والأقوال المنسوبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن يبدو أنه كانت تأخذه أحيانا حماسة السرد، فينساق وراء الموضوع الرئيسى، ويترك بعض

التفاصيل، فيرجع إليها بعد ما ينتهى، ويقـول مثلا: "وكـانوا قبـل أن يلقـاهم النبـى صلى ا لله عليه وسلم قد جاءهم راكب من أبى سفيان" .

هذا ما نستطيع أن نستخلصه من هـذه الرسالة، إلى جانب تذوقنا لأسلوبه البسيط، الذى لا يخلو من فصاحة عربية غير متكلفة، بل عاطفة صادقة يحسها القارئ فى ثنايا الوصف.

وهب بن منبه

أما وهب بن منبه المتوفى ١١٠هـ فليس من المدينة، ولكن من ذمار بجوار صنعاء عاصمة اليمن. ولا تذكره كتب السيرة القديمة على أنه أحد رواة السيرة، ولكن حاجى خليفة(١) يقول عنه: إنه جمع المغازى. وقد تبين صدقه، إذ اكتشف بيكر بين مجموعة أوراق بردى شُتْ رينهاردت، المحفوظة فى هيدلبرج مجلدا يحتوى على قطعة من هذه المغازى. وتتناول قطعة هيدلبرج تاريخ العقبة الكبرى، واجتماع قريش فى دار الندوة، والهجرة، وغزوة بنى خيثمة، مما يدلنا على أن وهبا تناول الفترة المكية والمدنية من حياة الرسول. ويقول بعض من رأى هذه القطعة إن وهبا يهمل فيها الإسناد، ويعنى بالشعر(٢) .

وحفظت حلية الأولياء لوهب قطعتين من المغازى، تتناول الأولى فتح مكة(٣)، والثانية وفاة النبى صلى ا لله عليه وسلم(٤). وهو يذكر الإسناد فى القطعتين. وهذه هى القطعة الثانية يقول فيها: "فلما كان يوم الأحد ثقل فى مرضه، فأذن بلال

---

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون رقم ١٢٤٦٤ .

(٢) هوروفتس: كتب المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف، ص٤٣ – ٥٢ .

(٣) الأصبهانى: الحلية ٤ : ٧٩ .

(٤) نفس المرجع ٧٣ .

بالأذان ثم وقف بالباب، فنادى "السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، الصلاة، يرحمك الله" فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال، فقالت فاطمة: "يا بلال، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم مشغول بنفسه". فدخل بلال المسجد، فلما أسفر الصبح قال: "والله، لا أقيمها أو أستأذن سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم". فرجع وقام بالباب ونادى: "السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله، الصلاة، يرحمك الله". فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت بلال، فقال: "ادخل يا بلال، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغول بنفسه، مر أبا بكر يصلى بالناس". فخرج ويده على أم رأسه وهو يقول: "واغوثاه بالله، وانقطاع رجائى، وانقصام ظهرى. ليتنى لم تلدنى أمى، وإذ ولدتى ليتنى لم أشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا اليوم" ثم قال: "يا أبا بكر: ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك أن تصلى بالناس". فتقدم أبو بكر رضى الله عنه للناس، وكان رجلا رقيقا، فلما نظر إلى خلو المكان من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتمالك أن خر مغشيا عليه، وصاح المسلمون بالبكاء .. فلما كان فى الاثنين اشتد به الوجع، وأوحى الله تعالى إلى ملك الموت عليه السلام، أن اهبط إلى حبيبى وصفيى محمد صلى الله عليه وسلم فى أحسن صورة، وارفق به فى قبض روحه. فهبط ملك الموت عليه السلام فوقف بالباب شبه أعرابى، ثم قال: "السلام عليكم، يا أهل بيت النبوة .." .

وهذه الفقرة طويلة مفصلة، ولكن قارئها لا يسعه إلا أن يشك فيها الشك الشديد، فأسلوبها مما لا نألفه فى أساليب تلك الفترة، وعباراتها غريبة عن الرجل العربى الذى يعيش فى ذلك العصر، وقد لعب فيها الخيال دورا كبيرا. ولذلك إذا صحت نسبتها لوهب، فإننا لا نستطيع أن نطلق عليه لفظ مؤرخ، وإنما يلائمه لفظ قصاص .

ويجب أن نذكر أن وهبا اتجه فى التاريخ وجهة جديدة لم تعن بها مدرسة المدينة قبله، تلك هى عنايته بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ وطنه اليمن. فالأستاذ هوروفتس ينسب لوهب "كتاب المبتدأ" الذى عزاه ابن النديم لحفيده عبد المنعم[1]. ويرى أن العنوان يشير إلى مبتدأ الخلق. ولكننا لا نرى داعيا لهذا، نرى أنه ربما جمع عبد المنعم مواد كتابه مما فى كتب وهب الأخرى، وخاصة كتابه فى تاريخ اليمن، الذى عنى فيه بتاريخ الخليقة والأنبياء. ولم يعن وهب بالأنبياء وحدهم بل بالعباد أيضا[2] ولعل الكتاب الذى ينسبه إليه حاجى خليفة عن "الأخبار[3]" هو نفس كتابه عن العباد .

ويعتمد وهب فى جميع هذه الكتب على أخبار أهل الكتاب، يهودا ومسيحيين، اعتمادا شديدا. وقد اشتهر بذلك حتى قيل عنه إنه قرأ ٧٠ أو ٧٢ أو ٧٣ أو ٩٢ من كتبهم المقدسة[4]. ولكننا لا نستطيع الاطمئنان إلى هذا القول، وإنما نرجح أنه استقى هذه الأخبار من أهل الكتاب الذين اتصل بهم فى موطنه اليمن، الذى اشتهر منذ الجاهلية باستيطان هاتين الديانتين وتصارعهما فيه. بل بلغ الأمر بهذه الشهرة إلى حد أن نسب إلى وهب كتاب يسمى "الإسرائيليات"، كما يقول حاجى خليفة[5]. ولكن ياقوتا يقول عنه إنه كان "كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالإسرائيليات"[6]، أى يستعمل اللفظ وصفا لمصادر وهب، عنوانا لأحد

(١) ابن النديم : الفهرست ٩٤ .

(٢) ابن سعد: الطبقات ج٧ من القسم الثانى ص٩٧ .

(٣) حاجى خليفة: كشف الظنون ٤ : ٥١٨ .

(٤) ابن سعد: الطبقات ٥ : ٣٩٥ وكتاب التيجان ٢ .

(٥) حاجى خليفة: كشف الظنون ٥ : ٤٠ .

(٦) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ .

كتبه ولذلك يرجح أن كتاب الإسرائيليات هذا عبارة عن مجموعة الأخبار التى استقاها وهب من أهل الكتاب جمعها بعض المتأخرين، وزاد عليها حتى صارت كتابا، عرفه حاجى خليفة بذلك الاسم. وقد قام بتلك المحاولة ثانية شوفان[1]، ولكنها مخفقة، لأن هذه الأخبار غير كافية لتكوين كتاب، ولأنها دخلها كثير من الانتحال حتى عارض بعضها بعضا، وكثر فيها الخلط والتشويش. ولا يلام وهب كل اللوم على هذا الخطأ والتعارض، لأن الأخبار الصحيحة عنه تطابق أخبار أهل الكتاب مطابقة كثيرة. وما شذ عن ذلك يرجع إلى تغيير نفس المصادر التى استقى منها وهب، أو إلى تغيير منه لتلائم الذوق الشعبى، أو هى من عمل المتأخرين الذين غيروا فيها لتلائم القصص الشعبى .

والأمر الثانى الذى يمتاز به وهب هو كتابة تاريخ وطنه اليمن الخرافى القديم، فى رسالة خاصة تسمى "كتاب الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم"، كما يقول ياقوت[2]. ولسوء الحظ لم يصل إلينا هذا الكتاب، وإنما وصل إلينا كتاب يسمى "كتاب التيجان فى ملوك حمير". وهو من رواية أبى محمد عبد الملك بن هشام عن أسد بن موسى عن أبى إدريس بن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه. ولكن كل من يتصفح الكتاب يستطيع أن يرى بسهولة أنه ليس كله لوهب، وإنما تصرف يه ابن هشام تصرفه فى سيرة ابن إسحاق، وإن كان لا يصرح بذلك كما فعل فى السيرة. ولذلك لا نستطيع أن نعرف مدى تصرفه، غير أننا يمكننا أن نعرف الإضافات التى جلبها من روايات أخرى، صرح بسندها فهو يروى أخبارا عن محمد بن إسحاق عن طريق تلميذه

---

(١) النسخة المصرية من ألف ليلة وليلة ٥٧ .

(٢) ياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٢٣٢ .

البكائي الذى روى السيرة[1]، أو عن طريق تلميذه الآخر والمسمى أبا عباد الهمداني[2]، ويروى عن أبي مخنف[3]، وعن محمد بن السائب الكلبي[4]، وعن عبيد ابن شرية[5]، وعن بعض المحدثين[6] ولكنه إلى جانب ذلك يروى مجموعة كبيرة من الأخبار التى لا يسندها إلى أحد[7]. وهى بالطبع ترجع إلى رواة مختلفين، قد يكون منهم وهب نفسه[8]. والأمر الجدير بالملاحظة أننا نرى جل الأخبار قبل الصفحة المئة من الكتاب منسوبة إلى وهب، ولكنها تقل شيئا فشيئا حتى تكاد تنعدم بعد ذلك .

والكتاب كما قلنا يتناول تاريخ اليمن، فيبدأ بخلق العالم، وقصص آدم وأولاده، حتى عهد نوح وأولاده. ثم يلتفت وهب إلى العرب من الساميين، وإلى عرب الجنوب خاصة، ويسرد تاريخ أقيالهم وملوكهم، ويعنى بغزواتهم فى أرجاء الأرض، ويذكر هجرة عمرو بن عامر من اليمن إلى شمال بلاد العرب، كما يذكر ملوك غسان .

ولا يختلف كتاب التيجان لوهب كثيرا عن كتاب عبيد بن شرية فى طريقة العرض. فهما يطلقان لخيالهما العنان فى تصوير الوقائع، ويلونان الحوادث التاريخية بأطياف خيالية قد تخرج بها إلى حد الخيال والأسطورة، كما يدخلان فى تاريخهما

---

(١) كتاب التيجان ٧٥ ، ١١٥ ، ١٢٨ وغيرها .

(٢) ٢٥١ .

(٣) ١٢٥ ، ١٨٠ .

(٤) ١٣٢ ، ٢١٣ ، ٢٤٠ .

(٥) ٦٦ ، ٢٠٩ .

(٦) ١١١ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ٢٣٧ وغيرها .

(٧) ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٢٦ وغيرها .

(٨) ٢٥٥ ، وانظر حلية الأولياء جـ٤ .

الكثير من الحوادث التى لا أصل لها، ولذلك يصدق عليهما اسم القصص التاريخى أكثر من أى نعت آخر. ونحن نعدهما امتدادا للحركة القصصية التاريخية التى كانت موجودة فى الجاهلية. ولعل الذى نسخ الكتابين فى نسخة واحدة رجل حكيم، عرف منهما مواطن الشبه هذه، التى تجعلنا لا نجد بينهما كبير فرق .

ويكشف هذا الكتاب عن بعض خصائص وهب، فهو مثل الجاهليين مغرم بالشعر، مكثر من روايته. وأكثر هذا الشعر منحول سخيف ركيك، ينسب وهب إلى آدم أنه قال حين قتل هابيل[1] .

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
وجاورنا عدو ليس يهدى لعين لا يموت فأستريح
أيا هابيل يا ثمر الفؤاد أبعد العين مسكنك الضريح
محل تخلق الأجساد فيه ويبلى عنده الوجه الصبيح
فعينى لا تجف عليك سحا وقلبى الدهر محزون قريح

ولكن هناك بعض أشعار جيدة. ينسب إلى عبد شمس أنه قال يوصى ابنه بابليون[2]:

ألا قل لبابليون والقول حكمة ملكت زمام الشرق والغرب فاجمل
وخذ لبنى حام من الأمر وسطه فإن صدفوا يوما عن الحق فاقتل
وإن جنحوا بالقول للرفق طاعة يريدون وجه الحق والعدل فاعدل
ولا تظهرن الرأى فى الناس يجتزوا عليك به، واجعله ضربة فيصل
ولا تأخذن المال من غير وجهه فإنك إن تأخذه بالرفق تسهل

---

(١) ١٧ .
(٢) ٤٩ .

ويروى وهب أيضا بعض أشعار ينسبها للنابغة الذبياني، ولبيد، والأعشى، وامرئ القيس[١]. أما بيت النابغة ومقطوعة لبيد فهما في ديوانيهما، وأما مقطوعتا الأعشى وامرئ القيس فلم أجدهما في ديوانيهما المطبوعين .

وقد تأثر وهب بالقرآن أيضا في القصص التي ورد ذكرها فيه، فيحاول أن يتبع خطاه، وأن يستند إلى آياته. يقول في وصفه الخلق[٢]: "فاضطرب الماء وهاج، فاصطفق، فأزبد، فصار أرضا، فخلق الله الحوت والبحر من ذلك الزبد ثم رفع الله السماء وهي دخان "فقال لها وللأرض آئتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين" وخلق الملائكة، وأوحى في كل سماء أمرها، أسكنهم السماوات يسبحون ويهللون ويقدسون الواحد القهار، وخلق الجبال في الأرض أوتادا" .

وتظهر عند وهب نزعة إسلامية واضحة، فهو يعني بجلب آراء العلماء المختلفين في بعض المواضع، مثل اختلافاتهم في خلق الجنة، وفي قتل قابيل هابيل[٣].

وأسلوب وهب في كتابه بسيط صريح منطلق لا تثقله أي حلي، ولا يقف عند زينة، ولكن نجد عنده القطع الأرجوانية التي تكلمنا عنها في أثناء حديثنا عن عبيد، تلك القطع رسائل المشتركين في الحوادث وخطبهم وشيء من حوارهم قال وهب[٤]: "ولما أراد الله إتمام أمره، وإظهار العربية، أنزل كتابا مقطعا، وهو:

---

(١) ٧٦ ، ٧٧ ، ١١٥ .

(٢) ٣ .

(٣) ٢٦ .

(٤) ٢٦ .

"شهد الله بالحق، بسم الله الرحمن الرحيم، شهد الله أنه لا إله إلا هو، والملائكة، وأولو العلم، قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. حكم الحى القيوم أنه إذا اعتكر الزمان، وكثر النسيان، وحكم فى ذرية آدم الشيطان، وغلب هذا اللسان، فعبدت الأوثان، وقتل الولدان: أن يبعث الله محمدا بالعدل والبيان، يصدع بالقرآن، وينصر الإيمان، زمان ظهور السودان، نبى لا نبى بعده، ولم يخلف الله وعده .."

وتذكرنا هذه القطع الأرجوانية بالشاعر الشعبى فى المقاهى فى مصر، إذ نراه يقص حكايته بأسلوب بسيط منطلق، حتى يأتى إلى حديث أبطال قصصه وخطبهم، ورسائلهم، فنرى أسلوبه يرتفع ويجمل، بل نراه يفخم من لهجته وينطق بها متعملا متزويا. ولا يظهر فى هذه القطع الأرجوانية من الحلى إلا السجع والازدواج وتوازن العبارات. ويبدو أن وهبا كان عارفا باللغة وأساليبها الأدبية. يقول فى شرحه للآية "لا عاصم اليوم من أمر الله" فى أثناء كلامه عن نوح[(1)]: "والعرب تجعل فاعل فى موضع مفعول، قال الله: "فى عيشة راضية" و "ماء دافق" أى "مرضية ومدفوق" .

وأخيرا فى تاريخ وهب ما وجدناه فى مواعظه من إسرائيليات تنفذ إليه وتشيع فيه، وخاصة أن الموضوعات التى تناولها كانت تساعد على هذا الانتشار وأظهر ما تتضح هذه الإسرائيليات فى الجزء الأول من الكتاب الذى يعالج فيه المؤلف كيفية خلق العالم وآدم وأولاده حتى نوح عليه السلام وأبنائه الثلاثة. كما يشتد وضوحها أيضا فى تناوله لقصة بلقيس وسليمان. ويبدو أن وهبا كان يحسن

---

(1) ٢٤ .

العبرية والسريانية، فنراه يذكر الاسم وترجمته العربية، فقينان عبرانى تفسيره باللسان العربى مشترى[1]، ومهليل عبرانى وتفسيره باللسان العربى ممدوح[2] ومالا لى سريانى وتفسيره بالعربى مسيح الله[3].

ويلاحظ عليه الأستاذ كرنكو وهو يصف غزوات ذى القرنين قائلا[4]: "هذا الشعب ينفذ إلى جابرصا، وهذا الشعب يصل إلى هرات ومرو وسمرقند، وهذا ينفذ إلى جاجا وبلخا وحابلجا وبارد، وأرض يأجوج ومأجوج" يلاحظ عليه ملاحظة جديرة بالاهتمام ويقول[5]: "هذه الأسماء كلها محرفة فى الأصل، والمراد بجاجا مدينة جاج فيما وراء النهر، وهى بجيمين فارسيين، وقد عربت العرب اسم هذه المدينة فقالت شاش. وبلجا محرف من بلخ بالخاء، وحابلجا لعله محرف من جابلق. والظاهر أن هذه الأسماء كلها مأخوذة من كتاب باللغة الآرامية بحيث فى آخرها ألف. وأما بارد فلا أدرى أى بلد يعنى بهذا".

فلو صدقت هذه الملاحظة لكان وهب يحسن الآرامية أو يأخذ عمن يحسنها.

ولا يقتصر الأمر على ذلك، بل نراه يذكر بعض اللغات الأخرى مثل الحميرية حيث يقول[6]: وكان يقال لحمير "العرنجج"، والعرنجج: العتيق" وحين يقول[7]: "ذو شدد بلغة حمير كقولك: ذو شطط بن مناح أى ذو عطاء"، ومثل اللغة الحامية

---

(١) ٢١ .

(٢) ٢١ .

(٣) ٢١ .

(٤) ٩٩.

(٥) هامش ٩٩.

(٦) ٥٦.

(٧) ٧٨.

حين يقول[1] : والشام اسم أعجمى من لغة بنى حام، وهو طيب تفسيره بالعربى" .

قد نخرج من هذه الشواهد ونحن على مايشبه الاطمئنان من معرفة وهب باللغة العبرية والسريانية، وفى أنفسنا شيء من معرفته باللغة الآرامية والحميرية.

ومما يزيدنا يقينا بمعرفته اللغات غير العربية ذلك القول فى كثير من المراجع بأنه قرأ الكتب، أو العدد الفلانى منها، وأن تفسيره الكلمات العبرية والسريانية كان صحيحا فى أغلبه. وربما استمد وهب بعض معارفه مما كان شائعا من قصص بين أهل الكتاب، وإن لم يوجد فى إنجيل أو توراة.

هذا هو وهب بن منبه فى "كتاب التيجان" صورة مكبرة مهذبة من عبيد ابن شرية، صورة أحاطت بما تركه عبيد من الأخبار، وأكثر من الإضافات الأجنبية عن العرب الجاهليين، وهى إضافات أملاها الإسلام والقرآن، وإضافات أملاها الاتصال الشديد بأهل الكتاب، وتقبُّل المسلمين لمعلوماتهم ومعارفهم. وإذن فوهب هو المؤرخ القصاص، الذى تغنى بمفاخر وطنه، وأشاد بها ملحمة نثرية بسيطة صريحة، تلبس وشيا من الشعر والقرآن والرسائل والخطب والأحاديث المحبرة المجملة، وقد صاغها الخيال فى إطار أدبى جذاب.

وهذه فقرة من كتاب التيجان[2] :

"ملك الهمال بن عاد"

المعروف بذى شدد، ملك متوج

وإنه لما مات لقمان بن عاد صار الملك إلى أخيه الهمال بن عاد بن اللطاط بن

(١) ٤٩.

(٢) ٧٨.

السكسك بن وائل بن حمير. والهمال بن عاد هو ذو شدد، فلما صار الملك إلى همال ذى شدد دخل إلى المغارة التى دفن فيها أخوه شداد بن عاد، فأخرج التاج وتتوج به. وكان لقمان غيبه فى تلك المغارة، لأنه لم يكن متوجا، كان متواضعا لله. فلما ولى الهمال بن عاد أخذ الملك أخذا شديدا، فولى ذلك حينا من الدهر ثم مات. وإنما قيل له ذو شدد بلغة حمير كقولك ذو شطط بن مناح، أى ذو عطاء".

وينسب حاجى خليفة[1] إلى وهب كتابا آخر يسمى "كتاب الفتوح". ولكن المؤرخين الآخرين لا يذكرون عنه شيئا آخر.

عاصم بن عمر

نرجع إلى المدينة لنجد عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى المتوفى عام ١١٩هـ أو ١٢٠هـ. وقد روى عاصم عن أبيه، واشتهر بأحاديثه عن حياة الرسول عامة، حتى وصفه ابن قتيبة بأنه "صاحب السير والمغازى[2]"، وروى عنه محمد بن إسحاق والواقدى.

وتوضح اقتباسات ابن سعد فى طبقاته عناية عاصم بالفترة المكية من حياة الرسول، إلى جانب عنايته بالفترة المدنية. كما توضح مقتطفات الطبرى أنه اهتم بتاريخ الخلفاء الراشدين، وخاصة أخبار فتنة عثمان. ويذكر عاصم سند رواياته فى غالب الأحيان، ولكنه يهمله كثيرا أيضا، ويتبع غيره فى رواية الأشعار على ألسنة المشركين فى

---

(١) حاجى خليفة: كشف الظنون ٤:٣٨٧.

(٢) ابن قتيبه: المعارف ٢٣٦.

الحوادث[1] وإنما يمتاز بأنه لم يقتصر على جمع الحوادث وروايتها، بل كان يبدى رأيه فيها، ويعلق عليها[2] .

وهذا مثال من أخباره فى وصف بيعة العقبة [3]:

قال إسحاق، وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة:

إن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى، أخو بنى سالم بن عوف: يامعشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نُهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن؛ فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة[4] الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة. قالوا: ابسط يدك: فبسط يده، فبايعوه.

وأما عاصم بن عمر بن قتادة فقال: والله ما قال ذلك العباس إلا ليشد العقد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعناقهم.

---

[1] ابن هشام : السيرة النبوية ٢ : ٦٧ ، ٤ : ١٣.

[2] نفس المرجع ٢: ٨٩.

[3] نفس المرجع ٨٨.

[4] نهكة الأموال: نقصها.

الزهرى

أشهر مؤرخى جيل التابعين هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى المتوفى عام ١٢٤هـ. وقد أمره خالد بن عبد الله القسرى بكتابة السيرة له[١]، كما أمره أيضا بكتابة كتاب عن القبائل العربية الشمالية، ففعل ولم يتمه[٢]. ومن الواضح أن قُرَّة ابن عبد الرحمن يعنى الكتاب الأخير بقوله: "لم يكن للزهرى كتاب إلا كتاب نسب قومه[٣]". ويبدو أن الزهرى كان واسع المعرفة بالأنساب، يقول عنه الليث[٤]: "وإن حَدّث عن العرب والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا". ويخبرنا الزهرى نفسه أنه كتب "أسنان الخلفاء" لجده[٥]، وهى عبارة عن قائمة يذكر فيها تاريخ وفاة الخلفاء وأعمارهم عند الوفاة، ومقدار ملكهم، كما يظهر من القطعتين اللتين اقتبسهما منها الطبرى. ونسب له شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى كتابا يسمى "مشاهد النبى صلى الله عليه وسلم" رواه عنه يونس بن يزيد[٦]. ولا يصل إلينا من الزهرى كتاب خاص مستقل فى التاريخ، على الرغم من كثرة ما دونه لنفسه أو للأمويين، حتى كثرت القصص عن هذا التدوين[٧]. ولكن بعض المتأخرين جمع الأحاديث التى اقتطفتها من مدوناته كتب الأحاديث المتأخرة فى مجلد سماه "الزهريات"[٨].

---

(١) الأصفهانى: الأغانى ١٩ : ٦٩.

(٢) نفس المرجع ٥٩.

(٣) الذهبى: تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٦٨.

(٤) أبو نعيم : الحلية ٣: ٣٦٠.

(٥) الطبرى: التاريخ ٢: ٤٢٨، ١٢٦٩.

(٦) السخاوى: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ٨٨.

(٧) ابن سعد: الطبقات ٢ : ١٣٥.

(٨) كتاب المغازى الأولى ومؤلفوها ٦٥ – ٨٤.

ويبدو من الشذرات الباقية من كتابات الزهرى فى الطبقات خاصة أنه تناول حياة الرسول عامة، ولم يقصر نفسه على الغزوات الفعلية وحدها، وقد تسربت إلى أخباره بعض الإسرائيليات، حتى قال عنه الليث[١]: "وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب لقلت: لا يحسن إلا هذا". ويُعزى إلى الزهرى الفضل فى أنه كان أول من قرن بين الأحاديث المختلفة المصادر فى موضوع واحد لإدماجها فى حديث واحد إجمالى، يصدره بأسماء الرواة مجتمعين[٢]. وكانت هذه خطوة إلى الأمام فى العرض التاريخى. وكان الزهرى أيضا أول من عنى بتدوين الأنساب، فاتجه بذلك وجهة جديدة فى التاريخ. وقد سار الزهرى على منوال غيره من المؤلفين فى ذكر الإسناد تارة[٣]، وحذفه أخرى[٤]، وفى العناية بإدخال الشعر فى أخباره[٥] .

وللزهرى فضل كبير على الحركة التاريخية، إذ أنه نشر كتبه بين الجمهور، وحض على ذلك[٦] . عن يونس قال الزهرى: "إياك وغُلول الكتب" قلت: "وما غلولها؟ "قال" حبسها عن أهلها[٧]". وقد افتخر بنشر العلم فقال: "ماصبر أحد على العلم صبرى، ولا نشره أحد نشرى[٨]".

وهذه فقرة من كتاب "أسنان الخلفاء" تظهر لنا طريقته فيه.؟ قال

---

(١) أبو نعيم: الحلية ٣: ٣٦٠.

(٢) ابن هشام: السيرة ٣ :٣٠٩.

(٣) أبو نعيم: الحلية ٣: ٣٦٥.

(٤) ابن هشام : السيرة ١: ١٢ ، ٧٢، ٣٣٨، وغيرها.

(٥) ابن هشام: السيرة ٤: ٥٩، ٢١٥ ، ٢٣٨ ، وغيرها.

(٦) أبو نعيم: حلية الأولياء ٣: ٣٦٦.

(٧) نفس المرجع.

(٨) نفس المرجع.

الطبرى[1] "عن هشام بن الوليد المخزومى أن الزهرى كتب لجده أسنان الخلفاء، فكان فيما كتب من ذلك:

"ومات يزيد بن معاوية وهو ابن تسع وثلاثين. وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر، فى قول بعضهم، ويقال ثمانية أشهر".

وهذه فقرة من حياة الرسول فى مكة تتناول مبعثه صلى الله عليه وسلم[2] "قال ابن إسحاق، فذكر الزهرى، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضى الله عنها أنها حدثته: "أن أول ما بُدِئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لايرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى نومه إلا جاءت كفَلَق الصبح". قالت: "وحبب الله تعالى إليه الخَلْوة، فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده".

وأسلوب الزهرى كما يبدو من هذه الفقرات سهل منطلق جميل بسيط.

موسى بن عقبة

ينقضى جيل الزهرى، ويظهر جيل آخر، كله من تلاميذه. ونبدأ بموسى بن عقبة المتوفى عام ١٤١هـ. وهو من المشهورين بمعرفة المغازى، وألف فيها كتابا رواه عنه ابن أخيه إسماعيل بن إبراهيم المتوفى عام ١٥٨هـ[3] وقد ضاع هذا الكتاب إلا شذرات نحاول أن نتبين صورته منها. ويبدو أنه كان أصغر حجما من كتب المغازى الأخرى، لأن مالك بن أنس

---

(١) ٢ : ٤٢٨.

(٢) ابن هشام: السيرة ١ : ٢٤٩.

(٣) ابن سعد: الطبقات ٥: ٣١٠.

يقول عنه [1] : "عليكم بمغازى موسى بن عقبة ... فإنه رجل ثقة، طلبها على كبر السن، ولم يكثر كما كثر غيره، وقد أكد بعضهم لألويس شبرنجر Aloys Sprenger فى دمشق أنه توجد منه نسخة هناك، ولكنه لم يستطع أن يراها[2].

ولكن وجدت فى المكتبة البروسية الرسمية قطعة من هذه المغازى، ترجمها الأستاذ إدوارد سخاو E. Sachau إلى الألمانية فى عام ١٩٠٤م[3] ويتضح من هذه القطعة أن موسى لم يتناول المغازى بالمعنى الخاص، بل تناول الهجرة أيضا. وقد اقتبس ابن سعد كثيرا منه عن طريق أستاذه الواقدى[4]، وعن طريق ابن أخى موسى السابق ذكره[5]. وتكشف لنا هذه المقتطفات أن مغازى موسى كانت تحتوى على قوائم بالمهاجرين إلى الحبشة، وبالمشتركين فى بيعتى العقبة، وبالمحاربين فى بدر[6]، فتدعم قول ابن حجر بأنه كتب هذه القوائم عند ما رأى شُرَحبيل بن سعد يدخل فى البدريين من لم يشهد بدرا[7]. وكان الطبرى من الذين رجعوا إليه، فاقتبس منه أخبارا يشير أكثرها إلى عهد الخلفاء الراشدين، والأمويين، إلى جانب عهد الرسول[8].ويروى فى الأغانى خبر يدل على أن موسى بن عقبة اهتم بالأحداث

---

(١) ابن حجر : تهذيب التهذيب ١٠: ٣٦١.

(٢) المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ٨٥ -٨٩.

(٣) سخاو: القطعة البرلينية من مغازى موسى بن عقبة، (تقرير عن أعمال المجمع البروسى للعلوم عام ١٩٠٤م).

(٤) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٤١، ٨ : ١٠، ١١، ١٧١، ١٩٠، وغيرها.

(٥) نفس المرجع ٢: ١ ، ٣ : ١ ، وغيرها.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٢: ١ ، ٣ : ١.

(٧) ابن حجر: تهذيب التهذيب. ١ : ٣٦١.

(٨) ابن سعد الطبقات ٥ : ٣٨٣.

الجاهلية أيضا[1] .

نرى مما سبق أن موسى بن عقبة ينفرد عن المؤلفين قبله بعنايته الزائدة بالقوائم، وتدوينه لتاريخ الخلفاء الراشدين، وبعض الأمويين، بل التاريخ الجاهلى أيضا. ويختص بمراعاته أكثر من غيره لنظام الإسناد[2]، وإن تركه أحيانا[3]. ويعنى أيضا بالأخذ عن مدونات من سبقه، مثل ابن عباس[4] ، كما يعنى بالوثائق المكتوبة[5] . ويقتبس بعض الأشعار [6] ، ويحاول ترتيب الحوادث ترتيبا زمنيا[7] . ويمتاز أيضا بعنايته بأخبار الحزب الزبيرى، ولعل سبب ذلك أنه يكثر الرواية عن جده لأمه أبى حبيبة مولى الزبير بن العوام[8] ، كما يروى عن علقمة بن وقاص الليثى الذى يبدو أنه كان فى جيش الزبير وطلحة يوم الجمل[9] .

وهذه فقرة من تاريخه تبين لنا طريقة تناوله وأسلوبه[10] : موسى بن عقبة عن أبى حبيبة مولى الزبير قال: "لما قتل الناس عثمان رضى ا لله عنه وبايعوا عليا، جاء على إلى الزبير، فاستأذن عليه، فأعلمته به، فسل السيف، ووضعه تحت فراشه، ثم قال: "ائذن له" . فأذنت له ، فدخل فسلم على الزبير، وهو واقف بنحوه، ثم

---

(١) أبو الفرج: الأغانى ٣: ١٦.

(٢) الطبرى : التاريخ ١: ٢٥٠، ١٨٥١ ، ٢٠١٤ وغيرها.

(٣) الطبرى: التاريخ ١: ٢٧٥٥.

(٤) ابن سعد : الطبقات ٥: ٣١٦.

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان ٨٠.

(٦) ابن سعد: الطبقات ٣: ٢٤١، وغيرها.

(٧) هو روفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ٨٩.

(٨) الطبرى: التاريخ ١: ٢٩٨١ ، ٢٩٩٨ وغيرها.

(٩) نفس المرجع ٣١٠٣، ٣١٣٧.

(١٠) نفس المرجع ٣٠٧٣.

خرج. فقال الزبير: "لقد دخل المرء، ما أقصاه. قم فى مقامه فانظر: هل ترى من السيف شيئا؟ "فقمت فى مقامه، فرأيت ذباب السيف فأخبرته، فقال: "ذاك أعجل الرجل". فلما خرج على سأله الناس، فقال: "وجدت أبَرَّ ابن أخت وأوصله". فظن الناس خيرا، فقال على: "إنه بايعه".

ويظهر لنا فى هذه الفقرة نظرة الحزب الزبيرى لمسألة الخلافة بين على والزبير، أكثر مما يظهر أى شيء آخر. وهذا ما يلاحظ على موسى فى أغلب أخباره التى يتتبع فيها أخبار الزبيريين حتى عهد عبد الملك بن مروان.

سليمان بن طرخان

تنتقل الكتابة التاريخية إلى البصرة ليظهر فيها سليمان بن طرخان المتوفى عام ١٤٢هـ. ولم تذكر المراجع القديمة التى بين أيدينا أنه ألف كتبا، وإن كنا نرى اسمه يتردد فى الطبرى. ولكن الأستاذ فون كريمر وجد مخطوطا يحتوى على مغازى الواقدى التى لا تصل إلا إلى إجلاء بنى النضير من المدينة ثم تكمل بجزء من مغازى أبى المعتمر سليمان بن طرخان التيمى المسماة "السيرة الصحيحة" كما يقول الناسخ[1]. وتبدأ سيرة سليمان بالكلمة الأولى فى السطر ١٩ من الصفحة ٣٦٠، وتنتهى فى الصفحة ٤٢٧. فهى تتألف من ٧٧ صفحة من النسخة المطبوعة.

ولا نستطيع من هذا الجزء الباقى من سيرته أن نحكم: هل تناول التاريخ الجاهلى، وتاريخ النبى فى مكة، أو اقتصر على المغازى وحدها، وإن كان الاسم "السيرة" قد يجعلنا نميل إلى الظن بأنه تناول الفترة المكية من حياة الرسول أيضا.

---

(١) فون كريمر : مغازى الواقدى ٤٣٨، المقدمة ٢٣.

ولكن الطبرى يذكر له خبرين عن خلق آدم[1] ، وعن حرق إبراهيم[2]، ثم لم يذكر له شيئا فى حياة الرسول، وإنما يرجع إليه ثانية فى عهد عثمان، حيث يروى بعض ما حدث فى الفتنة. ولا ندرى لهذا سببا: أكان الطبرى غير واثق بمغازيه، أم لم تصل إليه، أم لم يؤلف سليمان مغازى، وهذه المغازى التى بين أيدينا محمولة عليه.

ويرى قارئ "سيرته" أن الأخبار موجزة مضغوطة منسقة منتظمة لا تكثر خلالها الفواصل والزوائد، كما نرى عند غيره من المؤرخين. فهو لايذكر الأسانيد، ولا يعنى بالروايات المتعددة، وإنما يسير على رواية واحدة لا يتعداها. ويمتاز وصفه بالقوة والحياة، يشعر القارئ أنه مشرف على المعركة يرى الأبطال ويشاركهم مشاعرهم وأفعالهم، كما يشعر بأن المؤلف لا يكتفى بمجرد الأعمال وإنما يدقق فيها ويبسطها بسطا صادقا، يجعلنا نستطيع أن نميز ما يدور فى خلجات المؤمنين فى كل موضع من المواضع. وكثيرا ما تكون هذه الانفعالات فى غير صالح المسلمين[3].

ولكننا نراه يأتى بروايات غريبة فى الغزوات الكبيرة المعروفة، تخالف ما أجمع عليه المؤرخون الآخرون. ولنذكر على سبيل المثال ذلك الدور الذى قام به نعيم بن مسعود الأشجعى فى غزوة الخندق. فسليمان يراه من الجواسيس على النبى، على حين يراه المؤرخون الآخرون من المؤمنين الذين خدموا النبى خدمة عظيمة، وساعد على تفريق كلمة المشركين واليهود بخداعهم. وكذلك يأتى بروايات مخالفة فى غزوات بنى قريظة والحديبية وخيبر ومؤتة ووفاة الرسول. أما المؤلفون الآخرون فلا لا يعنون بذكر رواياته على الرغم من اهتمامهم بسرد غيرها من الروايات الكثيرة.

---

(١) الطبرى: التاريخ ١: ٩١.

(٢) نفس المرجع ٢٦٦.

(٣) انظر غزوة الخندق وغيرها.

ولا ندرى ما سبب هذه الإهمال، إلا أن هناك ظنا يخامرنا وهو أن كثيرا من أخباره كان يصور المسلمين صورا لا ترضيهم أو لا ترضى بعضهم[١] . ويورد سليمان أخبارا عن العباس لا نجدها عند غيره من المؤرخين[٢]، وهى كلها فى جانب العباس، مما يغرى المرء بالقول إنها من وحى العباسيين. ولكننا – بعد كل ذلك – نحب أن نشير إلى أن سليمان بن طرخان من المشهود لهم بالعدالة والفضل[٣].

ويعنى سليمان بإيراد الآيات القرآنية[٤]، وشرح مناسباتها التاريخية، والاعتماد عليها، كما يعنى أيضا بالشعر[٥] . ولكن هذا الشعر قليل متضائل بالنسبة لغيره من الكتاب.

وهذه المغازى لها أهمية فوق كل ذلك، إذ أنها أقدم كتاب تاريخى يتناول حياة الرسول، سلم من الضياع، ووصل إلينا شبه كامل، فيما عدا الجزء الذى وجده بيكر من مغازى وهب. وهاك بعض الأمثلة التى تصور لنا طريقة تناوله للتاريخ. يقول فى وصفه لموقعة الخندق [٦] : "فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حفر الخندق أتاه المشركون، فنزلوا به فاقتتلوا قتالا شديدا، بلغ من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كل مبلغ. فحصروهم حصارا شديدا ارتاب منه المنافقون، وشكوا فى نبى الله صلى الله عليه وسلم، وأساءوا. اللفظ فقام رجل من الأنصار يقال له مغيث بن بشير، فقال: "أوعدنا محمد أن يفتح قصور فارس

---

[١] انظر غزوتى الخندق وخيبر.

[٢] ٣٩٦، ٤٣٥.

[٣] مقدمة فون كريمر ٦ وابن حجر : تهذيب التهذيب.

[٤] ٣٦١، ٣٦٤، ٣٧٢، وغيرها .

[٥] ٣٧٤، ٣٩٠، ٣٩٦، ٤٠٢ وغيرها.

[٦] ٣٦٣.

والروم واليمن، ولا يتبرز أحدنا إلى الخلاء من رحله؟ وا لله لغرور". وتابعه على ذلك رهط من المنافقين، فأنزل ا لله تعالى: "وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا ا لله ورسوله إلا غرورا". وزعموا أن قبيلتين من الأنصار، بنى حارثة بن الحارث وبنى سلمة، هموا أن يخلوا من مراكزهم، وقالوا: يانبى ا لله، إن بيوتنا خَلِيّة، نخاف عليها السَّرقَ". فلهم يقول ا لله تعالى: "يقولون إن بيوتنا عَوْرة، وما هى بعورة، إن يريدون إلا فرارا". وذكر في سورة أخرى: "إذ هَمَّت طائفتان منكم أن تفشلا، وا لله وليُّهما، وعلى ا لله فليتوكل المؤمنون". فقالوا بعد ذلك: "ما نحب أن نهم بالذى هممنا به إذا كان ا لله ولينا":

ويظهر أسلوب سليمان في هذه الفقرة سهلا بسيطا سيالا، حارا صادقا موجزا.

وهذه فقرة مما اقتبسه الطبرى من سليمان[1]: "معتمر بن سليمان التيمى. قال ثنا أبى قال قال ثنا أبو نضرة عن أبى سعيد مولى أبى أسيد الأنصارى، قال: "سمع عثمان أن وفد أهل مصر قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم وكان فى قرية له خارجة من المدينة، أو كما قال. فلما سمعوا به أقبلوا نحوه إلى المكان الذى هو فيه. قال: وكره أن يقدموا عليه المدينة أو نحوا من ذلك، قال: فأتوه، فقالوا له: "ادع بالمصحف". قال: فدعا بالمصحف، قال: فقالوا له: "أفتح السابعة" قال: وكانوا يسمون سورة يونس السابعة، قال: فقرأها حتى أتى على هذه الآية "قل أرأيتُم ما أنزل ا لله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا، قل آ ا لله أذِن لكم أم على ا لله تَفْتَرون". قال: قالوا له :قِفْ". فقالوا له: "أرأيت ما حميتَ من الحِمَى، آ لله أذن لك أم على ا لله

---

[1] الطبرى : التاريخ ١ : ٢٩٦٣.

تفترى؟" قال: فقال: "امضهِ، نزلت في كذا وكذا" قال: وأما الحِمَى فإن عمر حمى الحمى قبلى لإبل الصدقة، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت فى الحمى لما زاد فى إبل الصدقة، امضه ...".

ويلاحظ فى هذه الفقرة، وفى فقرة ثانية فى الطبرى[1] تتناول تكملة الحادثة، الإكثار من اعتراض "قال" فى السياق، مما لانجد مثله كثيرا عند الطبرى، مما يجعلنا نرجح أنه من خصائص كتاب سليمان الذى أخذ عنه الطبرى. ولكن المغازى التى بين أيدينا ليس فيها هذا الاعتراض الكثير. ونحن لا نستطيع أن نعمم هذا الحكم من فقرتين فحسب، لأن الفقرات الباقية فى الطبرى من القصر بحيث لا تظهر فيها هذه الظاهرة.

عوانة بن الحكم:

من مؤرخى العراق أيضا أبو الحكم عَوَانة بن الحَكَم الضرير الثقة المتوفى عام ١٤٧هـ أو ١٥٨هـ ونسب له ابن النديم فى "الفهرست[2]" كتابين: "كتاب التاريخ" و "كتاب سيرة معاوية وبنى أمية". وقد شك بعض العلماء فى الكتاب الأخير، ونسبه لمنجاب بن الحارث التميمى المتوفى عام ٢٣١هـ.

وروى عبد الله بن المعتز عن الحسن بن عليل العنزى أن عوانة كان عثمانيا يضع الأخبار لبنى أمية، وترجح دائرة المعارف الإسلامية ذلك الرأى[3]. ولكن الهيثم بن عدى يروى خبرا عنه حين قتل محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن

---

(١) نفس المرجع ٣٠٠٦.

(٢) الفهرست ٩١.

(٣) ياقوت: معجم الأدباء ٦: ٩٤، ودائرة المعارف الإسلامية مادة (عوانة).

أبى طالب بالمدينة، وكيف أنه ترحم عليه وذكر فضله، مما يدل على أنه كان يظهر العثمانية تَقِيَّةً منه، وخاصة أنه فى نهاية الخبر السابق يستفسر من الجالسين إذا ما كان أحد عيون الأمويين حاضرا. فإذا تحقق من عدم حضور أحد أخذ يمدح محمدا مدحا رائعا.

ولا تؤيد الأخبار الباقية لنا منه عند الطبرى[1] والبلاذرى[2] تلك التهمة، إذ لا يظهر فيها أى هوى للأمويين. ولعل الطبرى والبلاذرى لم يذكرا لنا تلك الأخبار التى تظهر فيها عثمانيته وأمويته. ويجب أن نحترس فى هذا الرأى لأننا نجد كثيرا من التهم توجه لعوانة تريد الغض من قدره، مثل تلك الأخبار التى تجعله لايميز بين الشعر والقرآن[3] ، على الرغم من قولهم إنه كان عالما بالشعر والفصاحة[4] ، وعلى الرغم من القصة السابقة التى يمدح فيها محمد بن عبد الله بالآية "التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله" مما يدل على معرفة بالقرآن أيضا. كل هذه التهم تدلنا على أنه كان كثير الخصوم، وإن لم نستطع معرفتهم، وسبب خصومتهم له، وإن خامرنا الظن بأن عثمانيته المزعومة ربما كانت سبب هذه العداوة.

ولا تتناول المقتطفات الباقية من تاريخ عوانة شيئا من حياة الرسول، وإنما تبدأ ببيعة أبى بكر، وتصف الردة، وفتح العراق، وفتح بلدان فارس المختلفة مثل المدائن وجَلُولاء، وهمذان، ووقعة الجمل، وحروب على ومعاوية، والحسن ومعاوية،

---

(١) التاريخ ١ : ١٨٢٧ ، ٢٧٥٥ ، ٣٢٠٤ ، وغيرها.

(٢) فتوح البلدان ٦٢، ٩٤ ، ١٨٢ ، ٢٤٠ ، وغيرها.

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ٦:٩٤.

(٤) نفس المرجع ٩٥.

وتاريخ العراق، وقتل الحسين، وثورة عبد الله بن الزبير، وتنتهى الأخبار بخروج ابن الأشعث وقتل ابن القِرِّية[1] .

ونرى عَوانة فى هذه المقتطفات لايعنى بالأسانيد كثيرا، ويبحث عن الموادفى كل مكان حتى ليأخذها من أقارب المشتركين فى الحوادث. ويعنى كذلك بإيراد الأشعار.

وهذه فقرة من أخباره[2]: "يحيى بن آدم عن عوانة بن الحكم عن جرير ابن يزيد عن الشعبى، قال، قال عبد الله بن مسعود: لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبى بكر: اجتمع رأينا جميعا على ألا نقاتل على بنت مَخاض وابن لَبُون وأن نأكل قرى عربية، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين. وعزم الله لأبى بكى رضى الله عنه على قتالهم فوالله مارضى منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية. فأما الخطة المخزية فإن أقروا بأن من قُتل منهم فى النار، وأن ما أخذوا من أموالنا مردود علينا، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم".

وأسلوب عوانة منساب منطلق، يعنى فى بعض الفقرات بالحوار، والشعر، وما يدور من أبطار الحوادث.

محمد بن إسحاق

أخيرا يظهر محمد بن إسحاق المتوفى عام ١٥٠هـ تقريبا، فيؤلف كتابا يغطى به على جميع هؤلاء المؤرخين المتقدمين، ويجذب أنظار المتأخرين على

---

(١) انظر فهرست الطبرى والبلاذرى.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ٩٤.

الدوام. ويسمى كتاب إبن اسحاق هذا "كتاب المغازى" . ولم يصل إلينا الكتاب بصورته الأصلية. ولكن وصل إلينا قسط عظيم منه فى سيرة ابن هشام، ويقال إن مكتبة كوبريلى بالآستانة تحتوى على مخطوطة من النسخة الأصلية من الكتاب ولكن الأستاذ هوروفتس يرى أننا إذا ما عاينا هذه المخطوطة وفحصناها فحصا دقيقا. وجدناها نسخة من كتاب ابن هشام لابن إسحاق[١] .

وقيل[٢] إن سبب تأليفه المغازى أنه دخل ذات يوم على المنصور وبين يديه ابنه المهدى، فقال له المنصور: أتعرف هذا ياابن إسحاق؟ قال: "نعم، هذا ابن أمير المؤمنين" : قال: "اذهب فصنف له كتابا منذ خلق ا لله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا". فصنف ابن إسحاق هذا الكتاب، فقال له المنصور: "لقد طولته، ياابن إسحاق، إذهب فاختصره". وحفظ المنصور الكتاب الكبير فى خزانته.

ولكن الأستاذ فيك[٣] يرى أن ابن إسحاق لم يؤلف كتابه بأمر من الخليفة ولا فى بغداد أو الحيرة، وإنما فى المدينة قبل إقامته لدى العباسيين. ويستدل على ذلك بأن رواته الذين أخذ عنهم جميعا مدنيون ومصريون. ولا يذكر أحدا من العراقيين. كما نجد أحد تلاميذ ابن إسحاق المدنيين يروى الكتاب، وذلك هو إبراهيم بن سعد[٤] المتوفى عام ١٨٤هـ بل نرى فى الكتاب حوادث ما كان يرضى لذكرها العباسيون مثل تدوينه اشتراك العباس فى بدر إلى جانب الكفار، وأسر

(١) المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف ٩٨.

(٢) ابن هشام : السيرة ١ : ط .

(٣) هوروفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ٩٦.

(٤) نفس المرجع. وياقوت : معجم الأدباء ٦.

المسلمين له[1] ، ذلك الخبر الذى حذفه ابن هشام فيما بعد خوفا من العباسيين. وربما أجرى ابن إسحاق بعض التغييرات الإضافية الطفيفة فى الكتاب إرضاء للخليفة، مثل رواياته عن مناصرة العباس للإسلام، أو اعتناقه له سرا[2] ، وإن كانت هذه الروايات أيضا رواها عنه تلميذه المدنى إبراهيم بن سعد، مما يجعلنا نعتقد أنه لم يجرها فى العراق للمرة الأولى.

وعلى الرغم من عدم وصول النسخة الأصلية من الكتاب كاملة إلينا، وحذف ابن هشام أجزاء كثيرة منه، نستطيع تكوين صورة قريبة من الكمال عنه، بفضل المقتطفات العديدة عند الطبرى والمؤرخين المتأخرين، والتى قد تكون محذوفة عند ابن هشام. ويساعدنا على تكوين الصورة تصريح ابن هشام بما أجراه من تغييرات فى الكتاب، إذ يصدره بقوله [3] "وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ولده، وأولادهم لأصلابهم، الأولى فالأولى، من إسماعيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعرض من حديثهم، وتارك ذكر غيرهم من ولد إسماعيل، على هذه الجهة للاختصار إلى حديث سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق فى هذا الكتاب، مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ذكر، ولا نزل فيه من القرآن شأن وليس سببا لشيء من هذا الكتاب، ولا تفسيرا له، ولا شاهدا عليه، لما ذكرت من الاختصار، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره،

---

(١) الطبرى: التاريخ ١: ١٣٤١ ، ١٣٤٤ . وابن سعد : الطبقات ٤ : ٧ .

(٢) ابن هشام : السيرة ٢ : ٣٠١.

(٣) نفس المرجع ١: ٤ .

وبعض لم يقر لنا البكائى بروايته، ومستقصٍ إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه بمبلغ الرواية له، والعلم به". وكان ابن هشام دقيقا فى تصريحه بكل ما يفعله من زيادة أو حذف على الدوام. وفيما عدا هذه التغييرات لا يجرى أى عمل من عنده فى النص الأصلى .

ويظن أن الكتاب كان فى أصله مقسما إلى ثلاثة أجزاء: المبتدأ، والمبعث، والمغازى. أما المبتدأ فيتناول التاريخ الجاهلى. وقد خص ابن هشام هذا الجزء بالحذف أكثر من غيره، ولكن الطبرى حفظ جزءا كبيرا منه فى تاريخه وتفسيره وخاصة ما يتعلق بالأنبياء منه، كما حفظ الأزرقى أخبارا كثيرة تتناول تاريخ مكة القديم، ووعى كتاب عبيد بن شرية بعض أخباره كما ذكرنا من قبل.

وينقسم هذا الجزء إلى أربعة فصول: يتناول أولها تاريخ الرسالات السابقة على الإسلام منذ خلق العالم حتى ظهور عيسى. ويرجع ابن إسحاق فى هذا الفصل إلى وهب ابن منبه، وابن عباس، وأهل الكتاب، بل التوراة ذاتها، إلى جانب رجوعه إلى القرآن. ويورد فيه أخبار أهل الكتاب، والقبائل العربية التى ذكرها القرآن مثل عاد وثمود، بل التى لم يذكرها القرآن مثل طسم وجديس. ويتناول الفصل الثانى تاريخ اليمن فى العصور الجاهلية، وسبب عنايته بهذا التاريخ وجود الإشارات العديدة فى القرآن إليهم، مثل إشاراته إلى أهل الأخدود، وأصحاب الفيل. وقد وعى ابن هشام والطبرى جزءا كبيرا من هذا الفصل. وأما الفصل الثالث فيتناول القبائل العربية وعبادة الأصنام. ويتناول الرابع أجداد النبى المباشرين وديانة أهل مكة. ولا يعنى ابن إسحاق فى هذا الجزء بالأسانيد إلا نادرا، وأغلبها فى الفصل الأول .

أما المبعث فيشمل حياة النبى فى مكة، والهجرة، وربما العام الأول من نشاطه فى المدينة، ونراه فى هذا الجزء يصدِّر الأخبار الفردية بموجز حاوٍ، ويدون

مجموعات كاملة من القوائم: فقائمة بمن أسلم من الصحابة بدعوة أبى بكر[1]، وأخرى بالمهاجرين إلى أرض الحبشة[2]، وثالثة بمن عاد من أرض الحبشة لما بلغهم إسلام أهل مكة[3]، وأخرى وأخرى، مما يطول حصره. ويوجد فى هذا الجزء وثيقة انفرد بها ابن اسحاق من بين المؤرخين الآخرين، وهى معاهدة النبى الأولى[4]، التى كتبها لينظم التعاون بين المهاجرين والأنصار واليهود، بعد هجرته إلى المدينة مباشرة. ويعنى ابن إسحاق فى هذا الجزء بالترتيب الزمنى للحوادث، كما تزداد عنايته بالأسانيد التى يرجع معظمها إلى شيوخه المدنيين .

وأخيرا المغازى، وهى تتناول حياة النبى فى المدينة منذ أول سهم أطلق فى الحرب إلى وفاته صلى ا لله عليه وسلم. وتملأ الغزوات الحربية هذا الجزء، فلا يستطيع المؤلف أن يفصّل الكلام إلا عن مرض النبى الأخير ووفاته. ويسير ابن إسحاق فى هذا الجزء على خطة رسمها لنفسه ولم يتجاوزها، إذ يبدأ الخبر بملخص حاو لمحتوياته، ثم يتبعه بخبر من جميع الأقوال التى أخذها من رواته، وفى النهاية يكمله بما جمعه هو نفسه من المصادر المختلفة. وتكثر القوائم أيضا، عمن حضر بدرا من المسلمين، ومن استشهد من المسلمين يوم بدر، ومن قتل ببدر من المشركين، وما ماثل ذلك فى الغزوات المختلفة. ويلتزم ابن إسحاق هنا إيراد الأسانيد، وجميع رواته من المدينة، وأهمهم الزهرى وعاصم بن عمر وعبد ا لله بن أبى بكر بن حزم، الذين أمدوه بما ساعده فى ترتيبه الزمنى للحوادث. وقد زاد ابن إسحاق المادة التى

---

(١) ابن هشام : السيرة ١ : ٢٦٧ .

(٢) نفس المرجع ٣٤٤ .

(٣) نفس المرجع ٢ : ٣ .

(٤) نفس المرجع ١٤٧ .

أخذها منهم بما جمعه بنفسه من غيرهم من الرواة، ومن أقارب المشتركين فى الحوادث المؤرخة .

وقد لقيت هذه السيرة منذ ظهورها عناية كبيرة، فرواها خمسة عشر تلميذا لابن إسحاق كما يقول فيك[1]. أما ابن هشام فكان يرجع إلى رواية البكائى، وأما الطبرى فكان يرجع فى الغالب إلى رواية سلمة بن الفضل المتوفى عام ١٩١هـ، وأما ابن الأثير فى "أسد الغابة" وابن حجر فى "الإصابة" فكانا يرجعان إلى رواية يونس بن بكير المتوفى[2] عام ١٠٩هـ . ثم كان الناس إلى اليوم يرجعون إليها فى نسخة ابن هشام بعد ظهور هذه .

ونرى ابن إسحاق يرجع فى سيرته إلى العلماء من غير المسلمين فى أخباره عن الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية. ولذلك نراه يذكر بين رواته "بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول[3]" أو أهل التوراة"[4] أو "من يسوق الأحاديث عن الأعاجم"[5]. ويعد هذا تحولا خطيرا من مدرسة المدينة التى لم تكن تقبل مثل هذه الأخبار، ولا مثل هؤلاء الرواة. فابن إسحاق أول من اقترب بمدرسة المدينة إلى مدرسة اليمن فى قبول هذه الأخبار، حتى إنا نراه يأخذ بعض الأخبار عن وهب بن منبه. بل يذهب ابن إسحاق إلى أبعد من ذلك، فيعطينا فقرات من العهدين القديم والجديد مترجمة ترجمة حرفية[6] .

---

(١) هوروفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ١٠٣.

(٢) نفس الموضع .

(٣) الطبرى: التاريخ ١ : ١٤٠ .

(٤) الطبرى: التاريخ ١ : ٤١٣ ، ١٤١ .

(٥) ابن هشام : السيرة ١ : ٣٢٨ .

(٦) هوروفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ١٠٥ .

وعنى ابن إسحاق بالرجوع إلى الوثائق والمدونات، كما حاول أن يذكر الأسانيد، ولكن مادته الكثيرة المتنوعة اضطرته إلى توسيع دائرة رواته، وقبول بعض الأحاديث غير المرضية، والإخلال بنظام الأسانيد، مما أزعج مدرسة الحديث وهالها، فكالت له التهم، وسحبت منه ثقتها[1] .

وينفرد ابن إسحاق عن باقى المؤرخين فى كثرة الأشعار التى أدخلها فى كتابه كثرة أفزعت معاصريه ومن بعدهم. إذ لم يكن يتحقق من صحة الشعر بل يدخل ما يحمل إليه دون تحقيق. ولذلك نجد عنده أشعارا منتحلة ظاهرا انتحالها، مثل تلك التى قيلت فى عهد عاد وثمود[2] . ولكن بعض العلماء[3] اعتذر عنه بأنه اقتبس هذه الأشعار لتزيين تاريخه لا لصحتها عنده، فهو ما كان يتمسك بأنها صحيحة لو أثبت له غير ذلك. وكل ما فى الأمر أن فن الكتابة التاريخية كان اعتاد إدخال الشعر للتحلية منذ الجاهلية. كما أنه اعتذر عن نفسه بأنه ليس عالما بالشعر وأنه يدون ما يحمل إليه[4] .

وكان ابن إسحاق غاية فى النزاهة فى تاريخه، يدون آراء المذاهب المتعادية بكل أمانة وبدون تحيز، حتى لقد روى أشعار المشركين فى هجاء الرسول صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه[5] ، وحتى اضطر ابن هشام أن يلطف من حدة بعض عبارات هذه الأشعار أو أن يحذفها[6] .

---

(١) ياقوت معجم الأدباء ٦ : ٣٩٩ .

(٢) الطبرى : التاريخ ١ : ٢٣٦ وما بعدها .

(٣) هوروفتس: المغازى الأولى ومؤلفوها ١٠٨.

(٤) ابن سلام: طبقات الشعراء ٤ .

(٥) انظر شعر ابن الزبعرى فى بدر وأحد فى السيرة .

(٦) ابن هشام: السيرة ٣ : ١١ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ وغيرها .

ويمتاز ابن إسحاق بأنه لم يكن أول من عرض فترات حياة الرسول باتساق فى كتابه فحسب، بل وسع أفق هذه السيرة، فجعلها تاريخا للرسالة الإلهية عامة، فأدخل فيها تاريخ الأنبياء المتقدمين. ويتحلى كذلك بتلك الخصيصى التى تحلى بها أستاذه الزهرى من قبل، وأعنى بها العناية بربط الأحاديث بموجز يربط بينها ويحوى ما تشمل من أخبار، والعناية بتأليف خبر عام موحد من الروايات المختلفة. وهو يعطينا فى بعض الأحيان تعليقات على الحوادث برأيه. ويظهر ابن إسحاق فى سيرته كاتبا ساحرا، يعرف كيف يجمع مادته بطريقة تجذب انتباه القارئ على الدوام، ويصور لنا الشخصيات التى يصفها بحيث تبرز أمامنا كأننا نراها رأى العين. ومهما اختلفت وجهات النظر فى سيرته، فإنها تقف فوق مستوى سام جدا، بل تزداد قيمتها حين نعرف أنها من أقدم الكتب العربية النثرية التى وصلت إلينا .

ويبدو أن ابن إسحاق لم يكتف بتاريخه الجاهلى والنبوى، بل أراد أن يكمل التاريخ الإسلامى أيضا، فألف "كتاب الخلفاء"[١]. ولكن هذا الكتاب فقد، ولم يصل إلينا منه غير فقرات عند الطبرى، تدون حوادث وقعت فى عهد الخلفاء الراشدين، وعثمان خاصة، بل بعض حوادث العهد الأموى أيضا[٢]. ومع ذلك ليست هذه الفقرات كافية لأن تعطينا صورة واضحة نحكم بها على الكتاب .

وهذه فقرة من مغازيه فى غزوة مؤتة[٣]: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثة إلى مؤتة فى جمادى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة وقال: "إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله

---

(١) ابن النديم: الفهرست ٩٢ وياقوت: معجم الأدباء ٦ : ٤٠١ .

(٢) الطبرى: التاريخ ١ : ١٨٢٣ وما بعدها. والبلاذرى: فتوح البلدان ٢٧٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٧ ، وغيرها .

(٣) ابن هشام: السيرة ٤ : ١٥ .

ابن رواحة على الناس" .

"فتجهز الناس ثم تهيئوا للخـروج، وهـم ثلاثـة آلاف. فلمـا حضـر خروجهـم ودع الناس أمراء رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وسلموا عليهم. فلمـا ودع عبـد ا لله بن رواحة مع من ودع من أمراء رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بكى، فقالوا: "ما يبكيك يابن رواحـة" ؟ فقـال: "أمـا وا لله مـا بـى حـب الدنيـا ولا صبابـة بكـم. ولكنى سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقرأ آية مـن كتـاب ا لله عـز وجـل، ويذكر فيها النار "وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا" فلسـت أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود" فقال المسلمون: "صحبكم ا لله، ودفع عنكم، وردكـم إلينا صالحين" فقال ابن رواحة :

ولكننى أسـأل الرحمـن مـغـفـرة — وضربة ذات فرغ تقـذف الزبـدا

أو طعـنـة بيدى حران مـجـهـزة — بـحـربة تنفـذ الأحشـاء والكـبدا

حتى يقال إذا مروا على جـدثـى — أرشـده ا لله من غـاز وقـد رشـدا

الفصل الثالث

مظاهر الكتابة التاريخية

رأينا أن الكتابة التاريخية العربية نشأت من تيارين مختلفين:

(١) تيار قديم يتألف من القصص الخيالية والأساطير الشعبية المأثورة عن قدماء العرب، التى كان يرويها القصاص المتنقلون عن العرب الشماليين وأنسابهم وأيامهم، وعن ملوك العرب الجنوبيين وفتوحاتهم. وهى قصص لحمتها وسداها الخيال المبالغ، تكثر بها الأشعار، التى كانت فى بعض الأحيان، وخاصة فى الأيام، المحور الذى تدور عليه القصة النثرية، حتى إنه عندما نسيت تلك الأشعار، اندثرت تلك القصص، فاضطر القصاص إلى استحداث أشعار جديدة وإحاطتها بقصص مبتكرة عن هذه الأيام. ولا تعتمد هذه القصص عل توقيت تاريخى لحوادثها، بل تتناول الأحداث المهمة، والحروب خاصة، دون ربط بينها، ودون أن تنظم البحث فى المجرى التاريخى العام. ويتمثل هذا التيار الخيالى فى العهد الإسلامى فى عبيد بن شرية ووهب بن منبه .

(٢) والتيار الثانى جديد استحدثه الإسلام وهو تيار السيرة، الذى يتكون من أخبار علمية دقيقة مضبوطة، متفرعة من علم الحديث، ولذلك نالها ما ناله من نقد وتمحيص. وكانت هذه السيرة تتألف من القصص الصحيحة والخيالية التى أحاطت بشخص الرسول بسبب إجلال المسلمين له. وأخذ المؤرخون يجمعون هذه القصص ويروونها، ويربطون بينها، مستعينين بالآيات القرآنية .

وقد لعب التيار الأول، وخاصة فرع الأيام منه، دورا فى هـذا التيـار، وخاصـة فى الفترة المدنية من حياة الرسول، التـى تمتلئ بـالغزوات. ويظهـر هـذا الـدور فـى طريقـة تنـاولهم لهـذه الغـزوات، فإنهـا تشـبه طريقـة تنـاول القصـاص القدمـاء لأيـام الجاهليين بل لعل الرسول صلى ا لله عليه وسلم كان يمثل فى السير دور البطـل فـى قصص الأيام الجاهلية. ونذكر إلى جانب هذا كله آثارا يهودية ومسيحية، بـل آثـارا فارسية ضئيلة، وجدت أيضا فى هذه السير. وتظهر هذه الآثار جميعا عند وهـب بـن منبه الذى تعتبر كتابته روايات تاريخية لا كتبا تاريخيـة. ولكـن تيـار السـيرة كـان لـه صبغة علمية دقيقة فى المدينة أكثر منها فى أى موطن آخر، لارتبـاط المؤرخـين فيهـا بالأحاديث الصحيحة أكثر من المؤرخين الآخرين، ويظهر هذا التيار العلمـى الدقيـق عند أبان وعروة .

وهكذا نرى أن الكتابة التاريخية نشأت نشأة عربية خالصة، لا يد فيهـا للفـرس أو اليونان فهذه الكتابة بجميع صورها استمرار لما كان يوجد فـى الجاهليـة أو تفـرع لعلم الحديث العربى الخالص. وكان أوائل المؤرخين عربا، سواء كـانوا مـن الجنـوب مثل عبيد ووهب، أو من الشمال كأبان وعروة. ولكن هذه الحركة العربية ما لبثـت أن تأثرت بمؤثرات خارجية من أهل الكتاب والفرس، بـل صـار جميـع المؤرخـين مـن الموالى فى أواخر القرن الثانى من الهجرة. وإذن فالتاريخ الإسلامى يخالف كثيرا مـن العلوم الإسلامية الأخرى فى نشأته العربية الخالصة، ولكن لا يلبث أن يقع فى أيدى الموالى مثل جميع العلوم الإسلامية الأخرى .

وأخذت هـذه التيـارات التاريخيـة المختلفـة فـى التطـور، فنجـد التـاريخ القبلـى الجاهلى أو الأيام والأنساب يعنى بها فى العراق خاصة، ويدخلهـا علمـاء اللغـة فـى نطاق أبحاثهم، إذ أنها تعينهم على فهم الأشعار التى يريدون جمعها وشرحها ويتمثـل

لنا جهد اللغويين فى هذه الناحية فى نقائض أبى عبيدة المتوفـى عـام ٢٠٩ هـ التى يروى فيها أخبار الأيام، ويطيل فى ذلك. أما العناية بالأنساب فتتمثل فى محمد ابـن السائب الكلبى المتوفى عام ١٤٦هـ ، وغيره من النسابين .

ونجد القصص الخرافية الشعبية تستمر فى الوجود، فيظهر عبيد بن شرية الـذى يعنى بتاريخ القبائل البائدة من العرب، ووهب بـن منبـه الـذى يعنـى بتـاريخ اليمـن وأهل الكتاب، ويسير علـى النمـط الجـاهلى المـأثور فـى القصـص الشعبية الخرافيـة المغرقة فى الخيال .

وأما تاريخ السير والمغازى المولود فى المدينة، والمتفـرع مـن علـم الحديـث فقـد تأثر منذ بادئ الأمر بذلك العلم، فظهر الإسـناد عنـد أول كـاتبين فيـه، وهمـا أبـان وعروة، وإن لم يصر ضربة لازم بل كانا يتجاهلانه كثيرا. وأخـذت السـير والمغـازى تتطور سريعا، فنجد الزهرى يخطو بالتاريخ خطوة بارعة إلى الأمام، إذ يحاول الربـط بين الأحاديث، بل يحاول تأليف خبر واحد من الأحادث المختلفة بعد إدماجها، كما يحاول ألا يجعل من التاريخ وقفا على فئة معينـة مـن النـاس، وإنمـا ينشـره للجمهـور كله. هذا إلى جانب عنايته بالأنساب، وخاصة أنساب قومه .

ويشرع مؤرخو المدينة فى الالتفات إلى ميـادين تاريخيـة أخـرى على يـد عـروة وموسى بن عقبة، إذ يمدان البحث فيشـمل تـاريخ الخلفـاء الراشـدين، ثـم الأمويـين وكان ذلك الامتداد من تأثير السيرة أيضا .

ويتوج هذا التطور بمحمد بن إسحاق المؤرخ الحقيقى، الـذى يمثل نهايـة تطـور السيرة ذات النموذج الدينى عند المحدثين، وذات النموذج الملحمـى عنـد القصـاص الشعبيين، والذى يمد بحثه إلى آفاق بعيدة لم يرها المدنيون من قبل، وأعنى بهـا تـاريخ الجاهلية، وتاريخ النبوات قبـل محمـد عليـه الصـلاة والسـلام، وتـاريخ الخلفـاء بعـد

محمد. فمحمد بن إسحاق هو المؤرخ الذى تتمثل فيه كل التيارات التاريخية الموجودة فى عصره .

وتمتاز الحركة التاريخية العربية بعدة ظواهر، نحاول أن نسجل بعضها هنا غير ما ناقشناه من قبل. وأول هذه الظواهر أن المؤرخين لم يكونوا موظفين حكوميين، وإنما كانوا أناسا عنوا بالتاريخ لمجرد الرغبة الشخصية، وحبا فى ذلك العلم. ولذلك نجدهم يؤلفون ما يحلو لهم من كتب، وعما يحلو لهم من حوادث، دون أن تصدر إليهم الأوامر بتناول أمر من الأمور، وترك آخر، إلا فى أحوال نادرة كان يلتمس الحكام فيها من المؤرخ معالجة بعض الأمور التى تذهلم. وضمن لهم ذلك حرية الأداء، وصدق التناول، والنزاهة فى معالجة الأحداث، وخاصة أن أكثر هؤلاء المؤرخين كانوا رجال فقه وحديث .

وهاك مثالا يبين مقدار استقلال هؤلاء المؤرخين، وشجاعتهم فى الثبات على آرائهم، وعلى ما يعتقدونه صدقا. روى الشافعى عن عمه قال[1]: "دخل سليمان ابن يسار على هشام (بن عبد الملك) فقال: "من الذى تولى كبره منهم؟" (يشير إلى الآية فى حديث الإفك) قال: "عبد الله بن أبى بن سلول" فقال: "كذبت، هو على. يا ابن شهاب، من هو؟" قال: عبد الله بن أبى" فقال: "كذبت، هو على" قال: أنا أكذب، لا أبالك، فوالله لو نادانى مناد من السماء: إن الله أحل الكذب، ما كذبت. حدثنى سعيد بن المسيب، وعروة، وعبيد الله، وعلقمة بن وقاص، عن عائشة: "إن الذى تولى كبره عبد الله بن أبى" قال: فلم يزل القوم يغرون به، فقال له هشام: "ارحل فوالله ما ينبغى لنا أن نحمل عن مثلك" قال: "ولم، أنا أغتصبتك

---

[1] الذهبى : تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم ٧٢ .

على نفسي أو أنت اغتصبتني؟ فخلِّ عني" قال: "لا، ولكنك استدنت ألف ألف" فقال: "قد علمت، وأبوك قبلك، أني ما استندنت هذا المال عليك ولا على أبيك ..

وكان هؤلاء المؤرخون علماء يدرسون تلاميذ من الشعب، ويؤلفون كتبهم لهؤلاء التلاميذ، وللشعب أيضا، غير معتمدين على الخلفاء في الغالب، إلا عند الشدائد .

والظاهرة الأخرى هي صحة الأخبار المروية عن الحوادث الإسلامية خاصة، وقد أتتهم هذه الصحة من الطريقة التي عالجوا بها هذه الأخبار. فهم لم يأخذوا إلا عن العدول الثقات، واتبعوا في ذلك ما اتبعه علماء الحديث في نقدهم، فسلمت لهم مجموعة كبيرة من الحوادث. وأتت هذه الصحة أيضا من ابتكارهم التوقيت الكامل، حتى كانوا يوقتون الحوادث بالأيام والشهور والأعوام. وذلك مما يدعو إلى التدقيق في الأخبار وصحتها. حقا، إن هذا التوقيت بدأ ضعيفا مضطربا. ولكن الروايات المختلفة من المصادر المتباينة جعلتهم يطمئنون إلى بعض التواريخ ويستطيعون أن يتحققوا من صحتها .

ولكن هذه الروايات الكثيرة التي كانت تعتمد غالبا على الذاكرة سببت بعض وجوه النقص والفوضى. فإن النسيان اعترى بعض هؤلاء المؤرخين، فجعل بعض رواياتهم يضطرب، ويسوده الفوضى. ولكن على الرغم من هذا يجب أن نقول إن تلك الظاهرة كانت نادرة، وكان المؤرخون يكتشفونها سريعا بفضل الروايات الأخرى الآتية عن مصادر مخالفة للأولى .

وأدت العناية بالروايات المختلفة والأسانيد المتنوعة إلى التكرار إلى درجة الإملال. فالحادث الواحد يوصف عدة مرات، دون أية زيادة أو تفصيل، على حسب الأسانيد المختلفة التي روته ولكن هذه الظاهرة – فيما يبدو – كانت سائدة

فى الكتب الكبيرة وحدها. أما الرسائل الصغيرة فقد نجت من هذه الظاهرة، كما يبدو من سيرة سليمان بن طرخان .

وجعلهم تأثرهم بالأحاديث يصبون كل نقدهم على الأسانيد دون النصوص، مما يسر الانتحال والاختراع. فإن الإسناد يمكن اختراعه بسهولة. وهكذا يمكن القول بدخول بعض الموضوعات فى الميدان التاريخى، وإن كانت هذه الظاهرة يجب النظر إليها على أنها ضعيفة نادرة بسبب نقدهم الشديد للرجال. ولكن لم يكن هذا النقد ذا فائدة كبيرة فى ميدان التاريخ القبلى والقصصى والإسرائيليات .

وآخر الأمر نجد التاريخ الإسلامى بجميع صوره يسير على النمط المعروف عن الرواة الجاهليين، من سوق القصة التاريخية، وتقطيعها بالأشعار التى قد تشرح شيئا من الحوادث أو تعلق عليها، أولا تتصل بها إلا اتصالا طفيفا، وكذلك يعنون بسرد الرسائل والوثائق منذ أوائل عهدهم بالتاريخ .

وإذا ما أحببنا أن نتكلم عن أسلوب الكتب عامة، وجدناه عربيا سهلا بسيطا مبينا، ونجد تصوير الحوادث فيه وضوح وقوة وحياة، حتى ليشعر المرء بالحوادث تقع أمامه، لولا تقطع القصة بالأشعار والتكرار .

ونختم كلامنا عن الكتابة التاريخية بذكر المدارس التاريخية، التى ربما شعر بها القارئ من قبل. فإننا عند تدقيق النظر فى تطور الحركة التاريخية نجد أن هناك ثلاث مدارس واضحة كل الوضوح .

المدرسة الأولى فى الظهور هى المدرسة اليمنية التى يمثلها عبيد بن شرية، ووهب بن منبه. وهى المدرسة التى تظهر فيها الكتابة التاريخية العربية للمرة الأولى. وهى تعنى بأخبار أهل الكتاب، وتاريخ اليمن، وتسرد التاريخ قصصا خيالية

وأساطير شعبية. فهى تمثل استمرار التيار الجاهلى أصدق تمثيل، ولذلك نستطيع أن نطلق على مؤرخيها اسم القصاص الشعبيين، أو الإخباريين، وعلى كتاباتهم اسم الروايات التاريخية .

والمدرسة الثانية مدرسة المدينة، وهى تتألف من الفقهاء والمحدِّثين من أمثال أبان وعروة والزهرى. وهى مدرسة التاريخ العلمى الدقيق الذى يعنى بالسيرة والمغازى ويسير على خطا علم الحديث، ويعنى بالأسانيد، وتتطور مادة هذه المدرسة، فتتسع وتشمل تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين .

وأما المدرسة الثالثة والأخير فى الوجود فمدرسة العراق، ويمثلها عوانة وأبو مخنف الكلبى وغيرهم. وهذه المدرسة واسعة الصدر تعنى بكل تيارات التاريخ الجاهلى والإسلامى. وتعطى عناية خاصة لتاريخ الخلفاء، وكان من أثر عنايتهم تلك أن احتل العراق المراكز الأولى فى هذه التواريخ. لذلك نجد تاريخ العراق وأحداثه مفصلة مطولة لدينا، بينما الأمصار الأخرى، لا تنال غير الإشارات .

ثم نجد هذه المدارس الثلاث تلتقى فتخرج لنا محمد بن إسحاق. فيتناول هذا المؤرخ تاريخ اليمن وأهل الكتاب مثل اليمنيين، ويتناول السيرة مثل المدنيين، وتاريخ الخلفاء مثل العراقيين. بل نجد عنده خصائص المدارس الثلاث، من قصص شعبية، وأسانيد، وأشعار لتحلية القصص، ومن أخبار أهل الكتاب، وباختصار جميع ما فى المدارس يوجد عند محمد بن إسحاق.

خاتمة

هذه هى الكتابة العربية فى نشأتها، قد عرضتها فى مراحلها المختلفة عرضا شاملا، مدققا، يحاول أن ينفذ إلى الأعماق، ويستكشف فى الظلمات، ما يستهدى به إلى السبيل السوى .

وقد رأينا العصر الجاهلى لا يعرف من الكتابة غير بعض المعاهدات والأحلاف وبعض العقود التجارية، وما إلى ذلك مما يمكن تسميته بالكتابات السياسية والاقتصادية أما الكتابة الفنية فلم يعرفها ذلك العصر، ولم تصل إلينا منه أية شواهد كتابية فنية .

وعندما جاء الإسلام انتشرت الكتابة انتشارا كبيرا، وظهرت الرسائل المتبادلة بين النبى والرؤساء، وبين الخلفاء والولاة، بل ظهرت أنواع كثيرة من الكتابات السياسية، والكتابات الدينية، والكتابات الإخوانية. ولكنها كانت كتابة صريحة بسيطة لا ترمى إلا إلى مجرد الإفهام، دون محاولة للتزين أو التجمل، وإن كانت فى أواخر الصدر الأول من الإسلام ظهرت عليها بعض المظاهر التى تنبئ عما ينتظرها فى العصر القادم من عمل وفن .

ومنذ أوائل العصر الأموى ظهر كُتاب محترفون، وظهر ديوان الرسائل. فعرفت الرسائل الفن، وتنافس الكتاب فى إظهار البراعة والفصاحة، ليكسبوا رضى الخلفاء وعطفهم. فظهرت أمامنا عدة ظواهر تدل على تطور الكتابة وترقيها فهذا كاتب يطيل، وذلك يكثر من الغريب، وثالث يستعمل السجع، ورابع ينتقى ألفاظه ويهذب صيغتها، إلى غير ذلك .

وأخيرا تظهر حلقة من الكتاب فى بلاط هشام بن عبد الملك يتزعمهم سالم مولاه، فتأخذ من الثقافات اليونانية والفارسية ما تجمل به أفكارها وأساليبها. وتتمثل هذه المدرسة بأجلى مظاهرها، وأوضح خواصها، فى عبد الحميد الكاتب، الذى كان يمثل أيضا تطور الخصائص الكتابية منذ البداية إلى النهاية. فعبد الحميد إذن العَلم البارز فى الصدر الأول من تاريخ الكتابة العربية الفنية، وهو الذى اطلع على كتابات من سبقه، وتشبع بها، وهضمها، وأخرجها خصائص يتحلى بها وكأن لم يتحل بها أحد قبله. ولكن عبد الحميد - كما رأينا - لم يكن متبعا فحسب، بل كان مبتدعا أيضا، مبتدعا فى أسلوبه الذى لم يرتفع إليه أحد قبله، ومبتدعا فى أفكاره التى استخلصها من المصادر الثقافية المختلفة فى الشرق العربى فى ذلك العصر. فكان العلم البارز من بين سابقيه، والمنار الهادى للاحقيه، ينظر إليه كل من أراد الجمال والفصاحة فى كتابته .

وصفوة القول إن كتابة الرسائل بجميع أنواعها نشأت فى عصر مبكر، بدافع من الظروف والعوامل التى كانت تحرك الجماعة العربية فى عصرها ذلك. فهى ثمرة الثورة التى قام بها الإسلام، وأخضع العرب لها، أمدهم بأسسها التى يقيمون عليها حياتهم الجديدة. وإذن فكتابة الرسائل الفنية العربية كانت ظاهرة حتمية لم يتجنبها العرب، وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها، بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة، التى ذهبت بنظمهم الجاهلية السياسية أدراج الرياح، وأقامت نظما أخرى سامية الذرى، شامخة البنيان. فالعرب ما كانوا يستطيعون بعد انتشار الإسلام أن يرجعوا إلى جزيرتهم، وأن يرجعوا إلى نظمهم القبلية فى الحياة الاجتماعية والسياسية. وكذلك ما كانوا قادرين على الرجوع إلى الشعر والخطابة وحدهما فى حياتهم الأدبية. وإذن نعود إلى القول بأن الكتابة الفنية العربية وليدة الثورة التى قام بها محمد عليه

الصلاة والسلام، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير، وحولت أنظار العالم القرون الطوال إلى تلك الأصقاع الإسلامية، التى ستزى من الحضارة والرقى ما لم يره كثير من شعوب العالم المتمدين .

ونحن نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية كل رفض، فهى ليست مما أدخله الفرس أو اليونان على العرب، وليست مما أدخله غير الفرس واليونان، وإنما هى ظاهرة عربية خالصة، لايد فى نشأتها لأحد غير العرب الذين فتح الإسلام أبصارهم وأفهامهم، وأمدهم بالروح الذى سيبلغ بهم إلى ابتكار ما لم يعرفوا، وإلى الاتصال بما لم يتصلوا به من قبل، وإلى الشغف الشديد، والحماس المفرط، بالعلم والمعرفة. ولكن رفضنا هذا لا يشتط إلى درجة رفض كل تأثير أجنبى، بل نحن نقبل هذا التأثير، ونقول بوجوده، وربما بقوته. فهؤلاء الموالى سرعان ما ينافسون العرب فى هذا الميدان، منافستهم لهم فى الميادين الأخرى، وسرعان ما يزاحمونهم على مورد الكتابة الفنية، ولقد اغتصبوه أخيرا. فكان عبد الحميد وأستاذه بشرى للموالى بما سيكون لهم من مكانة فى هذا الميدان فى مقتبل الزمان .

وإذا كنا نرفض القول بأجنبية كتابة الرسائل الفنية، فإننا أشد رفضا للقول بأجنبية الكتابة التاريخية العربية. فقد ظهرت هذه الكتابة من العناية بالأحاديث الشريفة وجمعها. فعلم التاريخ العربى الإسلامى وليد علم الحديث الإسلامى العربى المحض .

أما ما كان فى الجاهلية فأقاصيص خرافية وأساطير شعبية عن الأيام والملوك العرب والفرس، وربما الرومان. أما نشأة كتابة التاريخ المنظمة الدقيقة فكانت على يد العرب من المسلمين بدافع من العناية بجمع الأحاديث. وكانت هذه الكتابة سريعة التطور، من مجرد جمع لأحاديث دون رابط بينها، إلى تدوين لتاريخ الأنبياء، وتاريخ العرب الجاهليين والإسلاميين على يد ابن إسحاق، فى مدى قرن من الزمان تقريبا .

وقد رأينا عند العرب ثلاث مدارس تاريخية، كلها عربى النشأة، وكلها يستمد تقاليده مما كان شائعا عند العرب فى الجاهلية، ومما استحدثه الإسلام. وقد نقول إن الموالى زاحموا العرب فى هذه الكتابة أيضا، ولكنا نقول ذلك على أنهم تناولوا هذه الكتابة بعد أن أعطاها العرب الصورة التى ستبقى عليها فى يد هؤلاء الموالى، ولن يدخلوا عليها غير قليل من التعديل، وإن أدخلوا فى الأخبار نفسها كثيرا مما جلبوه من بلادهم وثقافاتهم .

وإذن نستطيع أن نصرح، ونحن على أهبة وضع القلم، بأن الكتابة الفنية العربية، بجميع صورها من رسائل سياسية، ودينية، وإخوانية، ومن كتابة تاريخية، عربية النشأة، لم تأتهم عن فرس أو يونان أو هنود، وإنما نشأت على يدهم وفى بلادهم، وبدافع من حاجتهم إليها، ووحى مما خلقه الإسلام من تيارات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية تسيطر على الجماعة العربية. ولكنها ما كادت تسير قليلا حتى أمدتها الروافد من كل جانب، روافد هندية وفارسية من الشرق، وروافد هلينية من الشمال والغرب، والشرق أيضا، وروافد أخرى ضئيلة الأثر. وقد لا تظهر هذه الروافد فى عصرنا هذا، ولكن ستظهر وتؤتى ثمارها فى العصور القادمة.

المــراجـــع

١- أوليرى، بلاد العرب قبل الإسلام، طبع ١٩٢٧ .

Oleary: Arabia before Muhammed

٢- أحمد أمين، فجر الإسلام ١٩٢٨ .

٣- البلاذرى، فتوح البلدان، تحقيق دى غويه .

٤- ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .

٥- خليل يحيى نامى، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، طبع ١٩٣٥م .

٦- الجهشيارى، الوزراء والكتاب، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا بالاشتراك .

٧- السيد عبد الحى بن عبد الكبير الحسنى الكتانى الإدريسى الفاسى، التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كات على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة، طبع الرباط .

٨- زكى مبارك، النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى، طبع دار الكتب المصرية .

٩- مرسيه، المجلة الإفريقية، العددان ٣٣٠ ، ٣٣١ ، عام ١٩٢٧ .

Marcais: Revue Africaine, Nos 330, 331 (perme Trumestre, 1927)

١٠- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، الطبعة الأولى .

١١- الطبرى، التاريخ، طبع أوربا .

١٢- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، طبع أوربا .

١٣- الأزرقى، أحبار مكة، المطبعة الماجدية .

١٤- ابن عبد البر، الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، طبع الهند .

١٥- شوقى ضيف، الفن ومذاهبه فى النثر العربى، ١٩٤٦م .
١٦- ابن النديم، الفهرست، طبع أوربا .
١٧- ابن سعد، الطبقات الكبير، طبع أوربا .
١٨- هورروفتس، المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة المؤلف، طبع الخانجى .
١٩- الحيدر آبادى، مجموعة الوثائق السياسية فى عهد النبوة، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٢٠- اشبيربر: كتب محمد إلى القبائل العربية Dr. Sperber: Die Schriben Muhammads an die Stámme Arabiens - Mitteilugngen des Seminars für Sprachen
٢١- أنيس المقدسى، تطور الأساليب النثرية، طبع بيروت .
٢٢- القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، طبع دار الكتب المصرية .
٢٣- أحمد صفوت، جمهرة رسائل العرب، طبع الحلبى ١٩٣٧ .
٢٤- ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١٩٠٤ .
٢٥- أبو نعيم الأصبهانى، حلية الأولياء، طبع الخانجى .
٢٦- رسالة الحسن البصرى، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٢١ أدب .
٢٧- ياقوت ، معجم الأدباء، تحقيق مرجليوث .
٢٨- الدينورى، الأخبار الطوال، طبع ليدن .
٢٩- ابن خلكان، وفيات الأعيان .
٣٠- محمد كرد على، أمراء البيان ١٩٣٧م .
٣١- دائرة المعارف الإسلامية، مواد "تاريخ" و "سيرة" ومواد أسماء المؤرخين .

٣٢- عبد الحميد العبادى، علم التاريخ تأليف هرنشو، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٣٣- ابن حجر، تهذيب التهذيب، طبع الهند .
٣٤- وهب بن منبه، كتاب التيجان، طبع الهند .
٣٥- كرنكو، أقدم كتابين فى الأدب الشعبى الإسلامى، مجلة الثقافة الإسلامية، ١٩٢٧ .
٣٦- حاجى خليفة، كشف الظنون، طبع أوربا .
٣٧- الذهبى، تراجم رجال روى محمد بن إسحاق عنهم، تحقيق فيشر .
٣٨- البلاذرى، الأنساب، تحقيق آلورد .
٣٩- سخاو، القطعة البرلينية من مغازى موسى بن عقبة .
٤٠- عبيد بن شرية، أخباره، طبع الهند .
٤١- سليمان بن طرخان، السيرة الصحيحة، تحقيق فون كريمر .
٤٢- مرغليوث، محاضرات عن التاريخ العربى - طبع الخانجى .
٤٣- الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، طبع الخانجى .

انتهى بحمده تبارك وتعالى

محتويات الكتاب